

الكتاب العربي السعودي ٣٣

أحمد السباعي

الطبعة الثانية
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال وقلت لصاحبي!!

أفتسألني من هو صاحبي؟

–هو كل من صادفني في بحث أو أثارني لنقاش.

وربما تخيلته كما عاش الشــعراء قبلي يتخيلون من يســألهم عن الدمن والأطلال وعن مسيرة الدرب!!

إنه يسألني عن رأيي في كثير من دروب الحياة وأنا لا أرى ضيراً في الإفصاح عما أراه.

ولغيري أن يخالفني إلى ما رآه!!

قال وقلت

أيخاصَمُون مِن أجل مَبدأ؟

قال صاحبي: ألسنا نزعم أن الإنسان بعد مسيرته الطويلة في الحياة أخذ يتحضر ويباهى بما حقق في مراتب المدنية، فما باله بعد كل هذا يتعامل اليوم بأدنى ما عرف من معاني الوحشية؟؟

قلت: هو ذاك لقد كان ينازل خصمه بالحجر أو الحديد، أو الخشب، في وحشية بالغة لأن ذهنيته الضيقة لا تتسع لفهم خصمه، ولأن خلافه مع الخصم لم يكن خلافاً على رأي، أو عقيدة بقدر ما كان خلافاً على الغنيمة.. ليشبع جوعته، أو المرأة ليطفىء لوعته على نحو ما ألفت الوحوش في غاباتها.

لقد كان هذا مقبولاً يوم كانت الطبائع جلفة لم تهذبها الحياة، ولم تصقل مواهبها، والجلف لا يبالي في سبيل انتصاره أن يدوس في شخصك كل مكرمات الحياة لأنه لا يخاصمك إذ يخاصمك دفاعاً عن رأي، بل بدافع من حقد طاغٍ، وشهوة عارمة، وأعصاب تتوتر في غير منطق.

ولكن هذا الإنسان الذي ساير مئات الحضارات عبر التاريخ، وشذبت طباعه ملايين الأحداث، واستطاع أن يسمو بمعنويته فوق كل ما عرف من مدنيات فوق الأرض.. هذا الإنسان الذي تحدثك ثقافته العلمية عن أرقى النظريات الأخلاقية من العيب أن يسلك في معاملة مخالفيه أرخص المعاملات السلوكية، وأدناها إلى وحش الغاب.

لقد دار في ذهني قبل اليوم ما دار في ذهنك اليوم. فلم أجد ما أعلل به جموده على هذه الوحشية التي كان يتعامل بها قبل مئات الأجيال.

أخشى أن يكون الخلاف اليوم خلافاً على حب البقاء، خلافاً على شهوة السيطرة! فكان لا بد له أن يصطدم ببقاء آخر لا يقل عنه شهوة وحباً في السيطرة!

ما يمنع الناس أن يختلفوا على المبادئ الفكرية دون أن يبالغ كل مخالف في تقدير ما انتهت إليه فلسفته الخاصة إذا كان مخلصاً بحق لمبدئه لا لشخصه؟ والغريب فيما نسمع اليوم أن من قومنا خارج حدود الجزيرة من أغوتهم بعض المذاهب المتطرفة فلم يكفهم أن يقفوا بهذا عند حدود أنفسهم بل راحوا يفرضون غوايتهم على غيرهم بالحديد والنار.. في انفعال حاقد، وشهوة عارمة، وهم اليوم يأبون إلاّ أن يثبتوا وجودهم في تحكم واستعلاء، وهم رغم هذا لم يستطيعوا إلى هذه اللحظة أن يقدموا من تعاليم فلسفتهم الفكرية ما يحقق سعادة الحياة، بقدر ما قدموا عن شهواتهم في السيطرة.

أيقال بعد هذا إنهم يخاصمون من أجل مبدأ؟

لقد عاشت المبادئ مظلومة في كل أدوار التاريخ.. وعاش البشر يتنازعون تحت رايتها إفكاً وبهتاناً كما كانوا يتنازعون في الغاب قبل أن تصقلهم المدنية وتهذب طباعهم فإلى متى؟؟

انطِلاقة الصُّحف

قال صاحبي: ألا تؤمِّل لصحافتنا أن تبلغ في أحد الأيام مبلغ غيرها من الصحف العالمية واسعة الانتشار، فتتوسع في تعليقاتها وأخبارها وتتصدى لسائر الحوادث الداخلية والخارجية بصورة تشبع نهم القارئ المتطلع؟

قلت: وما يمنعني أن أؤمل هذا ونحن على أبواب نهضة عامة، وفي رأيي أن من الإنصاف أن لا ننسى أن صحافتنا لا تزال وليدة أعوام لا تقاس بغيرها إذا عنّ لك استقصاء القياس، وهي إلى هذا صنيعة القارئ المتهم!! كما هي صنيعة التاجر المودرن الذي يحبس ثلث رأس المال على الدعاية والإعلان وهو يعرف مدى أثر ما تفعل الدعاية والإعلان.

إن الأمم التي بلغت اليوم أوج حضارتها لا يعرف الفرد فيها كيف يصافح مائدة إفطاره قبل أن يقرأ أهم أخبار الصحف، ولا يعرف التاجر معنى للرواج قبل أن يبذل المئات أو الألوف في سبيل الدعاية لها والصحف مع هذا تصدر في مجتمعات وأوساط يتجاوز إحصاؤها عشرات الملايين أو مئاتها، فإذا أعطيتني مثل هذه الأوساط الواسعة وهيأت لي من أفرادها من ليس بينهم من يستغني عن تتبع الصحف مهما ضعف شأنه، وأقنعت بيوت المال بفوائد البذل في سبيل الإعلان فثق أني سأضمن لصحافتك نتائج تجاري نظائرها في أرقى بلاد العالم.

لقد قرأت عن صحيفة عادية ذكروا أنها توزع يومياً 130 ألف نسخة ومنها تستطيع أن تقدر عدد سكان المنطقة! كما ذكروا أن دخلها من بند الإعلانات التجارية يوازي مائة ضعف بالنسبة لحصيلتها من البيع فما يمنع مثل هذه الصحيفة أن تنفق عن سعة في سبيل إعدادها؟

ذكروا أن هذه الصحيفة تستخدم ثلاثة مخبرين لتغطية أخبار الحكومة في المدينة، وثلاثة مخبرين لتغطية أخبار الحكومة والمدارس في الضواحي، ومخبراً لتغطية أنباء المدارس والكليّات في المدن، ومخبراً لأخبار المحاكم العليا، وآخر لأخبار المحاكم العامة، وثلاثة مخبرين لتغطية نشاط الشرطة، وستة مخبرين للرياضة، ومخبراً للشؤون الدينية، وخمسة لتغطية أنباء المجتمع والسيدات، ومخبرين للمزارع يعهد إليهم بمهام عامة، ومثلهم يتولون الأعداد الخاصة وأعداد أيام الآحاد، وستة مصورين.

من هذا ترى أن بند المنصرفات بند واسع، ومنه تعلم دون شك أن مثل هذه المنصرفات لا يغطيها إلاّ دخل أوسع، وأن هذا الدخل الواسع يعتمد كل الاعتماد على القارئ النهم الذي باتت الصحيفة جزءاً من حياته كما يعتمد بيوت المال التي تفهم قيمة الإعلان وأثره الحيوي في رواج سلعته.

لا يجب يا صاحبي أن تستعجل الأمر فانطلاقتنا في الحياة لا تزال جديدة. ولقد مرت الأمم الصاعدة قبلنا بمثل ما نمر به اليوم حتى انتهت إلى غايتها، وأنت إذا بدا لك أن تقيس خطوتنا بالنسبة إلى من تقدمنا على الدرب ستجد في مداها الواسع ما يطمئنك على مستقبلنا، وحسبك تأكيداً ما تشاهده من انتشار المدارس هذا الانتشار الواسع الذي عم المملكة من أقصاها إلى أقصاها وفي هذا أفضل ركيزة للبناء الشامخ.

مُنظّمات الشّباب الدَّولية

قال صاحبي: يبدو أن شبابنا قصر نشاطه في أكثر الأحوال على ميدان كرة القدم فهل نسي أن في الحياة من ميادين النشاط عشرات وعشرات يستطيع أن يوزع اتجاهاته بينها؟!

قلت: إن من أطرف ما قرأت عن نشاطات الشباب في السنوات الأخيرة برامج الشباب الدولية. هناك منظمات في أوروبا وأمريكا وبعض بلاد الشرق تتبادل الزيارات بشكل منظم، فقد نشر أن نحو عشرين ألف طالب أمريكي غادر بلاده في السنوات الأخيرة ضمن إطار هذه البرامج، وأكثر من 15 ألف أوروبي ارتحل في سبيل هذه الغاية..

إنهم يسافرون في كل صيف جماعات تتكوّن كل جماعة من عشرة إلى عشرين شخصاً تتراوح أعمارهم بين 16 إلى عشرين سنة إلى مختلف البلدان التي تشملها البرامج في الأمريكتين وآسيا وأفريقيا وأوروبا، حيث يجري توزيعهم تحت إشراف منظماتهم على العائلات في البلاد المضيفة، يعيش أحدهم ابناً لعائلة لمدة شهر يختلط بهم ويعاونهم ويشارك مشاركة فعّالة في أعمالهم حتى إذا عاد طلب إلى العائلة المضيفة انتداب أحد أبنائها الشباب لزيارته في بلدته حيث يختلط بدوره بعادات جديدة ويشارك في سائر أنواع العمل الذي يزاولونه.

إن الزائر الشاب طبقاً لبرامج هذه المنظمات يقاسم العائلة التي تضيّفه طعامها وشرابها ويخالطها فيتعلم لغتها ويدرس أفكارها ويتعرف مفاهيمها في الحياة ووسائل عيشها. وربما اقتصرت بعض المنظمات برامجها على بلادها فندبت من شباب المدن أفراداً ينزلون ضيوفاً على الأرياف يتوزعون بين العائلات يعايشون أهلها ويختلطون بأعمالهم في الزراعة والتسويق وسائر أنواع العمل في الريف، كما يندبون

في الوقت نفسه من شباب الريف من ينزلون ضيوفاً على عائلات المدينة.. ينزل الضيف على بيت العائلة كفرد منها تتبناه العائلة إلى مدته المقررة وتبيح له أن يشارك في أعمالها في المدينة وتطلعه على جميع النشاطات حولها لتستقيم له فكرة عامة عن حياة المدينة وألوان نشاطها في كثير من المرافق العامة..

كتب أحد هؤلاء الشباب بعد أن انتهت ضيافته في إحدى المدن الفقيرة يقول: لقد تفتحت عيناي على أشياء عديدة كنت لا أفهمها. تعلمت ما هو الفقر الحقيقي وتحسست حرارة الشخصية الإنسانية من خلال عيشي ضيفاً في عائلة مزارعة وبدأت أفهم لوناً من الثقافة مختلفة التوجيه عن كل ما أعرف..

وتوسعت بعض هذه المنظمات في برامجها فشكلت لجنة للخدمات الاجتماعية والمساعدات العملية تهيئ رحلاتها في مخيمات تتوزع في أطراف البلاد التي تعين خدمتها فيشارك أعضاؤها في الأعمال العامة في بناء البيوت أو الجسور أو إصلاح الشوارع.

فما يمنع شبابنا أن تكون له منظمات على مثل هذا المنوال تستطيع أن تبدأ نشاطها في شهور الإجازة بين المدن والأرياف يتبادلون الزيارات بشكل منظم فينزل الريفي ضيفاً على بيت في المدينة كما ينزل المدني ضيفاً على بيت في الريف..

يشاركون في أعمال لا يعرفونها ويخالطون حياة يجهلونها..

إنه أسلوب عملي ينشط الدورة الدموية ويوسع مفاهيم الشاب..

كيفَ يكون الحجّ عَظيم الأثر!!

قال صاحبي: ألا ترى أننا معشر المسلمين ننسى كثيراً من المعاني السامية للحج، ونكتفي بأعماله الحركية.

قلت: بلى وذلك شـأننا في أكثر فروضـنا الدينية. فنحن نؤديها أعمالاً حركية وننسى أنها لا تكون صحيحة إلاّ إذا تعاملنا بما توحيه معانيها من سمو!!

وإذا كان موضـوعنا اليوم الحج فليس الحج طقوسـاً مؤداة ننتهي منها إلى الظفر بلقب الحاج، بقدر ما هو تعارف وتقارب وتضامن!

إنه عيد يجمع المسلم في أقاصي الشرق، بالمسلم في أقاصي الغرب، بالمسلم في أطراف الشـمال، بالمسـلم في أبعد الجنوب، يجمعهم على اختلاف ألسـنتهم، وألوانهم، ليتبادلوا الرأي في شـؤونهم ويتعرفوا أحوال أقطارهم، ويطلّعوا على أحدث ما حدث بين أممهم فيتفقوا على ما يصلح أمورهم، ويتضامنوا على ما يؤيد دعوتهم.

وإن ننس فلا ننسى أن الشريعة الإسلامية وهي تتمسك باللغة العربية في تلاوة القرآن وإقام الصلاة كانت ترمي إلى البعيد في سياق هذا الصدد.. ترمي إلى إشاعة هذه اللغة بين أجناس المسلمين لتحيا اللغة كواسطة عقد يجمع الصيني، إلى الهندي إلى قبائل الهوسة في أدغال إفريقيا.

حتى إذا جمعهم جامع في مثل مناسـبة الحج وجدوا سـبيلهم هيناً إلى المفاهمة، وتبادل الآراء، وتوحيد الكلمة على منوال موحد يتضامنون في إطاره ويتعاونون.

هو ذا جوهر الشـريعة ننسـاه وربما عنينا أكثر ما عنيْنا بالظاهرة الحركية حتى انتهى أمرنا إلى ما نعانيه من فرقة وما نقاسيه من تأخر.

ونحن نشهد اليوم أكثر حجاجنا يهبطون هذا البلد المقدس على أمل أن يقدسوا منسكهم وهي طاعة نتمنى إلى الله أن يغدقها بفيض نعمته.. ولكنها طاعة كم تكون

عظيمة الأثر لو عرفنا كيف نجعلها تتسع لحكمة التضامن الإسلامي في ظل بيته العظيم.

كم تكون هذه الطاعة عظيمة الأثر إذا عرفنا كيف نتصافح متحابين ونتعامل متوادين. فلا نغبن، ولا نماكس، ولا نشاكس.

كم تكون هذه الطاعة عظيمة إذا عرف مواطنونا حقوق ضيوفهم من الكرامة والإكرام، وعرف الحجاج واجبهم من دماثة الخلق ولين الجانب.

كم تكون هذه الطاعة عظيمة إذا مشى الأبيض إلى الأسود، والأصفر إلى الأسمر ليسأله الرأي، ويناقشه الأحداث، ويضع يده في يده إيماناً بالوحدة، وتعزيزاً للتضافر، وتوكيداً للتضامن في ظل الإسلام.

هَل آن أوان الحِساب؟

قال صاحبي: إننا نعاصر اليوم أمماً تتحدى الحياة. وتواجه أهوالها، فلا تلبث أن تتحكم في مقدراتها، فما معنى أن نعيش على فتات موائدهم؟

قلت: إنه مرضنا الاجتماعي الذي عاش يفت في سواعدنا.. فنحن نمتطي السيارة إلى أقصى مسافاتنا الشاسعة دون أن نشغل أذهاننا بالوسيلة التي بنيت عليها فكرة السيارة، ونحن نطوي مئات الأميال أو ألوفها على جهاز طائر بين السماء والسحاب دون أن نناقش أسلوب الجهاز الذي شارك الطيور في سمائها، واستطاع أن ينقل حمله الثقيل إلى أقصى بقعة في الأرض، ونحن ننتفع بألوف الأجهزة في سائر مرافقنا الحيوية. ابتداء من ومضة المصباح إلى نبضة اللاسلكي إلى ذبذبة التلفزيون إلى غير هذا وذاك..

ننتفع بكل ذلك في كسل ممتع دون أن تلح علينا ضمائرنا في ضرورة المشاركة لنبدع كما يبدعون أو نبتكر لحياتنا ما يغير تقاليدها ويدفع بها لتشارك الأمم الحية في مضمار التجديد.

إن أدنى ما ينقصنا لنعايش الأمم التي نحيا على فتات موائدها أن ننسى الخصائص الفكرية التي ولدنا بها، وأن نتشجع فنصنع لذواتنا خصائص فكرية جديدة قابلة للتطوير. إن التحديات التي باتت تواجهنا بها الحياة الجديدة لا يصح أن نستسهل مصاعبها أو ننام ونسترخي أمام مآتيها فذلك أقصى ما يؤكد خسارتنا ويحقق فشلنا.

إن أمم الشرق قاطبة أثبتت إلى اليوم عجزها عن مسايرة ما جد في حياتها.. ذلك لأنها استنامت لخصائصها النفسية التي ولدت بها واستروحت الراحة في ظل ما اخترعت لها الأمم الحية من وسائل التقدم ولا يضمن لها القدرة على مماشاة

الحياة ومجاراة السائرين في مناكبها إلاّ أن تأنف طعام فتات الموائد وتجاهد في سبيل أن تثبت غناها بما تبتكر في مجال التقنين فلا تشتري أسطوانة الأجنبي إلاّ إذا وافق أن يبيعه من صنفها جهازاً كامل المعدات.

لقد مرت بالشرق ومرت بأمة العرب عهود كانت تملي فيها علومها وآراءها ومبتكراتها على كل متطلع إلى تجاربها، فما بالها اليوم تنسى أمجادها وتستنيم لسؤال عود الكبريت والإبرة وريشة القلم؟؟

لقد صنعت نفسها دون شك يوم صنعتها وفرضت ذاتيتها يوم فرضتها وأكبر ظني أنه لو تهيأ لها اليوم أن تحاسب نفسها بالمقاييس التي كانت تعتمدها معياراً للحياة الصحيحة لثبت لها مقدار الخسارة التي منيت بها في عصرها الحاضر، فهل آن أوانها لتناقش نفسها الحساب؟

تيَار الحيَاة لا يصيخ لنقاش

قال صــاحبي: مررت اليوم بكســارة ميكانيكية في أحد جبالنا الشــامخة تؤدي عملها بشكل جبار يفصل الصخور، ويطعن الأحجار فتداعت الأفكار في رأسي: ترى كم عامل استغنى عنه صاحب هذه الكسارة وتركه لا يجد عملاً؟

قلت: إنها فكرة إذا اتخذتها مقياســاً هدمت الحياة، وحطمت عجلة التطور، وعشت في أول كهف يصادفك كما عاش أجدادك يوم نشأت الحياة.

تســتطيع أن تطبق آراءك على أحدث الآلات الزراعية فتلغيها، وعلى وســائل المواصلات بأنواعها فتمحوها، وعلى سـائر بيوت الصـناعة الميكانيكية فتهدمها.. لتجد اليد العاملة في رأيك ميدانها واسـعاً، ولا تنس بعد هذا أو قبله إن شـئت أن تمنع آلات الطباعة أن تدور ليجد النساخون والمسوِّدون سبيلهم إلى الإرتزاق.

سـلام على ألوف الكتب وملايين الصحف والمجلات والنشرات وفي هذا سـلام على الثقافة في أوسع مجالاتها التي تلفظها المطابع مع طلوع كل شمس لتغذي عقولنا بالكثير الذي ليس له مدى.

أنا لا أســتبعد وجود أفراد مهما قلوا يعيشــون على مثل هذه الأفكار.. ولكن تيار الحياة في طريقه لا يبالي بالأخذ والرد.

لا.. لا يا صاحبي ليس لك أن تفلسف معطيات الحياة على هذا النحو الجامد.. ليس لك أن تجدف على الكسارة أو الآلة مهما كان نوعها وإلاّ كان على جدك أن يلعن الأزميل والرفش لأن آباءه كانوا لا يعرفونه قبل أن تتطور بهم الحياة..

ثق إن تيار الحياة لا يعرف الفلسـفة، ولا يصـيخ لنقاش فحذارِ أن تقف في مجراه صلداً يابساً أو تعرض نفسك لإعصاره الجبار.

مَاذا عِنْدَهُم؟؟

قال صاحبي: يسألني عن أروع ما لفت نظري في رحلاتي إلى أوروبا وأمريكا.

قلت: أهم ما لفت نظري أنهم أقوام تعوَّدوا النظر إلى البعيد. هم يحتفون بمصالحهم حفاوة بالغة الأثر وفي سبيل هذه الحفاوة يعرفون كيف يحسنون التعامل فيما بينهم وبين مواطنيهم وبينهم وبين سائر من يعاملهم من الأجانب والغرباء في أساليب ربما حسبتها أثراً كنتيجة للنظر البعيد لا أكثر!!

فمصالحهم وأرباحهم وكل مقومات نجاحهم تعتمد في أهم ما تعتمد على كياستهم وحسن تعاملهم.

وأحسب أنهم بمرور الأيام وتحت ضغط مصالحهم انطبعوا بطابع الكياسة في التعامل فباتت جزءاً من حياتهم، فأنت لا تتفق مع أحدهم على موعد إلاّ وجدته حريصاً يحسب له الدقيقة والثانية، وأنت لا تعقد معه صفقة إلاّ تسلمتها نظيفة قلّ أن يشوبها شائب، ولا تبتاع سلعة إلاّ وجدت ثمناً مقدراً محدوداً لا يغتالك فيه سعر!!

قل أن تجد البائع الذي تساومه وتحاوره فإذا ثمن السلعة يهبط إلى النصف أو الثلث إذا طالت المماحكة ذلك لأن لسمعته حقاً لا يصح أن يغفله فيسيء بذلك إلى مصالحه.

وأنا عندما أقول إنهم انطبعوا على حسن التعامل في أكثر أعمالهم اليومية فإني أعني ذلك بمعناه فأنت لا تجدهم مجتمعين في مقر تجاري أو أمام أحد مكاتب المسؤولين في إدارة رسمية أو مؤسسة أهلية إلاّ رأيتهم ينتظمون في صف طويل يأخذ فيه الشخص منهم دوره في نظام مقدَّر لا يسبق غيره ولا يزاحمه، أو يتقدم عليه

وربما طال الحديث بين المسؤول وأحد مراجعيه وأنت إلى جوار المراجع في سبيل أمر هام فليس لك أن تنبس بحرف يقطع حديثهما مهما طال الحديث ومهما استغرقك الوقت!!

عليك أن تحترم دور غيرك وأن تعطيه فرصته في غير تشويش.

لا أنكر أن لكل شعب حسناته وسيئاته، وأن لبلاد الشرق من الحسنات ما يصح أن يزدهي بها، ولكنَّ كثيراً من أوساطنا لا تحسن الأتيكت الناجح في سبيل مصالحها.

إنها أولى من يبيع في نظافة، ويشتري في غير مماحكة، ويعقد صفقاته بكلمة محترمة، وموعد صادق، وأساليب شريفة تبني سمعتها بين أمم العالم وتضمن لها مركزاً له قيمته الرفيعة.

كيف نقضي عُطلتنا؟

قال صاحبي: والآن وقد عادت العطلة الصيفية ستعود التساؤلات إياها عن فراغ العطلة وكيف يقضيها شبابنا.

قلت: لقد قرأت عن بلد أوروبي خبراً مؤداه أن اتحاد الطلبة قرر قبل حلول الصيف أن يستفيد الطلبة سياحياً من شهور عطلتهم، فقرر تنظيم الراغبين منهم في مجموعات يتراوح عدد أفراد المجموعة من عشرين شخصاً.. تنطلق المجموعة بكامل أفرادها وخيامها ومعداتها في صورة لا تختلف عن نظام الكشافة، فتبدأ سياحتها إلى بلد أو أكثر خارج القطر وتنطلق غيرها إلى بلاد أخرى في آسيا أو إفريقيا أو جنوب أمريكا بشكل لا ترهقه النفقات فخيامهم مهيأة للنزول في أي بلد يختارون وهم يتعاونون أينما نزلوا على إعداد طعامهم بأيديهم عدا ما ينتظرون من مساعدة البلاد التي يهبطونها كضيوف رحَّل، وهم بهذا يتعرّفون إلى بلاد يجهلونها ويدرسون تقاليدها وعاداتها وأخلاقها. عدا ما يتمتعون به من مناظر خلاّبة ومشاهدات رائعة وتجارب واسعة. فلو فكر المهيمنون على شبابنا في المملكة في مثل هذا الرأي ودرسوا تفاصيله وما يمكن تطبيقه في ضوء حياتنا لاستطاعوا أن ينتهوا إلى نتائج تهيئ لهم معارف واسعة واحتكاكاً نافعاً وتسلية مفيدة في أسلوب نشيط.

في استطاعة فريق من الأساتذة أن يدرسوا الفكرة فينطلق كل منهم على رأس مجموعة من طلبته ليبدأ سياحته بهم لا أقول خارج حدودنا إلى قارات نائية فحسبنا بلادنا الشاسعة فنتفرق فيها أوزاعاً ندرس طرقها وجبالها وواحاتها ومناطق الآثار فيها ومنازل البدو الرحل من فيافيها نختلط بهم وندرس أسلوب حياتهم ونتعرف إلى تقاليدهم فنقضي بذلك أكثر أيام العطلة في حياة حركية وعيش لذيذ متجدد!!

وســـوف لا نتكلّف في ســـبيل هذا إنفاقاً مرهقاً إذا أعددنا خيامنا وتعاونا على إعداد الطعام بأيدينا واســـتعنا بتبرعات أثريائنا وهم كثر وعرفنا كيف نعيش رحلتنا بأسلوب الكشاف الذي يرى متعته في الانطلاق والتقشُّف.

مَزيداً مِن العناية بالبَدوي في خيمتهِ

قال صاحبي: ما ذكاء يثير الدهشة ألاحظه في هذا الأعرابي القبيلي الذي يحمل إلى بيتنا الماء.

قلت: إنها خلَّة أصيلة كدنا أن نفقدها في أعرابنا الأقحاح! فقد عشنا دهراً طويلاً نهملهم ونتركهم للفاقة والجهل ولكننا اليوم وقد شرعنا نبني لهم المدارس في قراهم البعيدة وأحيائهم القاصية، وبين لحاف جبالهم.. وننجدب لهم خبراء الشؤون الاجتماعية والزراعية، واختصاصيي الصحة العامة فسترى كيف يعقد المستقبل عليهم آماله الواسعة، ويبني على كواهلهم ما يرجوه من أمجاد.

أنت تعرف مما قرأت عن تاريخ فجر الإسلام أن بدورك هؤلاء كانوا عماد الإسلام، وكانوا أساطينه الراسخة، وأعلامه الشاهقة.. لقد جندوا أمامه الجيوش، وفتحوا الفتوحات، وأسسوا الممالك، وتصدروا في ممالكهم الجديدة سائر شؤون الحياة.. سياسية كانت أو عمرانية، أو اجتماعية، أو علمية.. لقد نبغ منهم رجال في الفقه، وسائر علوم الدين، كما نبغ منهم القادة، والساسة، وبرز منهم أعلام في الفلسفة، والطب، والرياضيات، وسائر الفنون التي شاعت لعهدهم.. فلم يصعب عليهم مجال ولم يحل دون تفوقهم حائل.

فهل نسينا كل هذا؟

أحسبنا نسيناه يوم نسيناهم، ونسينا شمائلهم، وتجاهلنا مواهبهم، وتركناهم عصوراً طويلة يتمرَّغون في الجهل والحاجة.

نسينا أحياءهم وقراهم ومنازلهم بين القفار الغامرة، والرمال العاتية.

نسينا واحاتهم المزهرة، وأرباضهم الآهلة، وتركناها للجفاف يحيلها إلى هشيم، ولقسوة الدهر تذروها مع الرياح.

وبعد فهل تنبهنا؟

يبدو أننا بعد لأي طويل بدأنا نذكرهم.. بدأنا نفهم حقوقهم في الحياة فهذه المدارس التي شرعنا نشيِّدها بين منازلهم، وهذه المراكز الجديدة التي شرعنا ننشرها لتعنى بزراعتهم، وتشرف على أعمالهم الحياتية من صحية إلى اجتماعية إلى آخر ما هنالك من اختصاصات حيوية ستكون لهم مركز انطلاق جديد، وستثبت للأيام القادمة مبلغ حصافة البدوي وكفاءته ومواهبه الأصيلة.

وما لنا نذهب بعيداً ونحن نرى اليوم طلائع النمو تتهادى في أفنائها بين السهول والوهاد، ونرى بعض حصادها يفيض ليزاحم المدينة في كفاءاتها.

حيهلا بهذه الطلائع ومزيداً يا قوم من هذه العناية لنمحو أخطاء ما أسلفناه في عهود النسيان!!

نستطيع أن نبني عَلى كواهِل قبائلنا

قال صاحبي: ما فكرة يكاد يعتنقها رجال القبائل في باديتنا تجعلهم يستعيبون احتراف المهن بالغ ما بلغت بهم الحاجة.

قلت: لا عجب فيما ترى فالأمر لا يقتصر على بلادك وحدك.. لا، ولا على عربك وحدهم. ذلك لأن البادين في سائر أقطار العالم كانوا يستعيبون امتهان الحرف قبل أن يتفتق الوعي في البلاد التي تحضرت وتفتق وعي القبائل فيها.

لك أن تطمئن يا صاحبي على مسيرتنا في الحياة بعد أن انتشرت المدارس في الأصقاع البعيدة من بوادينا وبدأت أذهان الصغار من أبنائنا تفهم الحياة على غير النحو الذي كان يفهمه آباؤهم. لطالما حزّ في النفوس أن يجد الطارئ على بلادنا آفاق العمل المهني مفتوحة على مصراعيها وقل أن يجد من يزاحمه عليها بينما يظل البادون وأنصاف المتحضرين مترفعين عن مجاراته فيما يعمل وحتى إذا وجد بين الطارئين من يدفعه إخلاصه إلى أن يستعين بأحد هؤلاء المترفعين قوبل في كثير من الأحوال بكثير من الاشمئزاز، ولو عقلوا أنها فرصة الحياة وأنها وسيلة لا لكسب العيش فقط بل لإحلالهم محل الطارئين يرثونهم فيما يمتهنون، ويخلفونهم في شتى المجالات فلا يلبثون أن يغنوا بلادهم عن الأيدي الأجنبية ويحرزوا لأنفسهم مصدراً للرزق ويثبتوا للحياة أن مفاهيمهم تتسع لإدراك معاني الحضارة.

أقول طالما حزّ في النفوس هذا الصدود غير الواعي ولكن آمالنا في التربية الجديدة التي باتت تبثها المدارس بين منازل البدو وأماكنهم البعيدة تفتح أمامنا آفاقاً من الأماني العزيزة.

وإذا كان لنا ما نتمناه إلى القائمين بأمر هذه المدارس فذلك ألاّ يركّزوا جهودهم على تلقين المقررات بحروفها ليكسبوا لطلابهم ما يهيئهم لدرجات الاختبار فذلك

ما لا ننتظره منهم أننا نترك بين أيديهم خامات صـــالحة للإعداد والصـــياغة لا ليفترضـــوها أوعية يملؤونها بالجمل التقليدية والحروف الميتة بل ليعمدوا إلى أرواحها فيلهبوا أحاســيســـها، وإلى عقولها فيفتحوا مغاليقها، وإلى أذهانها فيدربوها لتناقش الحياة في مختلف وجوهها.

إننا نترك بين أيديهم قبائل تجري في عروقهم دماء أصـــيلة.. تنزع في طبيعتها إلى كل أصيل يحقق لها أمجاد الكرامة والعز.

وليس بينهم وبين ما تنزع إليه طبائعهم إلاّ أن تعلمهم كيف تكون الكرامة بمعناها الصحيح، وكيف السبيل إلى ما يشتهونه من عز الحياة وأمجادها.

إننا بهذا نسـتطيع أن نبني على كواهلهم لحضـارتنا، ونسـتطيع بما فطروا عليه من مميزات أن نشيد لبلادنا ما نرجوه لها.

ما أحوجنَا إلى مَيادين العَمل الحُرّ

قال صاحبي: سيتم ابن أخي دراسته في هذا العام وهم يعدون له عملاً ممتازاً في إحدى وظائف الحكومة فليت الظروف التي ساعدته على هذا النجاح تساعد ابني لأراه في بزته النظيفة غادياً إلى عمله الوظيفي آيباً منه في سمته المحترم.

قلت: ولماذا تحدد أمانيه في الحياة بهذه الصورة المحدودة وأمامه من مجالات العمل ما يتسع لشتى الجهود الناجحة في بيئته التي لا تزال بكراً في نظر المجدين من أصحاب الأذهان المرنة والأفق الواسع.

إننا ونحن نحدد اتجاهاتنا بهذا السبيل السهل من الأعمال الوظيفية نفقد الكثير من جهود شبابنا في المجالات الحرة، ونعطي الفرصة واسعة لكل طارئ يبني لنفسه في مجتمعنا ما يضمن له السعادة والثراء والمركز المرموق.

لقد بتنا نتخيل سعادة الحياة في مربوط شهري نتناوله عند كل إهلال شهر دون أن نكبِّد أنفسنا أي مجهود يذكر لبلادنا وليس هذا من غاية الحياة في شيء فالحياة اليوم أوسع آفاقاً مما نتخيل وأبعد آماداً مما نظن.

وبلادنا في خطوتها الجديدة في أشد الحاجة إلى كفاءات أبنائها وأن يبذلوا نفوسهم في كل مضمار متناسين رفاه الوظيفة وطراوتها.

ليس لنا أن نقول: أين مجالات العمل وأين ميادينه المنتجة؟ فتلك تعلات يتعلل بها محدودو الأفق ممن يطمئنون إلى الراحة ويلذ لهم أن ينعموا بأجوائها الحالمة.

إن الأعمال لا تنادينا وليس لها أضواء كاشفة تنير سبيلنا إليها إنما هو نداء الأعماق ينادي الطامحين ويستفز أصحاب الآمال الواسعة ليستعملوا عقولهم في ابتكار وسيلة يزاحمون بها في الحياة ويختطوا بها طريقاً يبنيهم ويحقق آمالهم.

أعرف شاباً ابتعث لإتمام دراسته في أوروبا فلفت نظره بيت صناعي يجهز نوعاً من الأدوات المنزلية لها حتى احتال لدراسة الفكرة.

وخالط مهندسيها حتى اختمر الموضوع في رأسه وأصبحت لديه حصيلة صالحة. واستطاع عندما عاد إلى بلاده أن يقنع أحد المتمولين بحيوية الفكرة وأن يثبت إخلاصه لإنجاحها فقبل أن يمولها كشريك مضارب وهي اليوم صناعة قائمة راجت في أسواقنا رواجاً أثرى من ورائها فتانا وحقق للممول ما لا يحلم به من أرباح وأغنى بلادنا عن استيراد أصناف مصنفة من كل ما له علاقة بدواليب المصنع.

ذلك فتى عزّ عليه أن ينيط أمله بالعمل الوظيفي الرتيب فأبعد به الخيال حتى احتك بالأعمال الحية في دنيا النجاح واحتال حتى أثبت كفاءته.

فلو أباح شبابنا لخيالهم مثل هذا الانطلاق الواسع ولم يربطوا مقدراتهم بأحلام العمل الوظيفي لتفتحت أمامهم آفاق وآفاق لا حدّ لسعتها واستطاعوا أن يحققوا في دنيا النجاح ما لا تحققه الوظيفة مهما اتسع مداها.

الإمام الغزالي بَين المادة والرُّوح

قال صاحبي: ما أكثر ما اختلف الناس في شأن أئمتهم البارزين في تاريخ الفكر الإسلامي.. ولكن شأنهم فيما يلوح لي مع الإمام الغزالي كان يتسع لمدى كبير من المفارقات العجيبة.

قلت: هو ذاك وحسبنا لهذا مثلاً أن كتبه لم تنتهِ إلى الأندلس حتى كانت سمعته قد سبقته إليها؛ فضجّ لها العلماء والفقهاء وبالغوا في اتهامها وحملوا أمير البلاد على حرقها خشية الإفساد.. ولكن ما لبث أن تغير الحاكم حتى وجد الأمير الجديد من يؤكد له ضرورة تربية النشء على أخلاق الغزالي فأعاد ما اندثر من كتبه وفرض دراستها في المجامع العامة.

ترى هل كان الغزالي فيلسوفاً لا يعتمد في نظرياته إلاّ المحسوسات التي ضللت قبله آلاف المتشككين؟! أم كان من رجال اليقين الذين اهتدوا بهدى الله ولم يتعسفوا في محاولة ما تقصر عنه معارف البشر وتعجز دونه أفهامهم؟؟

أمتعقِّل هو على نحو ما فعل المتعقِّلون في انتهاجهم نهج فلاسفة اليونان؟

أم كان متصوّفاً يستوحي ما حاوله الصوفية من فيض الإلهام؟

ذكر بعض من ترجم له أنه عندما أرهقته شكوكه الفكرية لجأ إلى الله مستغيثاً فتفتحت أمامه آفاق جديدة رأى نفسه بعدها مشوقاً إلى الهجرة من بغداد عاصمة الصراع الفكري يومها ففر منها إلى مكة في صحبة بعض الفقراء من المتصوِّفة بعد أن تزيّا بزيهم وعكف بعكوفهم يجاهد نفسه ويغالبها وامتدت هجرته إلى بضع سنوات كان يحلو له فيها أن ينفرد بنفسه في القفار الموحشة ويقضي لياليه متبتلاً في كهوف ومغارات مظلمة!!

ويترجم له آخرون فلا ينكرون تصوفه ولكنهم يأخذون عليه ما أخذ نفسه به من مغالاة الصـــوفية. كما يأخذون عليه أن في الفترة التي نذر نفســـه فيها للرد على فلسـفة الإسـلام تكلّف من ألوان الفلسـفة ما شـط به عن المأثور بدليل ما جاء في كتابه "تهافت الفلاسفة" من عبارات لا يراها علماء الشريعة.

والواقع الذي يسـتطيع اسـتنتاجه كل متتبع لما بين أيدينا من تراث الإمام الغزالي إذا صح أن تراثه سليم من تزيُّد المتزيِّدين.

الواقع أن متتبع آثار الغزالي يحار في تحقيق ما أخذ الغزالي نفســـه به، فهو في ســياق الفلســفة لا يتقيد كثيراً بما يتقيد به الشــرعيون كما أن جولاته في عقائد الصوفية مدت له في خيالات أوسع مما كان ينبغي!!

قد يعجبك في زهده أنه بدأ بنفســه فنقدها وأعلن أن تدريســه لم يكن خالصــاً لوجه الله وإلى أن ينقطع عن التدريس حتى تخلص نواياه من الشـوائب. ولما عاد إلى ما كان بعد لأي قال: كنت أنشر العلم الذي به تكسب الحياة وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به.. تترك الحياة!!

ترى كم عالم بيننا يستطيع أن يصارح بأن تدريسه لم يكن لوجه الله!!

لا شــك في أن للغزالي رحمه الله أكثر من جانب فليت المعنيين بدراســة رجال الفكر في تاريخ الإســلام يعنون بدراســة أمثاله وتنقية ما تركوا من تراث لتبدو حقائقهم واضحة للعيان.

عَليْنا أن نُنَشّئُهم عَلى الاعتدال

قال صاحبي: أرأيت هذا الذي يأبى على ولده الطالب الصغير أن يشارك الصغار ألعابهم، وأن يخالطهم في لهوهم وجريهم بحجة حاجته إلى الدأب على مواصلة الدرس.. فلا يجب في رأيه أن يتخلل الدأب شيء من الاستجمام لأن الوقت كما يقول: أثمن من أن يضيع في اللعب.

قلت: إننا في أكثر مآتينا ننسى فضيلة الاعتدال فتذهب جهودنا سدىً بين الإفراط والتفريط، ولست أجهل شأن هذا الذي تعنيه فقد رأيته أكثر من مرة يزجر ولده عن مخالطة الصغار أترابه في ألعابهم، ويدفع به قسراً إلى كراريسه في البيت ليتفرغ لها بكل ما يملك من طاقة.

ولقد قلت له مرة إن هذا الدأب المتتابع الذي تأخذ به طفلك لا يهيئه لنتاج فذهنيته إذا كلّت بطول الدأب الذي تفرضه عجزت عن أداء وظيفتها وتعطلت ملكتها فلا بد أن تمنحها فرصة كافية ترخي لها فيها العنان لتبدد سأم العمل الجاد، وتستأنف حيويتها من جديد.

قلت هذا وأكثر من هذا فما زاد على أن ضحك في سخرية وولى ولم يعقب، واستمر يأخذ ولده بما يعتقد في غير هوادة. وأنا عندما أقول إن جهودنا في كثير من مآتينا تذهب سدى بين الإفراط والتفريط أعني ما أقول بكل معانيه وفي قصة الصغير الذي تعنيه وعلاقته بإفراط أبيه شاهد مما أقول.

فقد نشأ الأب أمياً محروماً من التعليم نتيجة لتفريط والده قبله فنشأ الوالد أول ما نشأ في حجر أبيه مدللاً فلم يخضع لنظام المدرسة واستثقل تكاليفها فأسلس له أبوه العنان وتركه يقضي حياته عابثاً فلما تكامل، واستوى عوده أدرك مبلغ ما انتهى إليه التفريط. وشعر أنه خسر الكثير وأن الحياة التي واتت غيره من زملاء

الحياة قعدت به في مؤخرة الصفوف فترك هذا من ردّ الفعل في نفسه ما وجد أثره اليوم في صغيره المسكين.

لقد صور له خياله أن نجاح الحياة رهين بالمثابرة الجادة المتواصلة التي لا تعرف الراحة ولا تتخللها فترات الاستجمام فأخذ صغيره بهذا الجد، وحرمه حقوقه من عبث الصغار ولعبهم حرماناً تاماً.

ولو علم أن العمل الشاق المتواصل لا يقل فشله بحال عن العبث المستهتر، ولو أدرك أن التفريط والإفراط صنوان لا تختلف نتائج أحدهما عن الآخر في حياة الإنسان لاختط لنفسه ولصغيره أسلوباً يميل إلى الاعتدال ويؤمن بالتوسط في كل مآتي الحياة.

علّموا صغارنا يا قوم كيف يواظبون على واجباتهم ويجاهدون في سبيلها كما تعلمونهم كيف يخالفون بين أوقات الجد بفترات يرخون فيها العنان لأنفسهم فيبددون السأم ويقضون على بواعث الكلال الممل وبذلك تضمنون لهم نجاحاً مطرداً في الحياة.

إذا عَوّدْناهم القراءة الحُرّة

قال صاحبي: ما بال الكثير من شبابنا لا يتعشق المطالعة الحرة، ولا يبذل في سبيلها جهداً يذكر.. وهو إذا قرأ لا يقرأ الدسم النافع.. أما أمهات الكتب العربية فقل أن يعرف عنها شيئاً يستحق الذكر!!

قلت: إنها أحاسيس السن المشبوب لا يصح أن تطالبها لتتعقل عقال الكهل، وتلتمس الفائدة للفائدة لنفسها كما يعقل أمثالك وقد شارف الخمسين!!

إنهم في حاجة إلى ألوان من سياسة الإغراء وغير قليل من أساليب التشويق خصوصاً فيما يتعلق بنفائسنا القديمة.. أترى هذه الكتب التافهة والقصص الرخيصة؟ إنها تغريهم بما تتفنن من أساليب العرض حتى تربطهم بعجلتها فيسيرون في ركابها وهم يظنون أنها أمتع ما يقرأ.. مما يصادف في نفوسهم هوى!!

إننا نستطيع أن نساير هذا الهوى المشبوب إلى حد يمكننا أن نحتال عليه فنغريه.. ثم لا نلبث بشيء من التشويق أن نمتلك ناصيته.

إن الأدب العربي القديم مفعم بمئات الكتب التي تقص علينا من الطرائف والقصص العاطفية ما يشوق الشاب لمتابعتها إذا عرفنا كيف نغريه بقراءتها.

إن أول ما يرعى نظره في نفائسنا القديمة غلاف يتراءى أمامه باهتاً في لون الأكفان.. وعهده بالكتب المشوقة يتألق فن الشياطين في أغلفتها بكل ما يملك الشياطين من ألوان الإغراء!!

فإذا نحن حاولناه ليتخطى الغلاف إلى ما وراءه من الرائع المستظرف ليدرج من قصة، إلى طرفة، إلى حكمة، حتى يندمج فإذا اندمج خسره فن الغلاف بكل ما يملك الغلاف من أفانين الشيطنة وكسبته القراءة نفسها.

لا يا صاحبي.. لا يجب أن نغالط أنفسنا فنلحى الشباب وحدهم!! إذا اختلط عليهم الطريق.. عليك أن تلحانا إلى جانبهم!! ما دمنا لم نقدر جذوة السن المشبوب!! ونعرف كيف نحتال لتوجيه طاقته الموقدة.

إننا بعد أن قنعنا بإلغاء العصا شرعنا نتفنن في أساليب التوبيخ والتقريع.. وربما كان فيهما بعض الخير لو قصرناهما على مثل الملح في الطعام وعرفنا مدى السوء كلما بالغنا فيهما!!

لندع كل هذا.. ولنفتح أمامهم الطريق مشوقاً، ونختار لهم من الكتب ما تغريهم طرائفها.. حتى إذا اندمجوا أضفنا غيرها حتى تصبح القراءة هوى لذاتها، ثم وسيلة للمفيد النافع!!

لقد كنت فتى وكان لا يلذ لي أن أقرأ إلاّ للتسلية والتسلية وحدها في قصص تافهة أو روايات ضاحكة ولكني ما عتمت أن ألفت القراءة فرأيتني أنتقل من التافه الضحل إلى المفيد الخفيف الظل الذي لا يكلفني عنتاً في الفهم ثم ما لبثت أن استمرأت القراءة للقراءة ذاتها.. فحاول أن تغري ابنك بقراءة كل ما يصادف هواه ليستمرئ القراءة.. ومن ثم سيمضي إلى نهاية الشوط الذي تتمناه.

أَسَّس الأَمويُون وشاد العبّاسيُون

قال صاحبي: قرأت فيما قرأت مفاضلة ذكرها التاريخ عن شخص أموي وآخر عباسي.. وقد راعني ما ذكره الأموي عن جهود بني أمية في سبيل الدين.. فقد بلغوا به شأواً بعيداً وأنجب عهدهم من فطاحل الإسلام من لا يزال ذكرهم على كل لسان كما راعني خدمتهم للغة العربية حتى استطاعوا تعميمها في جميع الأقطار التي فتحوها وحتى نسيت هذه الأمم لغاتها الأصلية، وانطلقت ألسنتها وأقلامها تشايع العرب وتشاركهم لغتهم في شكل موحد!!

قلت: وليس في هذا ما يغمط جهود العباسيين وخدماتهم في سبيل الدين، واللغة والفتوحات الكبيرة.. وقد لمع في عهدهم من أساطين هذه المجالات من لا يزال ذكرهم ملء السمع والبصر، كما لمع من أساطين عهدهم إلى جانب ذلك رجال خدموا الإسلام واللغة، وخدموا الحضارة العربية بما نقلوه من ثقافة الحضارات القديمة وفنونهم العلمية.

لا يجب أن ننسى جهود الخليفة المنصور، ومن عقبه إلى نهاية عهد الرشيد في سبيل الثقافة، وما اقتضته ضرورة مدنيتهم من علوم الحضارة وفنونها.

وإذا عنّ لنا أن لا نتقيد بمذاهب العاملين في مجال الحضارة العباسية، وما شاع من نحلهم وعقائدهم، واعتبرنا أمجادهم لبنة في صرح بني العباس الشامخ فيجب ألاّ ننسى يوحنا بن ماسويه، وابن المقفَّع، والنظّام، وجورجيس بن جبرائيل، والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفي، وإسحاق بن حنين، وحنين بن إسحاق، وثابت بن قره، وقسطا بن لوقا وعبد المسيح الحمصي، ومتى بن يونس، ويحيى بن عدي،

ومئات من أمثالهم دأبوا في كنف العباسيين على السهر المتواصل في سبيل العمل الجاد لصرح الحضارة العباسية.

لقد بذل رجال الدين، وأساطين الأدب واللغة في هذا العهد ما لا ينسى فضله كما بذل من ذكرت أسماءهم وأمثالهم في سبيل العلوم الحضارية ما يجب أن تعترف بقدره.

وجدوا عصرهم في أشد الحاجة لدراسة الطب وتركيب الأعشاب، والفلك، وحركات النجوم، وطبيعة الأشياء وكيميائها وعلوم الحساب فتوافروا على دراستها في الكتب الفارسية، والهندية، واليونانية، والسريانية، وترجموا لأرسطو وأبقراط وأفلاطون وجالينوس وبطليموس واستطاعوا أن يستقلوا بنتائج ما درسوا واستنبطوا لأنفسهم من بين هذه العلوم ما أصبح بعدهم منبعاً ثرياً استفادت منه أوروبا وشادت على أساسه ما بهرتنا به نهضتها.

إذن فنحن إذا كنا نذكر للأمويين فضل ما أسسوا فعلينا أن نقدر للعباسيين ما شادوا في صرح الإسلام وما هيأوا في سبيل حضارة العالم.

مِن تُرّهات التّاريخ!!

(1)

قال صـــاحبي: ما بئر حفره في مكة خالد بن عبد الله القســـري في عهد بني أمية وساق منه الماء إلى المسجد الحرام ليضاهي به زمزم.

قلت: وهل يســـوغ لعقلك أن رجلاً كخالد القســـري وهو المعروف بغيرته على الإسلام ومحارم الإسلام تطاوعه نفسه على هذه السيئة؟ وإذا استسغت هذا فهل يتبادر إلى ذهنك أن مثله يجرؤ على مثل هذا في بلد حرام يحج إليه مئات الألوف بينهم من لا يحصيه العدد من حماة الإسلام ممن لا تأخذهم لائمة في مجاهرتهم بالحق واستنكارهم لأعمال الباطل مهما كان مصدرها؟؟

ألا تدري أن خالداً هذا بلغ من غيرته لمحارم الله أن أمر في عهده بهدم بعض المنائر عندما بلغه أن بعض المؤذنين كانوا يغازلون فيها.

ألا تدري أن خالداً هذا عندما بلغه قول الشاعر:

يا حبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

غضب لهذا أشد الغضب وقال أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف وأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط فهل يغضب خالد لغزل المؤذنين فيأمر بهدم المنائر ويغضب لاختلاط النساء بالرجال في الطواف فيأمر الحرس أن يعتمدوا سـياطهم للتفريق بين الرجال والنســاء ثم يجد في نفســه ما

يطاوعه على خطيئة كهذه يسيء بها إلى قداسة زمزم ويسيء بها إلى شعور المسلمين في مواسم تضج بالعلماء والفقهاء ورجال الغيرة من قادة المسلمين ووجهائهم.

نحن لا ننكر أنه احتفر بئراً ساق منه الماء يجري في قصب من رصاص إلى فوارة تسكب الماء في فسقية من رخام جعلها بين زمزم والركن والمقام.

إنها ولا شك حسنة أراد بها أن يوسع على الموسم إذا اشتد الزحام على زمزم ويسهل أمر الوضوء لمن ضاق به وقت الوضوء.

علينا أن نتثبت ما نقرأه فقد منيَ التاريخ في سائر عصوره بأصناف من النقلة متزيدين أو معرضين أو دعاة لباطل.

مِن تُرّهات التّاريخ!!
(2)

قال صاحبي: وما أخبار قيلت عن الوليد الخليفة الأموي.

قلت: أفصحت لك فيما أسلفت عن رأيي في بعض نقلة التاريخ ممن شايع الباطل خدمة لأغراضه أو رجاء لمنفعته أو مشايعة للقائمين بالأمر أو ميلاً للتندر والفكاهة فتركوا لنا بذلك أرتالاً من الأكاذيب احتضنها التاريخ في غفلة من الحياة فباتت محسوبة عليه.

أيصح في حدسك ما يذكره بعض الرواة عن الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك أنه أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة.

وهل يدور في خلدك أنه يستفتح بالمصحف فأله؟ فتطالعه الآية وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) إبراهيم: 15) فيعمد إلى سهامه يرمي بها المصحف حتى يمزقه وهو يقول:

تهددني بجبار عنيد
نعم أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم بعث
فقل يا رب مزقني الوليد

إن إنساناً يملك ولو ذرة من عقل لا يستطيع أن يصدق أمثال هذه الروايات عن فجّار يجاهرون بعصيانهم ويفخرون فكيف تصدر عن خليفة يحتل الذروة العالية في بيئات تدين بالإسلام ويعرف على أيسر تقدير أنه لا يليق بسياسة مركزه العظيم أن يجاهر بمثل هذا الكفر الصراح ليترك نقلة الأخبار يشيعونها عنه ويسجلونها عليه.

إنها ترّهات لا يشك عاقل في أنها كانت تختلق اختلافاً لخدمة الخصوم.. للدعاية السيئة.. لرواج الباطل، وإنها كانت إلى ذلك مصادر رزق للنفعيّين.

ذكروا أن الفرزدق سئل مرة (كيف تهجو الحجاج وكنت تمدحه في قصائد عامرة؟ فقال: نكون مع الواحد منهم ما كان الله معه فإذا تخلى عنه انقلبنا عليه.(

هذا هو التلوّن المقيت الذي منيَ به التاريخ في مختلف عصوره فأضاع صواب أرجح العقول وبلبل أفكار النقلة والمؤرخين.

إننا في أشد الحاجة إلى حصيلة واسعة من الذكاء وملكة جدّ فاحصة ننقد بها كل ما نقرأه فندقق ظروف نقله وحقائق رواته وسائر الملابسات التي هيأت لتسجيله وإلاّ فسنظل مرتهنين بالبلبلة والارتباك.

والآن بَعد أن استقلت بلاد العَرب

قال صاحبي: ما تناحر بين صفوف العرب اشتد أواره كلما اشتدت أزمات الأيام.

قلت: لا يعلم إلاّ الله مقدار ما عانى العرب على اختلاف أقطارهم في سبيل الاستقلال والحرية حتى انتهوا إلى ما ظفروا به في أعقاب الحرب الأخيرة وباتوا ناعمين بما ملكوا من مقدراتهم وما نالوا من استقلالهم.

إن أكثر المتناحرين اليوم في أقطار العرب من أصحاب اليمين أو الشمال كانوا من خيرة المجاهدين في ميادين النضال الحر عانوا في سبيل بلادهم ما لا يحتمله إلاّ حُرٌّ فجاهدوا وقاسوا من أجلها ألواناً من شظف العيش وتعرضوا لأصناف من الأهوال لا يعلم مداها إلاّ الله حتى استطاعوا أن يثبتوا أحقيتها في الحياة، ويؤيدوا مركزها بين العالم المستقل، ويهيئوها للجلوس في مصاف أمثالها من الأمم الحية.

كان العرب في حقبة سالفة من الدهر لا ينعون على أنفسهم شيئاً كما ينعون جهلهم وتخلفهم عن مواكب الحياة فما كادوا يملكون مقدراتهم حتى تزاحمت أقطارهم على منابع العلم ينهلون منها ونشط المخلصون لتعبيد كافة المسالك في سبيل الظفر بالمكان الذي يليق بشعوبهم ويساعدهم على إعدادها إعداداً له قيمته بين معاصريهم من أمم الأرض.

وفي سبيل الظفر بتلك المكانة تنادوا بالوئام واستطاعوا أن يجمعوا شتاتهم في هيئات اتخذت مكانتها بين هيئات الأمم واستطاعوا أن يرفعوا أصواتهم بين جنباتها وأن يدللوا على مبلغ حيويتهم وأن يتركوا أثرهم في جميع المحافل التي ترتادها أقوى الأمم وأكثرها جدارة بالحياة؟؟

فهل جدّ بعد هذا ما أساء إلى كيانهم وزعزع الثقة في مركزهم الجديد بين مصاف الأمم؟

إنه سؤال تلوح في ثناياه علامة استفهام بارزة الخطوط.. وإنه إحراج لا يعرف العربي المخلص لقوميته كيف يتخلص من وخزه المؤلم.

إن أخشى ما أخشاه أننا شرعنا بتناحرنا نعرِّض بلادنا من جديد لمشاكل كنا في أشد الغنى عن التعرض لها.. وإننا بتنا منذ اليوم نعود القهقرى إلى مضاجعنا القديمة قبل أن نستيقظ، وأصبحنا نشرع معاولنا لتهدم كل ما بذلناه من جهد وتنقض جميع ما بنيناه لحرية بلادنا واستقلالها.

شرعنا نحتك بالأقوياء من غير طينتنا ونمتحن إمكانياتنا الجديدة بما لا تستطيع الثبات فيه إذا جد أوان الجد فإذا عصفت بنا العواصف غداً وإذا اجتثت ما بنيناه لحريتنا واستقلالنا وحرمتنا ما ظفرنا به بعد طول الجهد فالذنب في هذا ليس ذنب الطامعين بقدر ما هو ذنب المتناحرين من بني قومنا في سائر أقطارهم.

فهل يخفف المحتاجون بعض غلوائهم ويعودون إلى ضمائرهم فيحاسبونها على ما اقترفوا بعنادهم وما عرَّضونا له بتناحرهم؟ أم هم سائرون فيما أرادوا من شطط حتى يسلموا بلادهم إلى أسوأ العواقب وأشدها خطراً على حياة الحرية والاستقلال؟

لا يجب أن نتخَاذل

قال صاحبي: أترانا بعد هذه النكسة إلى خير؟

قلت: إذا كنا قد أصبنا يوم النكسة في فلسطين بالأمس فلسنا أول مصابين في الحياة. فتاريخ الأمم والشعوب حافل بالكثير من أمثال هذه الحوادث التي ضرب فيها على المبادئ وأصيب أصحابها بأكثر مما أصبنا ثم ما لبثت عجلة الزمان أن دارت دورتها لتعيد الحق إلى نصابه وتبطل كلمة المبطلين.

إن العزيمة الصادقة لا يضيرها أن تخيب في جولة أو أكثر وإن الإيمان الصحيح لا يثنيه أن تعانده الأيام أو يجري ريحها في غير ما يشتهي.

لئن مسّنا اليوم قرح فقد مسّ آلاف الأقوام قبلنا قرح مثله بل وأكبر منه أثراً وأشد فداحة.. تلك أيام الله يداولها بين الناس وتلك سنته في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

لعلّها المحنة التي يمتحننا الله بها لنعود إلى أنفسنا فنناقشها الحساب! ترى هل كنا يداً واحدة على قبلة واحدة؟ وهل كانت قلوبنا خالصة فيما نستقبل؟ متعاونة على ما نستدبر؟

أم كنا أوزاعاً يشتتنا الحسد؟ وتفرقنا الأحقاد؟ وتتنازعنا الأهواء؟ ويغرينا ببعضنا حب الاستعلاء؟؟

ترى هل كانت إخوّتنا خالصة؟ وكانت كلمتنا صادقة؟

..هل عشنا لا نراوغ؟ ولا نخادع؟ هل عشنا لا نتآمر ولا نتنابذ ولا يخذل بعضنا بعضاً؟ ولا يبني أحدنا مجده على أنقاض غيره؟؟

إن صدق النقاش ونزاهة الحساب خير ما يضمن مسيرتنا.

وليس أنبل في الحياة ولا أشـرف من أن يدرس الخاطئ أخطاءه ويعرف المسـيء إسـاءاته ليقف بها عند ما عرف. ثم يسـتأنف مسـيرته من جديد فيما يليق به من مسالك الشرف.

أنا لا أشـك أن إصـابتنا كانت درسـاً أراد الله أن يذيقنا به بعض بأسـه لنذكر ما نسينا من معاني الوفاء، وحقوق الإخاء.

فلنحمد الله أن قدّر وتلطف، ولم يذقنا كل بأسـه.. وليكن في هذا ما يحفزنا لإعادة الصـفوف وتسـويتها لتسـتقيم في مسـيرتها الجديدة نقية نظيفة معنية بالمفيد المثمر الذي لا يشتت قواها ولا يشغلها عن هدفها الصحيح في الحياة.

الوقف الإسلامي بينَنا وبينهُم

(1)

قال صـــاحبي: ألا ترى أن قصـــة الوقف في الفقه الإســـلامي خدمت كثيراً من الأغراض الإنســـانية وكفلت أجيالاً من المعوزين والمحتاجين وســـاعدت في كثير من مشاريع الخير مما لا تجد له مثيلاً في كثير من أمم الأرض؟

قلت: ولكن المعروف أن كثيراً من الأمم المتمدنة استعارت الفكرة الإسلامية في الوقف وقلدتها بل إن بعض هذه الأمم ذهبت في شأنها بعيداً.

وما جائزة نوبل المشـــهورة بعيدة عنا.. فهي حصـــاد أموال موقوفة على غرار ما تعارف عليه الوقف الإسلامي.. لقد نقلوا فكرة الوقف عنا وتوسعوا في مجالها فهناك اليوم أموال موقوفة لا على الزوايا والأربطة وإطعام الطعام بل على تدعيم العلوم والتكنولوجيا وإعانة بحوث الاستفادة من المخترعات وبناء معامل في المعاهد العلمية والجامعات وإقامة معارض علمية أو فنية وإعداد باحثين ليحاضـــروا في مختلف البحوث والدراسـات التي تقتضيها ظروف خاصـة في بيئة أصـحاب الوقف أو أي بلد تقرر إعانته تحت تأثير ظروف طارئة.

لقد قرأت عن وقف (فولكس فاجين) إنه دُعي مرة ليعين إحدى الجهات العلمية في شراء جهاز مبتكر بيسر (للفيزيقيين) تعجيل الجسيمات النووية ببراعة فائقة وقد قدرت قيمة الجهاز بـ 200 ألف جنيه فاجتمع مجلس الوقف وقرر في جلسة واحدة بالإجماع تقديم المبلغ لشـــراء الجهاز. ودعي في مرة أخرى لشـــراء ميكرســـكوب إلكتروني احتاجه أحد المعاهد وتبين من دراســـة الموضـــوع في مجلس الوقف أن قوة مثل هذا الميكرســـكوب ذات كفاية خاصـــة قادرة على التكبير إلى ضـــعف قوة

الميكرســـكوبات العادية فتقرر شـــراؤه مهما كان الثمن، وإهداؤه للمعهد خدمة لجهوده العلمية، وتقديراً لها.

وهنـاك أوقـاف تتعـدد مســـاعـداتها بتعـدد الأغراض العلميـة، والاجتمـاعيـة، والمشـروعات الحيوية، فإذا جرف الفيضـان داراً للكتب، أو المحفوظات الأثرية بادر أقرب وقف للمدينة للإصلاح والترميم، وتعويض مفقودات الدار.

وإذا احتاج مجلس إحدى القرى إلى بناء ســـد أو مصــرف للمياه، أو صـــومعة للقمح، بادر مجلس القرية إلى الاتصـــال بأحد هذه الآفاق فلا يلبث مجلس الوقف أن يجتمع على الفور لدراســـة الطلب وعلاقته بالفائدة العامة للقرية فإذا ثبت ما يؤكد المصـلحة نظم قراراً بالموافقة على صــرف المبلغ الذي يقدره خبراء الوقف أو من يندبه مجلس الوقف من المهندسين وأحيل على التو إلى الخزينة لصرفه للمفوضين بإقامة المشروع تحت إشراف مجلس الوقف.

وربما استدعى الحال بعد الشروع في العمل زيادة المخصص لسبب طارئ فيعاد الأمر إلى مجلس الوقف لتعاد الدراسة، ويعتمد المبلغ المضاف.

هو ذا أسلوب الأموال الموقوفة التي ورثوا فكرتها عن الفقه الإسلامي ثم توسعوا في فهمها في ضوء متطلبات الحياة عندهم.

الوقف الإسلامي بينَنا وبينهُم

(2)

قال صاحبي: قلت بالأمس إن الأمم المتمدنة عندما استعارت قصة الوقف من الفقه الإسلامي توسعت في مجالاته حتى خدمت كثيراً من الأغراض العلمية والتكنولوجية فما يمنعنا أن نتيح لأوقافنا مثل هذه الآفاق لتساعد على تطوير بلادنا؟

قلت: إن الوعي الذي شرع يتفتق على أثر النهضة الجديدة كفيل بأن يفتح أذهاننا لمثل هذه المعطيات. فقد كانت فكرة الوقف قبل اليوم تخدم أكثر ما تخدم بعض الوجوه الدينية وفي استطاعتنا اليوم ألاّ ننسى نصيبنا من الوجوه الدنيوية دعماً لمركزنا كمسلمين نعيش بين مئات الأمم ونرى لزاماً لحيويتنا أن نزاحمهم على ما يضمن عزتنا ومجدنا.

حقيق بوعينا أن يهيئ أوقافنا لتخدم إلى جانب إطعام الطعام وبناء الملاجئ وغيرها من وجوه الخير وجوهاً جديدة ترفع مستوى التعليم مثلاً وتنفق في سبيل تيسير اللغة العربية قراءة وكتابة وتوحيد مناهج الفقه الإسلامي في تبويب مبتكر يضمن أيسر السبل. في استطاعة أوقافنا أن تساعد فقراء الطلبة وأن تعين المتخصصين في الجامعات والمعاهد والكليات وتفتح المجال أمامهم لمتابعة ما تخصصوا في دراسته وأن تمنح الأكفاء منحاً دراسية عالية إذا ثبتت أهليتهم لها وتبين عجزهم المادي عن متابعة سيرهم فيها، وتساعد الشباب الذين يكرّسون جهودهم لتحضير الدكتوراه ليستطيعوا كتابة الرسائل التي نذروا أنفسهم لها دون أن تعرقلهم منغصات مادية.

في اســـتطاعة أوقافنا أن تبني مختبرات لطالب المعرفة وأن تجهزها بطاقة الأجهزة التي يعجز عنها هواة البحث وأن تســاعد المكتبات العامة على شـراء أندر الكتب وأثمن المخطوطات وتعين الفنيين في مختلف مجالاتهم بما يحقق للبلاد نهضة واسعة وتنفق على المتطوعين لنشـــر الإســـلام في مجاهل الأرض كما تنفق على التأليف والنشـــر لترفع صوت البلاد عالياً في أرجاء الحياة.

وفي استطاعة أوقافنا أن تساعد خطوتنا الجديدة في مجال الأبحاث الطبية والعلوم الطبيعية والدراســات البيولوجية التي شــرع بعض شــبابنا الجديد ينهل من معارفها وبات في حاجة إلى من يمهد أمامه سبيل العون.

حبذا لو تضـافرت الأوقاف الأهلية مع الرسميين في وزارة الأوقاف لتشكيل لجان تبحث حاجة البلاد للإنفاق المنتج وتصــدر توصــيتها إلى رجال المال الذين يميلون لحبس أموالهم وقفاً على الخير أن يجعلوا لشــروط الوقف مجالاً يتســع لخدمة شـؤون العصر وعلومه المستحدثة ليساعدوا على تطوير الجيل الجديد وإعداده إعداداً قوياً يضـمن رقي البلاد وتصنيعها وإمدادها بالعقول النيّرة التي تعرف كيف تبتكر وتخترع وتغني البلاد في كافة ميادينها العاملة الخلاقة.

أحبب ما استطعت

قال صاحبي: أعرف فلاناً من عشاق الفضيلة، ولكنه يحيا حياة كالحة كئيبة تتميّز بألوان من الفظاظة والكره تبدو في معاملته للناس وسلوكه معهم، فكيف لي أن أوفق بين تعشقه للفضيلة وسلوكه البغيض في معاملاته للناس.

قلت: إن الفضيلة كثيراً ما تكون عرضاً من أعراض التديُّن الصادق ولا يكون التديُّن صادقاً إلاّ إذا لمس شغاف القلب ففتح مغالقها لحب الناس طائعهم وخاطئهم، وذلك مصداق ما يقوله تعالى وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ (آل عمران: 159).

يستطيع المتدين الفاضل إذا أحب الوجود وما في الوجود من إنسان أو حتى حيوان أن يسع الكل بخلقه العالي، فلا يحقد ولا يكره ولا يفرض مقاييسه الفكرية على كل مآتي الحياة، ولا يقنع بتفسيراته على اعتبار أنها ولا شيء غيرها.

يستطيع المتدين الفاضل أن يجعل للفضل مكاناً بين خلجاته النفسية وأن يحس إحساساً مرهفاً بآلام الخاطئين وأنَّاتهم، فيتوجع لما يتوجعون ويحتال لهدايتهم وخلاصهم بما أمكنه من الوسائل الحبيبة التي تترك أثرها الصادق في توجيههم.

إن الذين يكرهون سلوك الآثمين في حرد أو حقد ويلذ لهم أن يبالغوا في مقتهم وتحقيرهم يعيشون أكثر ما يعيشون في ضيق وكآبة وبغض محض، وهم أعجز من أن يقودوا إلى رشاد أو يهدوا إلى سبيل مستقيم.

على عكس الفاضل السعيد بمزاياه الموهوبة الذي يعرف كيف يفتح صدره للجاهل والخاطئ.. يعرف كيف يفتح للحب آفاقاً تتسع لكل ما يصادفه من ألوان الناس.. ذلك هو المطمئن إلى فيض الله الواثق من رحمته.

ولست أعني بهذا أن نمد للآثمين في مجالاتهم ونطمعهم في آثامهم.. لا لست أعني هذا.. ولكنني أعني أن الفاضـــل لا يجب أن يحقد على مثل هذا النوع، أو يعاملهم في سلوك بغيض بقدر ما يجب أن يتمنى لهم الرشاد ويحتال لهم في سبيله، وأن يحس بآلامهم إحساساً رهيفاً وأن يؤمن بالحب.. والحب العميق الذي يسع مجتمعه بما في مجتمعه من إنسان أو حيوان.

حيٌّ في شيخوخته

قال صاحبي: يطربني هذا الاستجمام الذي ينعم به كبار شيوخنا بعد حياة قضوها مليئة بالكد والجهد.

قلت: أمّا إذا كنت تعني أمثالي فإننا لم نبذل من الكد والجهد في مستقبل حياتنا ما يصح أن يسمى كداً أو ينعت بالجهد. وما هذا الخلود إلى الاستجمام إلاّ امتداد لما عايشناه من ألوان الفتور.

إنك تعرف أجداداً لنا عاشوا حياتهم منتجين بشكل بالغ السعة، وأدركتهم الشيخوخة فلم يعترفوا بها، بل ظل إنتاجهم يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب وأنت ترى اليوم مثالهم حياً في أكثر البلاد الراقية التي تقدر قيمة العمل وتعرف أثره الفعّال في حيوية الشخص.

أذكر بهذه المناسبة أني قرأت فصلاً عن حياة "نولدكه" العالم الألماني المعروف هز مشاعري وأثار في نفسي من معاني الإعجاب ما لا مزيد عليه.

تعشَّق هذا العالم الكبير في شبابه دراسة اللغات السامية، فعكف عليها كما درس اللغة الفارسية والسريانية والعربية، وقضى حياته في استقصاء نوادر المخطوطات والآثار المحفورة باللغات التي أتقنها. وعندما أدركته الشيخوخة تقاعد في بيت ابنه في منطقة الألزاس عاش فيها نحو إحدى عشرة سنة قضاها في الدراسة والنشاط الذهني التام حتى فاضت روحه وهو جالس إلى مكتبه يواصل عمله في كتابة البحوث التي توافر على دراستها.

وضع (نولدكه) أهم مؤلفاته بعد بلوغه سن التقاعد، وبفضله أصبحت المدينة التي يعيش فيها من منطقة الألزاس مركزاً للدراسات الشرقية لا في منطقة الألزاس

ولا في ألمانيا وحدها بل وبالنسـبة لجميع المهتمين بالدراسـات الشـرقية في كثير من أنحاء العالم.

وشاعت شهرته بين علماء الدراسات الشرقية، فكان موئلاً لكل ما يستعصي عليهم من بحوث.. وكان بريده اليومي على وفرته لا يحمل إليه إلاّ الرسـائل العلمية التي تستطلع رأيه في البحوث المستعصية في كافة الدراسات الشرقية، واضطر في سـني حياته المتأخرة أن يدرس اللغة التركية ليتابع بحوثه في آثار الشـرق بمختلف نواحيه.

وتتلمذ على يديه في سـنيه الأخيرة عدد من الشـباب المهتمين بالدراسـات الشرقية، فكان يخوض بهم في مختلف ميادين اللغات السامية.. كان يطالبهم بالعمل المتصـل وبذل الجهد الشـاق فيتعلمون منه كيف يهتمون بدقائق الأمور، وكيف يمحصـون الجزئيات دون أن تزيغ أبصـارهم عن الكليات وكيف يعتمدون على الأسس الصحيحة في البحث العلمي ويتجنبون النظريات التي لا ضمان لصحتها.

وعنّ له في شيخوخته هذه أن يساعد تلامذته في اللغات السامية فوضع للغة السريانية قواعد نحوية، وألف كتاباً ضخماً أوضح فيه المقارنة بين اللغات السامية وآخر في فن الأساطير الشرقية والفارسية وغيره في شرح خمس من المعلقات العربية.

بمثل هذا النشاط الذهني يجب أن يطالب شيوخنا فضعف الجسم وتهالكه لا يعني تهالك الذهن أو ضعفه أو عجزه عن الإنتاج الخالد.

عَليْنا أن نبني شبابنا مِن جَديد

قال صاحبي: نزلت في ضيافة صديق لي في البادية. وعند عودتي أراد أن يكرمني فأمر أن يسرجوا لي فرساً أمتطيه، ولما استويت على ظهره شعرت أن ظهره يتماوج تحتي وأني لا أحسن الاستقرار فوقه، فكدت أن أهيب بهم ليقربوا لي بغلاً أو حماراً أستطيع أن أطمئن على ظهره! ولكني استحييت فصابرت فوق ظهر الفرس وأنا أتثبت بسرجه في شدة عانيت منها أشد ما يمكن أن يعانيه راكب.. ذلك أني لم أتعوّد ركوب الفرس. فلو استطاعت نوادينا أن تضيف إلى تمارينها الرياضية شيئاً من الفروسية لنشأنا عليها كما ينشأ المتحضرون حتى في البلاد التي لا تربي الخيول.

قلت: هو ذاك، فالمشاهد أن أكثر نوادينا الرياضية حصرت نشاطها في كرة القدم أو السلة أو أي لون لا يتخطّى مثل هذا المحيط. فلو حفلنا فيها أو في مثلها بألعاب الفروسية والسباحة والصيد وحمل الأثقال وشد الحبل وسباق الجري والدراجات لكان لنا شأن غير هذا الشأن المحدود بألعاب الكرة.

ولأنشأنا جيلاً نعتز بنشاطه وكفاءته في كثير من ميادين الرياضة.

إن قصتك والفرس الذي عانيت من ركوبه، وعجزت عن أي تستوي على ظهره في براعة الرجل المتمكّن من نفسه هي قصة آلاف الرجال من أمثالك الذين استهوتهم الحياة الوادعة فاطمأنوا إلى الراحة وغدوا في الترف فخثر الدم في مجاريه من شرايينهم وفقدوا نشاطهم حتى في الحياة العامة.

إن الفرس الذي بدا لك أنه غريب عنك كان في أحد الأيام نقطة انطلاق لبلادك استطاعت أن تصول به في أخطر المواقف وأقساها شدة واستطاعت أن تخوض به عباب الحياة في عزم واكد أثبتت به جدارتها وأهليتها للحياة فبنت لحضارتها مركزاً دان له نصف أقطار الأرض.

فهل يخلف بعد هذا خلف يستسلم للخمول، ويستنيم للضعف، وينسى مجده التليد؟.!

لا بد لنا أن نعيدها جذعة.. لا بد لنا أن نستأنف انطلاقتنا.. لا بد لنا أن نبدأ العمل من نوادينا فنبني لشبابنا الجديد مجال السباق وركوب الخيل والسباحة وكل ما يثير الحركة في عضلاتهم ويدفع الدم قوياً في عروقهم.. لا بد لنا أن نهيئهم للحياة الفاهمة فنشيد لهم غرف المطالعة بأوسع معانيها وقاعات المحاضرات والمناظرات، ونعقد لهم من ألوان المسابقات الفكرية والجسمية ما يتفاعل مع مداركهم فينمي مواهبها.. لا بد لنا أن نعدهم إعداداً جديًّاً يواجهون به الحياة ويثبتون كفاءتهم في شتى ميادينها.

مِن المفضّل أن تتلاءم وَظروفك

قال صاحبي: ألم يأتك نبأ ابن فلان؟ لقد أضلّه قرناء السوء حتى بات سبة لسمعة أبيه وأنت تعرف مَن أبوه جاهاً ووجاهة!!

قلت: أعرف أباه جاهاً وأعرفه وجاهة، ولكني أعرفه إلى هذا ممسكاً في المال مغلولة يده إلى عنقه رغم ما بسط الله له من أسباب الرزق، كما أعرف أن فتاه عاش محروماً من نعمة أبيه ربما احتاج لمصروف جيبه ما يحتاجه أفقر الفتيان فلا يجد من أبيه ما يسد حاجته ويعالج عوزه.

وليس كالحاجة شيء يفضي إلى هاوية الانحراف.. إن الحياة الفاضلة تعني في أكثر الأحيان أن تكون متلائماً ولو إلى حد مع ظروفك وضرورياتك فيها متناسقاً مع متطلباتك في الوسط الذي تعيشه.

لست أدّعي أن سعة الثراء ضرورة لازمة لحياتك، وأن عليك أن تحتال أو ترتكب لتبسط في عيشك كل البسط، ولكني أدعي أن العجز والحرمان كثيراً ما يكون مدعاة لسلوك لا تحمد فيه العواقب.

ليست مسألة فتانا إذن مسألة قرناء سوء فقط بقدر ما هي مسألة احتجاج على شعوره بالحرمان..

له اليوم أن يحسد أو يخادع أو يحتقر أو يهزأ بأكثر مقومات الأخلاق احتجاجاً على ما ناله من حرمان في الحياة.

إن أكثر العاتين والعابثين تدفعهم مجتمعاتهم إلى العتو والعبث بما فرضت عليهم من حرمان، ولو أباحت لهم من الفرص ما يسد عوزهم ويطفئ جذوة فاقتهم لضمنت لهم حياة تسمو بهم عن كثير من آثام الحياة وشرورها.

لماذا تبذل حكومتنا اليوم عشرات الملايين في سبيل الضمان الجماعي؟ بل لماذا تبذل أكثر الحكومات في هذا السبيل جزءاً له قيمته في بنود موازناتها؟ إنه ليس إحساناً للإحسان فقط بقدر ما هو علاج تشذب به أخلاق الفقير وتقوِّم به اعوجاج المحروم قبل أن تؤدي به الحاجة إلى مهاوي الانزلاق.

أعطني شعباً مكفيَّ الحاجة ميسور الرزق، أعطك ترفعاً واستقامة وسمواً على أكثر الرزايا المهينة!!

ونحن نشهد اليوم في بلادنا قبائل كانت عاتية تستهين بالعبث ولا تبالي بنظم الحكم في سبيل أن تعيش!! ولكنها عندما استطاعت أن تجد فرصتها للكسب الحلال اطمأنت إليه وانطفأت جذوة الشر في نفوسها وأصبحت تحترم حياتها وتعرف كيف تسمو بمعاملاتها.

علّم صاحبك كيف يحدب على ابنه، ويتفهم حاجته في أسلوب معقول –علّمه كيف ينتشل ابنه من مهاوي الحرمان وانتظر لتراه كيف يربأ بنفسه عن مواطن الزلل!!

كيف نبني بلادنا؟

قال صاحبي: قرأت في أخبار بعض الدول الأوروبية أن غرف التجارة والصناعة في بعض مدنها أخذت تنشيء لحسابها ورشاً صناعية لتدريب مَن يرغب التدريب من طلاب المدينة. وإن الفكرة ما لبثت أن انتشرت من مدينة إلى أخرى.. فما يمنعنا كأمة نامية أن نجرب هذا التقليد؟

قلت: إن من مشاكلنا التقليدية أننا نعتمد في أكثر مرافقنا الحيوية على ما تقدمه الحكومة. وهو تقليد لا تستسيغه الأمم التي أدركت حقوق بلادها عليها.. فبيوت التجارة عندهم، وأصحاب الثراء، وأرباب المصانع، والشركات الفنية، ترى فرضاً عليها أن تجعل في موازنتها بنداً خاصاً لخدمة البلاد وفائدة مواطنيهم فيها.

هناك مدارس تُشاد لحسابهم، وجامعات تُؤسس بأموالهم، وملاجئ، ومستشفيات وعشرات من أعمال السير على هذا الغرار ينفقون عليها من سعة كاعتراف بفضل بلادهم على ما حازوا من ثروات، وتقديراً لمواطنيهم الذين أباحوا لهم فرص النجاح بإقبالهم على ترويج أعمالهم، ومساعدتهم في سائر ظروف العمل والإنتاج.

ولقد قرأت موضوع الخبر الذي ترويه عن البلد الذي اهتمت غرفته التجارية بتأسيس ورشة تتعهد طلاب المهن بما يساعد على بناء مستقبلهم، كما قرأت أخبار المدن التي تابعت أخبار هذه الغرفة، وشرعت بالعمل على فهمها فأعجبتني هذه اليقظة وأعجبني هذا الوفاء، وتمنيت لو استطاعت الفرق التجارية في بلادنا، واستطاعت بيوت المال، ورجال الأعمال وأصحاب الثروات الكبيرة تقليد العاملين لبلادهم على هذا النحو.. إذن لضمنوا لبلادهم ازدهاراً مطرداً، وضمنوا لأعمالهم مكاسب مضاعفة.. لأن اعتمادهم على أيدي العاملين من مواطنيهم يوفر عليهم

مبالغ طائلة ينفقونها في سـبيل الاعتماد على خبرة الأجنبي. أضـف إلى هذا ما يكسبونه من إخلاص المواطن مما يعز توافره في كثير من الأجانب الوافدين.

والعجيب مما قرأته في أنباء هذا الخبر الذي ترويه أن مؤسـسات الورش التي تحدثت عنها رأت أخيراً أن تزوّد غرف التمرين فيها بأدمغة إلكترونية ليتدرب الطلاب على استفتائها في العمليات الدقيقة التي تواجه بعض أعمالهم، وتساعدهم على التخطيط السوي إذا استعصى عليهم التخطيط، أو زحمتهم ظروف عاجلة لا تتسع لإعمال الذهن التي تحتمل الخطأ كما تحتمل الصواب.

إنّها جهود تدل على مبلغ عنايتهم بتهيئة بلادهم للأعمال المنتجة وتهيئة ناشئتهم لسد الفراغ في سائر المجالات التي تتطلبها حياة الأمم في الأوساط الراقية.

نريد للثروات التي مدت أعناقها في محيط بلادنا وتطاولت.. نريدها لتعرف كيف تبذل في سبيل دعمها وبناء صرحها عالياً، شامخ الذرى.

عَلَيْنا أن نَدرس اتجاه النَاشئ

قال صــاحبي: وهو يشــير إلى فتى كان يقطع طريقه أمامنا في خطى المتســكع السبهلل، ألا تستغرب لقصة هذا الشاب المسكين؟ إن أباه من أعياننا، وإن إخوته من كبار العاملين في وظائفنا، كان المنتظر أن ينجح نجاح إخوته، ولكنه نشـأ فاشـلاً رغم ما بذل أبوه في سبيل تعليمه، نشـأ يكره المدرسة ويكره ما فيها، وإذا صـادفه حظ النجاح في اختبارات عام واحد خانه التوفيق في عدة أعوام مطردة، وقد ظل على هذا حتى أعلن عصـيانه على المدرســة فتركها إلى غير رجعة، وحاول أبوه كما حاول إخوته أن يهدوه سواء السبيل ولكن في غير جدوى.

..وها أنت تراه اليوم يمشي إلى غير غاية متسكعاً في غير هدف.

قلت: إنه مســكين لا لشــيء إلاّ لأن ولاة أمره لم يكن بينهم ذهن يتســع لفهم الحياة من سائر وجوهها!!

لقد تخيلوا أن النجاح رهين مواظبته على المدرسة، ونسـوا أن للاستعداد الفطري دخلاً –وأي دخل– في توجيه الشخص وإعداده للحياة.

أتدري أن كثيراً من رجال الأعمال الناجحين والمبتكرين والمخترعين نشأوا فاشلين في مدارسهم؟ وأنهم عندما تركوها ووجدوا أنفسهم مسوقين إلى الاتجاه الذي تناسب وما فطر عليه استعدادهم، فواتاهم النجاح من حيث لم يحتسبوا.

إن منهم من رضي العمل في النجارة، ومنهم من رضيه في الميكانيكا أو السباكة ففر إلى ما رضــي بعيداً عن المدرســة، فتفتق ذهنه لبدائع كان لا يتخيلها، فإذا النجاح يواتيه، وإذا الفرصـة تخدمه، وإذا هو بعد لأي يطول أو يقصـر يبني لنفسـه مركزاً يحسده عليه سائر أقرانه من أصحاب الشهادات.

ليس لنا أن نحدد نجاح الحياة بنجاح المدرسة. فوسائل النجاح أكثر من أن تعد، وليست المدرسة إلاّ وسيلة واحدة من آلاف الوسائل التي يصح اعتمادها كطريق إلى النجاح.

لقد عايشتنا غلطة تقليدية أساءت وتسيء إلى مقدراتنا في الحياة، ذلك أننا اعتمدنا الوظائف كمثل للنجاح الشخصي، ففقدنا بذلك آلاف المثل التي تميزت بها الأمم المتحضرة.

ما يمنعنا أن نهيئ لشبابنا مختلف الاتجاهات لينسوا أحلامهم في كراسي الوظائف ويتبينوا شتى الطرق التي سارت بها الأمم في مواطنها وعزت وربحت لقوميتها ثراء رفع مكانتها وسما بها إلى أوج الحضارة.

إن الأمم المتحضرة تُعنى اليوم أشد العناية بدراسة قابلية أبنائها واتجاههم الفطري أثناء الدراسة فإذا تبينت أي ميل في أي اتجاه من أي ناشئ صرفت إلى ما يميل لتحقق بذلك مختلف المكاسب في مختلف المجالات، وهي بذلك لا تقسر أحداً على غير ما يهوى!

لا.. لا يا صاحبي لا تأس على ما فات هذا الناشئ.. فربما برز في اتجاه آخر إذا ملتم به إليه.. وربما استطاع أن يحقق من معاني النجاح ما لا تتخيل.

نحنُ نوحي إلى الطفل جميع المفاهيم

قال صاحبي: كيف تعلل تمرد المراهقين على مجتمعهم؟

قلت: إنهم يقولون عن الطفل قاصراً.. بل ربما قالوا عن الفتى إلى سن معينة إنه قاصر، وقد يطول مدى هذا السن وقد يقصر حسب استعداده الذهني وحسب الملابسات التي يهيئها له الوسط الاجتماعي.

ترى لِمَ كان الطفل قاصراً؟؟

يجيبنا عن هذا واقعه في الحياة، فهو يصافحها أول ما يصافحها خالي الذهن من كل المفاهيم السائدة، فلا يلبث المجتمع أن يوحي إليه بالقيم السائدة ويطبع ذهنه تدريجياً بالأفكار التي يتعامل بها.. ولكن الطفل لا يلبث أن ينمو وتتفاعل أحاسيسه فيشعر أن له ذاتاً، وأن لذاته كياناً مستقلاً. فإذا عرفنا كيف نتعامل مع ذاته فلا ننكرها عليه، ولا نتركها في الوقت نفسه تغريه بما تشتهي.. واستطعنا أن نوفق بين القيم التي نراها وبين ما يعتمل في صدره من نوازع، وأن نهادنه إلى حد يتعلم فيه كيف يسلس لقيادنا ويقنع بتوجيهاتنا.

إننا إذا استطعنا أن نتعامل معه على هذا النسق ضمنا اتزانه، وأطفأنا جذوة إحساسه بنفسه إذا طغت، وأقنعناه بكفاءتنا في التخطيط لحياته.

أما إذا أبينا إلاّ أن نفرض ذواتنا بشكل تعسُّفي قاهر، وأن نملي عليه ما ألفنا من قيم دون أي اعتبار لمشاعره، فإننا بهذا نثير إحساسه بذاته ونهيئه للمشاكسة.. وربما تطورت المشاكسة إلى عناد أو تمرد.

وعند هذا سيبدأ اعتداده بنفسه فيرفض استشارتنا، ويعتمد على نفسه فيما يخطط لحياته من قيم، وهنا لا يجب أن نعجب إذا زاغ به الطريق، أو أخطأت به المسيرة الصحيحة.

لا يجب أن نستغرب هذا، ولا يجب أن ننتظر منه بعد أن بلغ به الاعتداد بنفسه هذه الغاية أن يقبل توجيهنا أو نقاشـــنا على الأقل. فقد أثرنا عناده وتركناه ينظر إلينا في حذر وحيطة نظرته إلى طاغٍ يهيمن على مقدراته ليغتالها.

لقد تراءى له في سن المراهقة الفكرية أنه يحسن الدراسة ويحسن مناقشة الأفكار فلنناقشـها معه بكثير من الحرية وبصـورة موضـوعية تضـع يده على مفترق الطرق، وتحدد له مكان الزيغ منها، ونحاول أن نربط بين ما اســتنتجناه وبين واقع الحياة ونقارن له بين ما فهم وبين ما يجب أن يفهم في أســلوب لبق يعلّمه كيف يحترم كفاءتنا في الفهم.

إن مذاهب الهدم من إلحادية إلى ماركسـية إلى وجودية إلى عشـرات غيرها تعتمد الشـعوذة في تحليل سـحري لتغري الشـاب المراهق، فما يمنعنا أن نعتمد اللباقة في إخلاص صــادق لنقضــي على أســاليبهم المغرية ونفتح العيون على دجلهم وما يزيفون.

لِمَ كَان الامتحان غولاً مهيباً؟

قال صاحبي: ما أكثر ما يشكو طلبتنا من الامتحانات. ولا تقتصر الشكوى عليهم وحدهم بل تتعدّاهم إلى أولياء أمورهم، بل لذوي قرابتهم، بل ولمدرسيهم وسائر المعنيين بنجاحهم من رسميين وغير رسميين. فما يمنعنا أن نعدل عنه إلى أسلوب جديد يخفف هذا الضغط القاسي؟

قلت: لسنا أول الممتحنين بمشاكل الامتحانات، ولقد سبقتنا مئات الأمم إلى هذا الطريق، وعانوا منه مثل ما نعاني، وعاشوا يتمنون أن يجدوا سبيلاً إلى غير منهجه ويبتكروا طريقة تغنيهم عن لأوائه، ولكن جهودهم فشلت رغم ما بذلوا وظلت الامتحانات رغم مساوئها الوسيلة الوحيدة لتمييز الجهود وفرز نتائج النجاح.

لقد انتهى بعض علماء التربية في بعض الأمم الراقية إلى نظريات رأوا أن في استطاعتها أن تحل محل الامتحانات، ومما قالوه في هذا إن مدرس الفن لا يعجز عن تمييز الطالب الناجح من غيره بحكم احتكاكه بتلامذته.. إنه يستطيع إذا كان كفئاً أن يتفهم مستوى إدراك الطالب ويتفهم مدى قضيته ومدى نموه العقلي.. ليستطيع أن يميز درجته في التحصيل فيعطيه الرقم الذي يستحقه دون حاجة إلى أن يعرّضه لفواجع الامتحان.

ويجري على هذا المنوال.. كل مدرس في حقله حتى تجتمع للطالب مجموعته الصحيحة التي تقرر نجاحه أو فشله.

لقد انتهوا إلى هذا وربما انتهوا معه إلى المدرس الكفء الذي يتفهم مستوى طلابه.

ولكن هل انتهوا إلى اللائق الذي يضعون عنده ثقة المدرسة وينيطون به مستقبل الأمور في أبنائها.

لقد تعذر عليهم هذا، وبدا لهم أن مثل هذه النظرية ستفتح الباب واسعاً أمام تجار السوق، وسترهق كواهل الطلبة بالكثير الذي لا يحتمل.. لا بد لهم إذن أن يخضعوا لنظرية الامتحان كضرورة لا مناص منها.. لا بد لهم أن يعانوا من مشاكله ما ليس لهم من معاناته بد.

وأنا عندما أقول معاناته أو مشاكله لا أعني أنها جزء لا يتجزأ من حقيقته، فنحن الذين أحلناه إلى هذه الصورة الفاجعة، وأعطيناه هذا السمت الرهيب.

يعيش الطالب عامه الدراسي يستمع إلى نصائح المهيمنين به –"بكره يجيك الامتحان.. يا ويلك إن قصرت" فلا يلبث أن تخالجه مشاعر الخوف وتربو هذه المشاعر فتتحول إلى عقدة نفسية تصور له الامتحان شيئاً مهولاً فيفقد الثقة بنفسه، ويرتاح، وتتبدد أحلامه في النجاح!!

ولا يختلف عن هذا طالب آخر لا يحسن تنظيم جهده الدراسي، فيلهو ويتباطأ ويستهين بالواجبات الدراسية في أكثر شهور العام إذا أذنت أيام الامتحان شمّر عن ساعده، ووصل لياليه بأيامه في جهد جاهد وسهر مرهق فلا يصافح غرفة الاختبار إلاّ وهو محلول القوى تبددت طاقته وتهاوت حيويته فباء بالعجز ومني بالفشل.

تعالوا نوحِ إلى طلبتنا بما يعزز ثقتهم في نفوسهم، فلا يتخيلون الامتحان غولاً مهيباً. وتعالوا نعدهم لتنظيم جهودهم في الدراسة فلا يجعلونها وقفاً على أسابيع الامتحان فيعرضهم الإرهاق ويعرضهم طول السهر لأسوأ درجات الفشل.

أليْست وحشيّة الشُيوعيّة استعماراً؟

قال صــاحبي: أرانا نكثر الكلام في تقريع شــديد مقذع كلّما ذكرنا المســتعمرين الغربيين، وننســى غيرهم في أوســع مناطق الشــرق؟ فهل ترى الاســتعمار لا يكون استعماراً إلاّ إذا باشره الغرب؟؟!

قلت: لعلّك تعني روسـيا في الشـرق مثلاً؟ قال ولِمَ لا أعنيها وقد تغلغلت أيديها المستعمرة في عشرات الدول المجاورة في صورة رهيبة قاسية.. إن الاستعمار في رأيي هو الاستعمار دناءة وكبرياء سواء صدر من الغرب أو فاض من الشرق!!

قلت ولكني أرى أن كلمة اســتعمار أقل من أن تعطي مدلولاً على ما تصــنعه روسيا من أعمال! إنها وهي تسيطر على من تغتاله من أمم الأرض لا تستعمر، بل تـذيـب ذوباً ولا تترك فريســتهـا حتى تكفر بحرّيتهـا فقط بـل بـدينهـا، وقوميتهـا، وتقاليدها، وحتى تجردها من ممتلكاتها وأموالها، وتلزمها أن تفنى في عبادة القاهرين عليها، وتسلّمهم جميع مقدراتها وتنزل عن جميع جهودها لتصبح وقفاً عليهم.

إنها بهذا لا يصـح أن نسـميها مسـتعمرة.. فكلمة اسـتعمار لا تؤدي بحال بعض أعمال طغيانها.

لك بعد هذا أن تســتغرب لم كان نصــيبها من دعاة القدح والتقريع المقذع الفاحش أقل من غيرها؟ بينما كان يجب أن ينالها ما ينالهم بل وأضعاف أضعافه.

إن أكثر دعاتها في الشرق ليسوا إلاّ صنائع يبشرون لمذهبها، ويخدمون أغراضها وليس لديهم من وسـائل الخدمة إلاّ أن يشـددوا النكير على سـيئات المسـتعمرين القدامى وهي سيئات تستحق اللعنة دون شك.

قل يا صـاحبي معي: ألا فليسقط الاستعمار مهما كان نوعه، وتسقط الوحشية الطاغية مهما كان مصدرها.

ولكن إذا تراءى لك أن تسألهم لِمَ تستثنون روسيا من هذا النكير؟ أجابوك بأن بلادنا لم ينلها إلى اليوم شيء من أذى روسيا.. وهي مغالطة كما تراها مكشوفة. فالوحش المفترس الذي نشاهده يوغل في الدماء لا يصح أن نسمه بالورع لأن نيوبه لأسباب أو أخرى لم تجرب حظها معنا إلى اليوم.

على أننا لو أردنا أن نكون صادقين مع أنفسنا فسوف لا يتعذر علينا أن نجد آثار وحشيتها اليوم واضحة في أكثر أحداث العالم المضطرب.

إننا لا نبرئ المستعمرين من سيئاتهم، ولكننا نعرف أن أكثر الأمم التي استقلت حديثاً في أطراف الأرض استطاعت روسيا أن تستميل بأموالها ووعودها البراقة كثيراً من العسكريين فيها.. استطاعت أن تغريهم بالثورة ضد الأوضاع القائمة وأن تخطط لهم باسم الحرية، والديمقراطية، والاشتراكية، وعشرات الألفاظ من هذا اللون الخداع، وأن تدفعهم ليحيلوا بلادهم إلى جحيم مستعر، وأن يستمدوا باسم هذه الألفاظ الخداعة ظاهراً وباسم روسيا باطناً اغتيال مواطنيهم وتقتيلهم وأسرهم وتعذيبهم.

وأنت لا تدري بعد كل هذا أين مكان الحرية والديمقراطية والاشتراكية؟ بل أين مكان كل ما يرادف هذه الألفاظ من معانٍ براقة؟ أين مكانها من جميع البلاد التي نجح فيها ثوارها بتدعيم من روسيا؟

بل أين مكانها من روسيا نفسها التي غلّت شعوبها وراء الستار الحديدي، وكممت أفواهها وحكمتها حكماً عسكرياً أدواته الحديد والنار والتشريد والتعذيب والفناء.

لقد فرضت روسيا على شعوبها وعلى كل الثائرين لحسابها في أطراف الأرض نظامها الوحشي بعد أن علمت الثائرين لاسمها أن يحكموا شعوبهم بأقصى ما تحكم

به الشعوب من ألوان القسر والضغط، وأن يكمموا باسم الحرية أفواههم، ويضعوا أيديهم باســـم الاشـــتراكية على ممتلكاتهم ومزارعهم، وأن يعيشـــوا مقهورين تحت كابوس الذل والحاجة.

وننسى بعد كل هذا أن نذكر الشيوعية في سياق ما نذكر من سيئات الاستعمار والمستعمرين.

أنتَ حرٌّ مقيّد

قال صاحبي: ألا ترى أن الحرية في الحياة شيء ضروري ولازم للحياة كضرورة الهواء والماء؟

قلت: إنه أمر لا يصح فيه الإطلاق بحال، فأنت مقيّد لتعاليم دينك.. لعادات بيئتك لتقاليد صداقاتك، وسائر علاقاتك بالناس.

ليس في استطاعتك أن ترتدي ثوباً أحمر اللون في وسط تعوّد لبس الأبيض ولا (غترة) خضراء بين قوم حددوا لونها وشكلها.

ليس في استطاعتك وأنت تزور أوسع البلاد حرية في شمال أوروبا مثلاً أن تختار لنفسك سمتاً تشتهيه فتجول به في شوارعهم العامة أو تمتطي ظهر حمار ترتاد به وسط المدينة إلاّ إذا أردت أن تثير انتقادهم وتتعرض لسخريتهم.. حتى رجل الإلحاد الذي كفر بكل المذاهب وجميع التعاليم ويمكنك أن تتخيله منطلقاً كما يشتهي هواه.. إنه مقيّد لإلحاده مربوط بشارع في بيئة الملحدين من أمثاله.

والبوهيمي على رغم ما أسرف في انطلاقته وأمعن فيما ظنه كسراً للقواعد أبت عليه البوهيمية إلاّ أن يقيد حريته المزعومة بما شرعت له البوهيمية من تقنين.

إن الحرية بمعناها الواسع لم تخلق إلى اليوم حتى في أكثر الأوساط فوضوية وأبعدها عن التقنين والتنظيم.

أنت مقيد لما تدين، محدود بما ورثت، مربوط لما تعارفت عليه بيئتك، خاضع لما اتفق عليه الذوق العام في قومك!!

لا أعني بهذا أن تلغي ملكاتك العاقلة، وطاقتك من الفهم.. وتنساق في سذاجة وراء كل ما تعارف عليه وسطك.. ولكنني أعني أن تكون دقيق الميزان فيما تراه

لنفسـك وإلاّ تشـتط باسـم الحرية فتوسـع في معانيها وتنسـى في سـبيلها علاقتك بالذوق العام.

على أنك سـوف تسـتغرب إذا عرفت أن جلّ العقول الراجحة كثيراً ما تتأثر ملكتها العاقلة بما ورثت من تقاليد، وإلاّ فما معنى أن يظل عابد النار على عبادته بها رغم كل مكاسبه من التحصيل العلمي، ورغم ما عرف من مكانته بين أصحاب العقول الراجحة من أبناء الحياة.

سيعيش الإنسان ما عاش على الأرض مقيداً لكثير مما تعارفت عليه الحياة وليس لحريته مجال إلاّ في حدود تعارفت عليها الحياة أيضـاً وإلاّ لعمت الفوضـى، واندلع لهيب بلواها.

لِمَ كانت الأَزمات؟

قال صاحبي: إن خبراء التغذية في العالم يشكون من قلة محاصيل الأرض بالنسبة للزيادة المطردة في عدد سكانها، وينسبون المجاعة التي باتت تعمّ جزءاً كبيراً من أقطار الأرض إلى ذلك، فهل يعجزهم أن يجدوا حلاً لهذه الأزمة ينقذ العالم مما ينتظره من مشاكلها المستعصية؟

قلت: إن مبلغ علمي أنهم دائبون على دراساتهم، وأنهم يبحثون كثيراً من أنواع النفايات على أمل أن ينتجوا منها ما يساعد على إشباع البطون في سائر الأقطار التي تجتاحها المجاعة، وهم لا يخفون آراءهم في أسباب هذه الأزمات وما ينتظره العالم من تفاقمها على مر السنوات كما لا يخفون نتائج جهودهم في سبيل علاجها، ولكن الذي يغيظ في الأمر أنهم وهم يندِّدون بأسباب تفاقم الأزمة لا يذكرون إلاّ بعض نواحيها التي تتلخص في قلة محاصيل الأرض بالنسبة لإطراد الزيادة في عدد سكانها سنة بعد أخرى، وينسون أن يكونوا صريحين مع كل دول العالم التي أصبحت تبدد ثروات الأرض في سبيل أطماعها.

إن كبريات الدول تنفق في سبيل ما تسميه أعمال الدفاع مئات المليارات ومئاتها وليس في الأمر من الدفاع بقدر ما فيه من حب التوسع والسيطرة!!

إن أكثر هذه الدول ترصد أكثر من 20 في المائة من موازناتها لأعمال ما تسميه دفاعاً وإذا أضفت إلى هذا ما ترصده لغزو الفضاء ومنشآت الذرة انتهيت إلى أرقام لا تعرف كيف تحصيها لهول نتائجها.

ترى ماذا يكون حال العالم لو توفرت كل هذه المبالغ الهائلة لخدمة الأرض وتحسين أحوال الزراعة والإنتاج فيها؟؟

إن دعاواهم العريضـــة بأنهم شـــديدو العناية بالدول النامية لا يؤيدها شـــيء ما يؤيدها بذل هذه المبالغ الطائلة إلى الدول النامية كقروض تنفق على إحياء الأراضي البور، وتحسين المزارع وتعليم الفلاح عوضاً عن هذا التبديد في سبيل توسيع النفوذ والسيطرة.

إن التنمية الاقتصـــادية التي ينشـــدها خبراء التغذية في العالم لن تنجح في رأيي بشـــيء كما تنجح بالإنفاق الواســـع على العمل برفع كفاية الفلاح الفنية في ســـائر الدول النامية، وتطوير أساليبه في الزراعة، وتوفير الوسائل الميكانيكية وتهيئة البرامج الواسعة التي تضاعف الإنتاج.

إن مثل هذا البذل في مثل هذه المجالات يســـتطيع أن يبعد شـــبح المجاعة الذي يخافونه ويضمن سعادة البشر أكثر مما يضمنه البذل في سبيل التسلح وغزو الفضاء لو كانوا يفقهون!!

في سَبيل العلم بذل أسلافنا

قال صـــاحبي: يعجبني دأب ابن بطوطة على الســـفر الشـــاق في ســـبيل العلم ونشاطه الفذ في رحلاته إلى أبعد ما تصل إليه المناطق البعيدة.

قلت: أما أنه فذ في نشاطه فذاك.. ولكن رحلاته هل كانت خالصة لطلب العلم وحده؟ فقد كان الرجل من هواة الاسـتطلاع وحب التكسـب. أمّا إذا شـئت أن تعجب لأصحاب الدأب على السفر الشاق في سبيل العلم فأعجب لأئمة الحديث وأساطين اللغة في القرن الثاني والثالث الهجريين!

كان أئمة الحديث يحتلون الدرجة الأولى في صـــبرهم على مشـــاق المســـافات البعيدة، وكانت أكثر هذه المسافات غير مهيأة للرحلات كما أنها ليست مأمونة من شتى المخاوف، ثم يأتي بعدهم في الدرجة الثانية أساطين اللغة الذين كانوا يمعنون في قفار البادية إلى مســافات شــاســعة ســعياً وراء تصــحيح كلمة يقولها بدوي يرعى السائمة.

يقول يسـر بن عبد الله الحضـرمي المحدث: "إنّي كنت لأركب إلى المصـر البعيد في الحديث الواحد لأسمعه."

وجابر بن عبد الله المحدث بلغه حديث عن رجل من أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فابتاع بعيراً فشد عليه رحله ثم سار شهراً حتى قدم الشام في سبيل ذلك الحديث.

وكان البخاري من أنشـــط الرحّالين في ســـبيل العلم فقد آلى أن يتتبع محدثي الأمصار من الحجاز إلى الشام إلى العراق إلى فارس.. وتكبد في سبيل ما آلى صعود الجبال واجتياز الصعاب!

وترك يحيى بن يحيى الليثي بلاده في الأندلس ليجوب أهم مدن الشـرق فيسـمع من مالك في المدينة، ومن سـفيان بن عيينة في مكة، ومن الليث في مصـر، ومن مسلم بن الحجاج في نيسابور!

ولو أردنا أن نتابع قصـص أمثال هؤلاء المجدِّين لاسـتغرقتنا الصـفحات الطوال دون أن نصل إلى حصر.

ومن علماء اللغة من تعجب لتوافرهم على العمل المضـني في سـبيل هواهم باللغة.. فالأصـمعي، والكسـائي، والخليل بن أحمد، وعشـرات أمثالهم كان همهم ملاحقة الأعراب في أقصـى البوادي المقفرة يتابعون الرجل من نجع إلى نجع.. من وادٍ أغبر إلى مفازة موحشة ليتثبتوا من كلمة.

أولئك قوم جدوا للعلم لا يسـتهويهم التنزه، ولا يغريهم التكسـب بقدر ما يستهويهم أو يغريهم أن يجدّوا للعلم والعلم وحده!!

في التجمهر مُشاركة عمْياء!

قال صاحبي: ألاحظ أن بعض القصص الخرافية تعيش وتنمو وتترعرع في أوساط كثيرة ربما احتفت بها كما تحتفي بالحقائق الصحيحة، وأغرب من هذا أنك تصادف في هذه البيئات من تزكى فيه عقله وذكاءه مع هذا فلا تلبث أن تراه مسوقاً مساق غيره من بسطاء الناس وجهلتهم تغمره الأسطورة فينسى ملكاته الناقدة ويعطل طاقتها!

قلت: وليس في هذا جديد على الحياة. فالناس ما تجمهروا إلاّ تفاعلوا وهذا الذي تزكي فيه عقله وذكاءه لو صادفته الأسطورة منفرداً لواجهها في ذكاء واستطاع أن ينقد دقائقها. أما وقد غمرته البيئة بغبائها وساقته مساق الجماهير. فليس من السهل أن ينفرد إلاّ إذا تمتع بعقل جبار فذ يستهين الخروج ولا يبالي أن ينعت بالشذوذ.

إن التجمعات تلغي طاقة أصحاب الطاقات العقلية، وتسوقهم إلى المحاكاة تلقائياً، وتقتل ملكة التروي أو تخنقها. فالعاقل الذي يجبن عن الاعتداء على الناس ويقدر مسؤولية ذلك، ولا يجرؤ على قتل أحد أو تدمير بيته.. هذا العاقل كثيراً ما تسوقه المشاركة الجماهيرية فيتقدم إلى القتال في ميادينه العامة يقتل، ويذبح، ويمثل تحت تأثير الغوغائية المسيطرة..

يشارك في تدمير المدن، وإشعال الحرائق، ونهب الأموال، وإشاعة الفوضى وهو غائب عن رويته، منفصل عن اتزانه العقلي، مأخوذ بحركة التوتر الجماهيري الشائع حوله!

إن التجمع كثيراً ما يحيل الجماهير إلى ظروف نفسية خاصة تهيئهم للمشاركة العمياء، والتقليد الغبي، والانفعال السلوكي. فنحن نرى البيئة التي يحترم أفرادها

غطاء الرأس مثلاً ويعتمدونه مظهراً من مظاهر الآداب العامة لا يلبث هؤلاء الأفراد أن ينسوا ما ألفوا إذا تجرأ بعض أصحاب الجرأة على كشف الرأس وتابعهم آخرون وآخرون حينئذٍ تمحى الآية، وتبدأ الرؤوس المكشـوفة تأخذ مركزها في الأدب العام ويتتابع الناس خلفها بتأثير التفاعل الجماهيري.

أريد بعد هذا أن أقول إنه في مثل هذه الظروف الجماهيرية تجد القصص الخرافية والأساطير الوهمية تربتها صالحة للنمو.. ينفعل الجمهور بسلوك البسطاء من أفراده فلا يدقق حقيقة ما يسـمع لأن حواسـه مهيأة لقبول الإيحاء وبذلك تأخذ الخرافة مكانها في البيئة، ثم لا تلبث أن تترعرع كلما امتد مداها من الشيوع، وتستطيع أن تمكِّن لنفسـها بقدر ما يتسـع جمهورها، وأن تثبت بقدر ما يتقادم عليها من أجيال حتى تصبح حقيقة لها مركزها بين الحقائق الناصعة. وتظل على أمرها حتى ينهض لها جبار مفرد من شواذ الحياة فيعلن عصيانها، ويقاسي الكثير في حربها حتى يظفر بمن يتابعه وإذ ذاك يأخذ رأيه دور المشـاركة الجماعية وعندئذ يبدأ انحلالها تلقائياً بنفس الأسلوب الجماهيري الذي هيأ لنموها من قبل!!

إذا تأصّل الخلق الكريم!

قال صـــاحبي: عجبت لفلان عاش ســـنوات طويلة في بلاد تحللت من ديانتها وأخلاقها، وكان يختلط فيها ببيئة فاسقة تستحل لشهواتها أردأ ما تستحله النفوس الفاجرة المستهترة ومع هذا استطاع أن يستعصم بدينه ويتمسك بما نشأ عليه من استقامة.

قلت: أما أنا فلا أعجب ما دمت تقول إنه استمسك بما نشأ عليه من استقامة. فللنشأه قيمتها في سلوكه الشخصي.

إن الخلق الكريم إذا تأصل بات هوى في النفس ولا يقود الشخص في الحياة كما يقوده هواه، فإذا استقامت أهواء النفس نزعت إلى ما استقامت إليه، وإذا ضلّت أهواؤها أسلست قيادها لما يصادفها من ضلال.

قد يكون للعقل أثره في ضـــبط الأهواء وتوجيهها أحياناً ولكن حكمه ليس هو الحكم المطلق على جميع المستويات وفي سائر الملابسات بل ربما جامل أو نافق.. ربما شـرع تحت ضـغط النزعات النفسـية يؤول لك بعض المبادئ ويلونها أو يزينها ليرضي هواك ويبرر ما تنزع إليه نفسك.

يقولون إن النفس وما تهوى، ولا يفسـر الهوى هنا شـيء كما تفسـره اللذة ونحن نشـاهد أن رجل السـلوك مسـتقيم الأخلاق تلذ له أعمال الخير أيما لذة، فهو في متعة دائمة ما دام مستقيماً على جادتها دائباً على العمل من أجلها.

واللذة نفسها أو الهوى ذاته على وجه أوضح هو الذي يسلك بالآثم طريق الغي ويشعره بالمتعة الضالة.

إن الفضـــيلة هوى إذا تشـــبعت به النفس باتت ميولها لا تنزع لغيره ولا تتلذذ لشيء مهما كانت سيئاتها.

دعونا نطبع ناشـئتنا على الخير ليلمس نفوسـهم فتهواه وتجد لذتها في غشـيانه، فذلك أقصـى ما يحبب إليهم الاسـتقامة ويهيئهم للعصـمة في أشـد المَواطن خطراً وأفحشها سلوكاً.

لا يجب أن نؤمن بالعقل كثيراً ونحن نشـهد تأويلاته ومداجاته وزيغه مع كثير من أصحاب العقول الراجحة.

حسـبنا أن نطبع النفس على الخير، ونهيئ نزعاتها وأهواءها لتهفو إلى سـلوك الصالح الأفضل.

هَل يتعيّن على المعْدم أن يحج؟

قال صاحبي: وصاحبي في هذه المرة من وفود بيت الله الحرام ألف الترحال والتنقل بين مدن المصائف وبلاد المعارض كما فهمت واختلط بمناسبات الزحام مرات ومرات.

قال صاحبي هذا: ألاحظ أنكم تتساهلون في قبول الوافدين إلى بلادكم دون أن تفيدوهم بما يكفي مؤونتهم من إقامة وسكن وما يكفي نفقاتهم للعيش وسائر لوازمهم الضرورية بين حلهم وترحالهم ولهذا يبدو فقرهم واضحاً في كل حركاتهم بين المشاعر. لقد شهدت منهم ألوفاً يسكنون الشوارع ويعانون من صنوف الحرمان ما تبدو آثاره واضحة للعيان فلو نظمتم أمر غشيان بلادكم ففرضتم على كل قادم أن يثبت موجوده النقدي بمقدار معين يكفي حاجته من النفقات، ويحفظ قيمته كإنسان لأحسنتم إلى إنسانية كل المعدمين الذين يتعسّفون لشيء لم يفرض عليهم. فالحج استطاعة ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها.

قلت: إن بلادنا تألم لما ألمت له، بل وتعاني في سبيله الكثير. فشوارعنا لا تستقيم فيها نظافة، وميادييننا لا يحكمها نظام ما دام المعدمون من الحجاج وهم ألوف مؤلفة يحتلون زواياها وأركانها فيملؤونها بأوساخهم ولا يعفونها من فوضاهم، ونحن نحاول معهم ليفهموا أن الدين يربأ بهم أن يرهقوا أنفسهم ويرهقونا معهم ويرهقوا الحجاج بما يسببونه لهم من مصاعب ولكن كل محاولاتنا إلى عبث.

إن ما تنفقه موازنة بلادنا في سبيل الشؤون الصحية وتنظيم الشوارع وتوسعتها ونظافتها توازي ضعف ما يربحه المتكسبون من أبنائها في سائر مجالات الكسب من الحجاج، ومع هذا فنحن نحتسب كل ما نفعله أو ننفقه في سبيل ضيوف بيت الله،

ونتمنى لو قدر هؤلاء المعدمون موقفهم منا وخففوا شيئاً من وطأتهم علينا لتصبح خدماتنا ذات أثر فعّال له جدواه ولكن هيهات.

وأنت تسأل علماءهم في كل أقطار الدنيا: هل يتعين على هؤلاء المعدمين أن يحجّوا فيعانون من شظف العيش وعسر الفاقة ما يعانون، فلا تجد بينهم مَن يقرهم على هذا العنت أو يرضاه لهم، ومع هذا تأبى جموعهم إلاّ أن تمضي في سوء ما فهمت.

نحن من جانبنا لا نريد أن نصدهم رغم ما نقاسي نحن، وتقاسي بلادنا، ويقاسي حجاجنا من لأوائهم ونرى من الخير أن نترك لحكوماتهم أمر النظر في شؤونهم فمن الخير ألاّ تتركهم يغادرون بلادهم ليتكففوا العيش ويتمرغوا في الحرمان فيسيئون إلى سمعة حكوماتهم أبلغ السوء. هذا ما نراه ونسأل الله أن يوفقهم لما يصون رعاياهم.

مجَال الأَديب!..

قال صاحبي: يعجبني أن تفرعت العلوم إلى أبواب، والفنون إلى ألوان لكل باب اختصاصه ولكل لون رجاله قل أن يتخطى العالم الفنان حدود ما تخصص.. على عكس الأديب الذي يأبى إلاّ أن يدس أنفه في كل مفاهيم الحياة ويقحم نفسه في أكثر معارفها.

قلت: ومع هذا فقد تضاءل الأديب، وتقلصت مجالاته.. وإنك لتدهش شديد الدهش عند أبسط مقارنة بين مجالنا اليوم وبين ما اختطه جهابذة الأدب في عصور الإسلام الذهبية.. كان مجال الأدب في عصرهم يتسع لأيام العرب وأنسابها وتاريخها وأشعارها وما جاء على لسانها من أمثال وحكم، كما يتسع للفلسفة والمنطق والهندسة وطوالع النجوم وحقائق الكون وجغرافيته وطبائع الأشياء والحيوانات، كما يتسع للغة نحوها وصرفها ومذاهبها في الكتابة، كما يتسع لآداب المجالس وما يتخللها من أفانين السحر وضروب الألعاب كالشطرنج وألعاب الفروسية وتربية الطيور.

اتسع الأدب لكل هذه الفنون وتوافر على دراستها والعناية بها في أشكال عجيبة لا تدري كيف تهيأت لهم.

بل ووجد بعضهم لديه من متسع الوقت ما يفلسف شروط الكتابة والخط ويضع لهندسة حروفه شروطاً غريبة المثال، ثم يأتي على القلم فيفصِّل كيفية بريه وقطمة سنه، بل طريقة تناوله بين الأنامل عند الكتابة ويذكرني هذا بما جاء في زهر الآداب عن الحسن بن سهل وقد سئل عن الآداب فقال إنها عشرة: ضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج والهندسة والطب والفروسية وأيام الناس والنسب والشعر،

إلى أن قال وقد أربى على كل هذا مقطعات الحديث والســـمر وما يتلقاه الناس في المجالس.

هذا ما كان يعنيه الأدب في عصر النهضة الإسلامية، فهل اتسعت آفاق أدبائنا اليوم لكل هذه الألوان؟؟

مطل الحقوق قضى على الثقة

(1)

قال صـــاحبي: ما ظنك بأقوام أَلِفوا مماطلة الحقوق، واســـتمرأوا الاســـتهتار بأصحابها؟ فأنت لا تكاد تحسن إلى الملهوف منهم وتحسب أنك أسعفته أو أنقذته من ورطته حتى يقلب لك ظهر المِجَنِّ ويسومك سوم الشطّار أو قطّاع الطرق.

قلت: وهذا ما أفقد الثقة بين الناس.. وقضـــى على كثير من ألوان التعاطف، وأساء أكثر ما أساء إلى العلاقات العامة، وحكم بالفشل على غير قليل من أعمال النشـاط.. فربما توجه إليك من يشعر في نفسه شيئاً من النشاط لتعينه ببعض المال يقيم به أود عمله، أو يتوســع في مجال تجارته، أو يســد به ثغرة بات خطرها محدقاً به.. فيأخذ العطف عليك جوانبك وتبادر إلى عونه، فإذا أنت أمام جحود لا يعترف لك بجميل، ولا يشعر بما بذلت في سبيله من فدائية ربما كانت في حينها قد كلفتك عنتاً في بعض أمرك.

وأدهش ما في الأمر أن صـاحبك المستهتر واجهك يوم واجهك في طلب العون وهو أرقّ ما يكون أدباً، وأرقى ما تعرف تهذيباً وتواضعاً إن لم تقل ضعفاً وانكساراً حتى إذا قضـــى لبانته منك، واســتطاع أن يتوســع بما بذلت وحل الأجل على أثر هذا، أو قل ما بعد الأجل نســـي جماع الأخلاق التي ســـحرك بها، وانفتل يوليك عرض أكتافه في استهتار، أو يواجهك في عين جريئة.. وربما بلغت به الوقاحة حدًّا لا تدري كيف توفق بينها وبين ما بدا لك من تواضعه ورقته يوم جاء مستنجداً.

إن أصــحاب النجدة في مثل هذا الســياق كثيراً ما يفقدون بســبب أعمالهم في النجدة ألواناً من الصـداقات والمجاملات والحب، كثيراً ما يتخيلون أنهم باستجابتهم للغوث والعون يؤدّون واجباً للإنســـانية والود المتبادل ولكنهم لا يلبثون أن يجدوا

وبال ما خسـروا من علاقاتهم الإنسـانية وصـداقاتهم الودية عند أول بادرة يفكرون فيها مقاضاة ما يستحقونه من ديون عند المستهترين.

إننا بهذا نفقد الثقة في أهم معاملاتنا ونقضـــي على كثير من ألوان التعاطف، ونحكم بالفشل على غير قليل من النشاط بين صفوف المماطلين.

مطل الحقوق قضى على الثقة

(2)

قال صاحبي: تحدثت إليَّ قبل اليوم عن المماطل يستهتر بديون الناس وينسى فدائيتهم في نجدته يوم أحاطت به الحاجة فانفتل، ليواجههم بغير الوجه الذي لقيهم به يوم طلب عونهم، وكنت أتمنى لو استطعت أن تستثني المضطر الذي حالت ظروفه دون الوفاء فبات معذوراً.

قلت: إن المعسر المضطر عذره الشرع قبل أن أعذره أنا أو أنت، ولكن المعذور حري أن يشعرك باضطراره صادقاً في غير ختل أو خديعة.

حري بأن يحترم ما بينكما من أجل فيسبق إليك قبل حلول موعده لينفض أمامك أمره ويقنعك بعجزه لتدلل بذلك على مبلغ تقديره لما تستحق عنده ومقدار عنايته بما ضرب من أجل!!

مثال هذا إذا تبيّن لك صدقه لا يصح لي أو لك أن تسميه مماطلاً أو مستهتراً بحقوقك وقد رأيت أن لومي كان مصبوباً على شخص المماطل الذي يشعر أن علاقتك الودودة به انتهت بنهاية شطارته في استدرار مالك.

أتدري يا صاحبي أن الاستهتار من هذا النوع بات سليقة استمرأها المماطلون حتى أصبحوا يصدرون عنها كما يصدرون عن طبع متأصل لا سبيل إلى عصيانه؛ أولئك قوم أتمنى أن تشاد من أجلهم مستوصفات نفسية تُعنى بعلاج ما تأصل في دمائهم ليساهموا بإخلاص في بناء كيان بلادهم؛ فالأمم لا يعرقل سيرها شيء كما يعرقله فقدان الثقة بين أفرادها.

وأفراد الأمم لا تقوى على العمل المثمر لبلادها ما لم يتعاون موسروها وفقراؤها في إطار من صدق التعامل والثقة المتبادلة.

ليس لنا أن نبيعَ أطفالنا

قال صاحبي: ما يمنعني أن أثني على أريحية صديقي وعنايته بالبذل في سبيل طفله الذي أرســـله أخيراً إلى بلد أجنبي ليبدأ دراســـته في جو خاص يتفرغ فيه لأعمال الدراسة بعيداً عنه.

قلت: أمّا أنا فأرى الخطأ كل الخطأ في هذا الذي نســـميه عناية بالبذل.. إنه سيبيع طفله الحدث إلى البلد الأجنبي الذي اختاره.. سيتركه يتشبع بالروح الأجنبية التي ستـرعى طفولته وتشـرف على تنشئته وسـيعود إليه، إذا عاد، فتى أو شـاباً لا يشـعر بشـعور أهله ولا يحس بإحساسـهم وربما اسـتهجن كل تقاليد أهله وأعرافهم وسخر بكل ما يمت إلى حياتهم بأي صلة.

وعندئذٍ سيدرك مبلغ الجناية التي جناها على بلاده عندما جعلها تفقد عضواً ربما كان له أثر نافع في تقدمها وسيدرك مدى الإساءة التي أساء بها إلى فتاه عندما هيأه ليعود إلى بلاده غريباً عنها يحيا في غير حياتها.

ترى أي عامل يدفعه لأن يجني مثل هذه الجناية ما دام طفله حدثاً، وما دامت بلاده تستطيع أن تتولى تربيته وتعليمه إلى درجة عالية المستوى.

ربما كان له عذره لو استوفى ابنه كل معلومات بلاده وتعذر عليه أن يتخصص في فن خاص لا مكان له في بلاده أن يندبه إلى البلد الذي يُعنى بذلك الفن.

ســـيرى غداً أصـــدقاءه الأطفال محفوفين برعاية آبائهم مغمورين بعطف أمهاتهم وينظر فلا يرى حولـه من يعطف عليـه عطف الأم أو حـدب الأب فيترك هـذا في نفسه أسوأ الأثر وسينشأ وفي أعماقه أكثر من عقدة تضطرب لها حياته وتحول دون الكثير مما نرجو لنجاحه.

لِمَ لا نقتبس من هذا؟

قال صاحبي: ترى لو استطعنا حفظ اللحوم في منى فأي ثروة هائلة نستطيع أن نوفرها لفقرائنا؟!

قلت: أذكر أني قرأت منذ مدة غير طويلة في إحدى صحفنا المحلية أن (بيري هودين) وهو عالم نرويجي هاوٍ في أبحاثه استطاع أن يهتدي بعد دراسات استمرت طول حياته إلى طريقة جديدة لحفظ اللحوم والأسماك ومختلف أنواع الأغذية.

وطريقته في ذلك –كما يقول الخبر– مأمونة وزهيدة ولا تحتاج إلى استعمال أي آلات تبريد، وهي تؤدي مفعولها صحيحاً حتى في المناطق الاستوائية، ويستطيع محلوله الكيماوي –وقد أطلق عليه محلول هودين– أن يحتفظ بهيكل الأطعمة احتفاظاً تاماً بكامل فوائدها الغذائية من البروتين والدهن إلى عدة أشهر.

وقد تعرضت طريقته لتجارب طويلة عندما أنكرها عليه كبار الرسميين في بلاده ولكنه استطاع أن يثبت نجاحها وأن ينتزع اعتراف السلطات الصحية في النرويج بصحة نتائجها.

كما اعترف بها منذ عدة سنوات كثير من المزارعين في الريف النرويجي وأكدوا صحة مفعولها الذي أغناهم عن تكاليف آلات التبريد ونفقاتها الباهظة.

ولم يقف الأمر عند هذا –كما يقول الخبر– بل تعداه إلى منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة التي اهتمت بالطريقة بالغ الاهتمام واعترفت بالمحلول كعامل فعّال يضمن سلامة اللحوم والأسماك إلى مدد طويلة.

لا أعتقد أن صحيفتنا المحلية تعتمد نشر مثل هذا الخبر الهام إلاّ وهي متأكدة من صحة المصدر الذي تنقل عنه، وإذا صح أنها تعجلت النقل قبل أن تتثبت فما يمنعنا ونحن من أحوج الناس إلى الإفادة من مثل هذا الابتكار أن نتصل بالرسميين في

النرويج والمسؤولين عن نظم الأغذية في الأمم المتحدة لنتحقق صحة الخبر ونتعرف على مدى ما يمكن أن نستفيده منه.

إن مئات الألوف من الذبائح في منى سـنتكلف عشـرات الملايين أو مئاتها في سـبيل حفظها في آلات التبريد التي ننوي إنشـاءها، وهي مع هذا لا تضـمن لنا سـلامة ما نحفظ إلى عدة شـهور! فإذا ثبت أن (محلول هودين) يكفينا مؤونة هذه الإنشـاءات ويوفر لخزينتنا ما تطلبه من إنفاق باهظ فمن السـهل اليسـير على الجهات المعينة رسمياً أن تبادر باتصـالاتها سـعياً وراء الاسـتفادة من هذا المحلول السحري.

وليس من شك في أن حكومتنا التي تنفق الكثير في سبيل إسعاد البلاد سوف لا تضـن على المعنيين بأمر الذبائح بما تتطلبه إنجازات الفكرة من مسـاعدات مادية وأدبية.

وربما تراءى لها أن نسـتدعي مخترع المحلول إلى بلادنا ليدرس الوضـع عن كثب، ويشرف على تنفيذه إشرافاً عملياً إذا صح ما ذكرته الصحف من أنبائه.

يُسيئك أن تلحس نفسك

قال صاحبي: ما شكوى هذا الصديق؟! فيم هذا التأفف؟! فيمَ هذه الآهات والحسرات التي عاش يطلقها؟

قلت: إنه يبالغ في تقدير نفسه أكثر مما يجب وهو لهذا ما فتئ ينعى كفاءته التي يتخيلها ضائعة.

أكبر ظني أنه إنسان فدم ينقصه الذكاء.. والذكاء المتوقِّد الوهَّاج الذي ينشئه من جديد فينسيه كفاءته الميتة.. ينسيه أن يلحس نفسه.. ينسيه أن يستجر الهموم والآهات.. ينسيه كل الحسرات التي عاشها بين العويل والندب. ومتابعة فلان الذي نجح في ما لا يستحق، وعلان الذي خدمته مفارقات الحظ.. لينسى كل ما يبدد طاقته من هذه الألوان الخابية ليستغلها فيما يهمه من خصوصياته.

ليس التشاؤم في رأيي إلاّ مرضاً ينتاب المهمومين بأنفسهم المتعسفين يلونون الحياة أمامهم باللون القاتم ويترك هذا أثره في تفكيرهم فيشل حركته، وفي إرادتهم فيسلبهم قدرتها.

والمتفائلون ما ظنك بهم؟

إنهم لا يدققون حساب الحياة مهما تنوعت صروفها.

وصديقك هذا هل يعجزه أن يفعل فعلهم؟؟

ترى ماذا يؤلمه؟! هل افتقر؟! هل فشل؟! هل خسر؟! هل فاتته فرص؟! هل سبقه الأدنى؟؟

كل هذا لا شيء بجانب قوة النفس.

أيندم؟ أيبكي؟.. ليفعل هذا أو أكثر من هذا إذا كان يعتقد أن في كل ما يفعله من هذا القبيل يعالج فقره أو فشله أو خسارته أو يعوض عليه ما فاته.

أكبر ظني أنه يعلم أنه ليس في هذا ما يجدي. ولقد ناقشـــته مرة فأمن على ما أقول وأكد أنه يعرف أنه ليس في كل ما يقاسي ما يجديه في الحياة.

ولقد قلت له فيما قلت إنك إنســان بدأت تصــحو.. بدأت تفهم إنك مع كل هذا أسعد حالاً من ألوف أشقاهم الزمان بأكثر مما شقيت.

وما دمت قد استطعت أن تشعر ولو بهذا القدر الضئيل من السعادة فليس ما يمنعك أن تضحك.

اضـحك يا صـديقي.. وإذا اسـتطعت أن تنتزع الضـحكة من أعماق صـدرك.. وأن تنتزعها قوية مجلجلة فقد شفيت ولا ينقصك بعد هذا إلاّ العزم.. والعزم الواكد لتستأنف ما فاتك.. لا تتعسـف كثيراً في تفسـير ما فات من جهادك.. لا تقلل من شأنه.. حسبك أن ترضى عن نفسك كما هي ولا أكثر.

إذا ظفرت فاضـــحك فرحاً بما بلغت.. وإذا فشـــلت فلا يعجزك أن تضـــحك لغرائب المفارقات.

حرامٌ أَلاَّ نَرعى ميزة البَدوي

قال صـــاحبي: ألا تلاحظ أن بعض البادين يهبطون بعض المدن الكبيرة بحثاً عن الرزق فلا يستسهلون شيئاً ما يستسهلون العمل في وظائف الحكومة؟

قلت: إنها نعرة توارثوها في دمائهم، وقد بات اليوم أكثرهم يشـعر بخطئها. فلقد عاش العربي القديم في باديته يعتز بعمله في خدمة إبله وماشيته وصناعة ما ينتج من أصــوافها وأوبارها وألبانها، وهو بعد هذا يســتخف بكل عمل يزاوله المدني إلاّ أن تكون زراعة في أرض أو تحطيباً في رابية.

كان يرى أن ســائر الأعمال من حدادة إلى نجارة إلى مئات من هذا الســياق لا تليق بشــرف عروبته، وهي فكرة حددت ســلوكه وتركته أحقاباً طويلة يعيش حياة متخلفة راكدة.. وأنت تقرأ اليوم في قصـصـهم القديمة ألواناً من العنت الذي كانوا يقاسـونه عندما تمسـك السـماء وتجدب الأرض وتهلك الماشـية فلا يجدون ما يقيم أودهم ولا يحذقون من أعمال الحياة ما يدر عليهم كسباً يعيشون به.

كانت فكرة خاطئة أشــاعها جهل البادية وتركها تتأصـــل في حياتهم وتتوارثها أجيالهم كعقيدة لا تقبل الهوادة ولا يجدي لعلاجها أي محاولة للإقناع.

ولكنا اليوم ونحن على أبواب إشـــراقة جديدة بات أملنا جد واســـع في هذه المدارس الجديدة التي عمّت أكثر البوادي وتغلغلت أو تكاد في أبعد المضـــارب والمنازل.

إن المبادئ المتوارثة مهما بلغت فداحة أخطائها لا يكفي لمحوها أن نحاربها بأمضى الأســـلحة أو أبلغ الأقوال. إنه لا يزلزلها إلاّ تفتق الوعي وانفتاح المدارك وتهيئتها لتغدو مرنة تتفحص الأفكار وتفهمها وتناقش أخطاءها بروح مســـتقلة لا يقيدها فهم مألوف، ولا عادة متوارثة.

ولا يضمن مثل هذه المرونة بصورة مستوفية إلاّ نشر التعليم في إطار مدروس ومنهج يتناول تثقيف العقول وتمرينها على الاستنتاج والمناقشة أكثر مما يتناول استظهار المقرر وإثباته بصورة آلية.

إنه إذا تفتق ذهن العربي البادي في خيمته، واتسع إدراكه بتأثير ما تنشره مدارسنا اليوم من وعي فسوف لا يعجزه أن يتفهم الأشياء على حقائقها ويدرك أن التصنيع بكافة أنواعه وفي مختلف مجالاته من أقوى دعائم النهوض بالأمم، وأنه لا يخل بشرف الرجل أو أصالة محتده أن يزاول أي عمل في دنيا الصناعة يغني حاجته ويضيف به إلى بلاده لبنة ذات أثر فعّال.

وإذا كان من المشاهد الملموس أن في ذكاء البدو في بلادنا وتوافرهم على الجلد والعزيمة ما لا يقل عن طاقة أي عامل منتج فحرام ألاّ نرعى مثل هذه الميزات ونستغلها لنفعهم وصالح مواطنهم.

إن آمالنا معقودة بهذه الخطوة الجديدة التي خطوناها في سبيل ثقافتهم، ورجاؤنا ألاّ يطول الشوط حتى نراهم وقد اتسعت مداركهم لفهم الحياة على حقائقها وأقبلوا بروح رياضية يصافحون مجالات الأعمال الحرة في كافة وجوهها.

يعنون حتى بآثار الإسلام!!

قال صاحبي: يبدو أن عناية الأوروبيين بدراسة الفنون الإسلامية لا تقل أثراً عن عنايتهم بآثار الإسلام العلمية والأدبية والاجتماعية.

قلت: لقد بنوا بالفنون الإسلامية عناية لم يتهيأ للمسلمين مثلها، وقد جاءت الحرب العالمية الثانية على متحف جد واسع كان قد أقيم في برلين العاصمة الألمانية.. كان يضم مجموعة ثمينة من آثار الفنون الإسلامية عثر عليها المنقبون في حفرياتهم من أقطار الإسلام فالتهمت الحرب جميع القطع المعروضة، ودمرت المعرض تدميراً لا يرجى له حياة بعد ما حدث.

ومع هذا فإن في معارض الآثار في إسبانيا وفي فرنسا وفي روسيا وإيطاليا أجنحة لا تزال ناطقة بروائع القطع الفنية الإسلامية التي لا تضاهيها معارض الآثار الإسلامية في سائر بلاد الإسلام التي حاولت العناية بالآثار.

يذكّرني هذا بقصة فريدريك سار العالم الأثري المعروف؛ فقد كان مغرماً بالهندسة المعمارية والمباني الأثرية الإسلامية منذ صباه، فلما بلغ أشده واستوى شرع يطوف بأقطار الإسلام فزار آسيا الصغرى وإيران والتركستان وانفتحت أمامه ميادين جديدة من ميادين الفن الإسلامي، فاستأنف طوافه في سنة أخرى فزار المناطق الواقعة على ضفاف دجلة والفرات، واستغرقت رحلته هذه نحو أربع سنوات قضاها في التنقيب والحفر، ثم انتقل إلى منطقة سامراء فاكتشف آثاراً رائعة تعود إلى عصر العباسيين، ثم انتقل إلى الشام فجاس خلالها باحثاً منقباً حتى اجتمعت له من كل هذه الرحلات مجموعة كبيرة مصنوعة من الخزف أو النحاس أو الزجاج.

كما اجتمعت له طائفة كبيرة من الرسوم والخطوط والتماثيل فعاد إلى بلاده بهذه الثروة الطائلة، واستطاع أن يتصل ببعض الممولين فأعجب بالفكرة بعد أن اطلع

على تفاصيلها، وندب له من يساعده على تنظيمها وتبويبها فوضع لذلك أساساً لفن البحوث الأثرية الإسلامية وخلق نظاماً خاصاً من شأنه أن يبوب الآثار حسب مختلف عصورها وتعدد شعوبها، فأرجع ما كان عائداً منها لأصله العربي أو الفارسي أو السلجوقي أو التركي أو الهندي أو الأندلسي.

ونشر عدة بحوث عن نتائج دراسته الأثرية الإسلامية في عدة مجلات علمية وفي كتاب صدر في خمسة مجلدات تحت عنوان (بحوث في الفن الإسلامي.(

فإذا تهيأ لبلادنا من يتعشق الفنون الأثرية وينشط لمتابعتها والتنقيب في مظانها وتهيأ لها من أصحاب الثروات من يحتضن الفكرة ويبذل في سبيلها فإننا نحاول بهذا أن نجاري غيرنا في هذا المضمار.

وإني أعرف شخصاً في مكة عني بجمع مئات القطع الأثرية ذات الأثر التاريخي وهو ينتظر من أصحاب الثراء من يعطف على فكرته ويساعد على بروزها في إطار مشرّف فعساه يجد من يلبي رغبته ويمد إليه يداً تساعده.

تحديد النسل في بلادنا

قال صـــاحبي: قرأت بحثاً مطولاً عن توزيع الصـــحف في كثير من بلاد العالم المتمدن فتراءى لي أننا بالنسبة لذلك في حاجة قصوى إلى نشاط مضاعف يجاري أمماً سبقتنا في مضمار القراءة والاطلاع.

قلت: هو ذاك.. ففي الأخبار الأخيرة أن إحدى مؤســـسات الاستفتاء في بلد أوروبي تراءى لها أن تســـتفتي مواطنيها عن مبلغ عنايتهم بقراءة الصـــحف اليومية فأظهر لها الإحصـــاء أن 85% من الســـكان يطالعون الصـــحف اليومية بصـــورة مستمرة ويستقون أخبارهم منها وأن 15% فقط لا يقيدون أنفسهم بها في صورة مســـتمرة. وإذا علمت بعد هذا أن ســـكان تلك المنطقة التي جرى الاســـتفتاء فيها يبلغ نحو 70 مليوناً علمت المدى الذي يتسع له توزيع الصحف.

صـحيح أن شعوب العالم الراقي شعوب قارئة، وأن القراءة وحدها دعامة الوعي المتفتق والذهن المتفتح وأنها الســـبيل إلى فهم الحياة ومجاراتها في أحدث وســـائل الإظهار والتفوق، ولكننا لا يجب أن ننسى أن لتعداد السكان دخلاً كبيراً في اتساع مدى توزيع الصحف، ويأتي بعد هذا في درجة ثانية إقبال المواطنين على فن القراءة وعنايتهم بتتبع كل ما تخرجه المطابع من صـــحف ســـيارة أو مجلات علمية أو كتب مؤلفة.

والأمر في شـأن زيادة تعداد السـكان لا يقتصـر على رواج الصـحف فحسـب ذلك أن ســائر أعمال الإنتاج في ســائر المجالات يتوقف نجاحه على وفرة الســكان وكثرة تعدادهم.. فإن مصـــنعاً للكبريت أو أطباق الطعام أو أقلام الكتابة أو ورق المطابع لا تنجح أعماله في بلد صـغير محدود السـكان بقدر ما تنجح في بلد واسـع يتمتع بوفرة سكانه وزيادة عددهم.

لهذا كانت أمريكا من أغنى بلاد العالم. فإن مصنعاً ينشأ في أي طرف منها يجد من أسواقها متسعاً للرواج قليل النظير ولهذا كان المستعمرون في أكثر بلاد أوروبا يهمهم أن تتسع مستعمراتهم ليجدوا متنفساً لمنتوجاتهم وأسواقاً مفتوحة لمصنوعاتهم.

ربما اعتمد الاقتصاديون على نشاط التصدير في ترويج بضاعتهم ولكنه اعتماد مهما بولغ في شأنه لا يبلغ مبلغ التسويق الداخلي في أمم وافرة السكان.

نتبين من هذا أن فكرة تحديد النسل التي ينادي بها كثير من الأمم لا تتفق كثيراً مع وضعنا، فربما كنا أحوج من كثير لزيادة تعداد سكاننا سيما وبلادنا واسعة شاسعة تستطيع أن تستوعب أضعاف سكانها اليوم.

إذا تهيأت هذه الوفرة لبلادنا استطاع المنتجون أن يجدوا رواجاً واسع النطاق وإذا ظل أفق التعليم على حاله يتسع سنة بعد أخرى تفتق الوعي واتسعت حاجة المواطن وفهم واجبه نحو ما ينتجه وطنه لا في مجال الصحافة وحدها أو التأليف وحده بل في سائر ميادين الإنتاج والتقنية.

فليس لنا أن نجمد على رأي ونغفل تجارب الحياة واحتكاك العقول بأحداثها.

لا تقل إن علينا أن نسلّم بكل ما يُقال وما يدعيه أصحاب النظريات لا.. ولا أن نرفض كل ما ينتهي إلينا لمجرد الرفض.

يجب علينا أن نمرس عقولنا على دقة الفهم وحسن الاختيار.

في سبيل التطوير التربوي

قال صاحبي: لعلّك تستغرب أن ينشأ طفل في بيته على وتيرة قوامها العقاب البدني بسائر أصنافه ثم نطالب المدرسة بعد أن ألف طفلنا هذا اللون من التربية ألا تشرع عصاها في وجهه.

قلت: هو ذاك.. ولهذا ابتكر علماء التربية عقد ندوات تجمع بين هيئات التدريس في المدارس وبين أولياء أمور الطلبة.. ومن المسلّم به أن من أهم ما يُعنى به في هذه الندوات أن تتفق المدرسة والبيت على وسيلة موحدة في أسلوب التربية فلا يفسد البيت ما تبنيه المدرسة ولا تمضي المدرسة على سنن تخالف ما هيأه البيت.

وقد أخذت وزارة المعارف في بلادنا بهذا الرأي. فأنت تسمع بين كل آونة وأخرى أخباراً عن مديريات التعليم هنا أو هناك تدعو إلى مثل هذه الندوات التي تجمع بين أولياء أمور الطلبة وهيئات التدريس بحضور بعض المتخصصين في شؤون التربية ليدرسوا معاً أفضل الوسائل لتربية النشء ويناقشوا ما يعترضهم من مشاكل في هذا السبيل.

وإذا كان لمثلي ما يتمناه في هذا الصدد فليس إلاّ أن تعنى المدارس المنفردة في بوادينا القاصية بهذا الرأي فتكثر من عقد الندوات التي تجمع بين هيئات التدريس وأولياء أمور الطلبة ولا بأس من أن تطلب من مديريات التعليم المسؤولة عنها انتداب بعض رجال التربية لحضور هذه الندوات ليتولوا نقاش من ينقصه فهم بعض الوسائل الحديثة في التربية إذا وجد في قرانا النائية من أولياء طلبتنا أو بعض مدرسينا من لم يقتنع بعد بآخر ما أحدث علماء التربية من نظريات تربوية.

يا صاحبي ليس لنا أن نقف عند معارف جيلنا من نظريات الحياة. فقد عاشت الحياة من أول يوم عرف الإنسان فيه الأرض وعايشها تفتح آفاقها للتطوير، فليس ثمة اليوم نظرية واحدة كانت تعيش قبل آلاف السنين وظلت على حالها لم يتناولها التطوير أو التغيير.. هناك آلاف النظريات إن لم نقل ملايينها قنعت بها أجيال وأجيال ثم ما لبثت أن احتكت بآلاف إن لم نقل بملايين من حوادث التجارب فكشفت عن حقائق ألزمت الإنسان العاقل بأن يدير ظهره إلى ما ورثه منها فيلغيها أو يتناولها بالتطوير والشذب.

هناك شيء واحد غني عن الشذب غني عن التطوير هو ما ثبت من كتاب الله أو سنة رسوله بوجه صحيح ثابت أمّا ما عدا ذلك فليس لنا أن نقف عنده جامدين.

هَل نربط اقتصادنا؟

قال صــاحبي: ألا ترى أننا وبلاد الشــرق الأوســط في حاجة إلى ربط اقتصــادنا بدول الرابطة الاقتصادية الأوروبية أو تكوين رابطة بيننا على غرار ما فعلت أوروبا؟

قلت: أرى أننا في حاجة إلى أن نتريث طويلاً وطويلاً جداً قبل أن نخطو خطوتنا في مثل هذا المجال.

إن من أهم الأخبار الأخيرة التي يجب أن نطيل النظر فيها وأن نحقق قدرتنا على مجاراتها ما قرره مجلس الرابطة الاقتصادية الأوروبية في شأن منح التسهيلات لسائر الأفراد الذين ينتمون إلى دول الرابطة.

ومثلك في ســعة إدراكك لا يجهل أن منح التســهيلات يعني أن للفرد العامل في أي دولة من دول الرابطة ســواء كان الفرد طبيباً أو محامياً أو ميكانيكياً أو كهربائياً أو صانعاً في أي مجال.. لهذا الفرد أن ينتقل بمهنته التي يباشرها إلى أي دولة يختارها لينزل أي مدينة أو قرية يراها فيباشـــر عمله بأي شـــكل يتراءى له، وعلى الدولة المضيفة أن تقدم له جميع التسهيلات اللازمة وأن تنظر إليه نظرتها إلى المواطنين من رعاياها.

إن مثل هذه التسهيلات تعني الحرية الكاملة المتبادلة بين دول الرابطة، فيستطيع الطبيب الهولندي أن ينقل عيادته إلى مرســيليا إذا شــاء أو يجعل لها فرعاً في باريس ويســـتطيع المزارع الإيطالي أن يبيع مزرعته في إيطاليا ليؤســـس بدلها في هولندا أو ألمانيا دون أن يجد في مقره الجديد عائقاً يعوقه أو نظاماً يحدد نشـــاطه. ويســـتطيع حتى الحداد في ورشة والميكانيكي في مصنع ومراسل الأخبار في أي جريدة والعامل في أي فرع من إصلاح السيارات أن ينقل عمله إلى أي مدينة في أي دولة من دول الرابطة ليباشر فيها مهنته في بحبوحة من التسهيلات.

وبهذا ألغيت بين دول الرابطة جميع القيود واللوائح التي كانت تعوق الفرد في عمله خارج حدود بلاده، كما ألغيت جميع الأنظمة التي كانت تميز العامل الوطني عن أي طارئ غيره، كما ألغي كل تحديد للإقامة في البلد الأجنبي من بلاد الرابطة وأصبح العمال من كل هذه البلاد يستطيعون أن يبحثوا بالتساوي عن أي عمل يتهيأ لهم في أي دولة يختارونها كما أخذت البيوت الصناعية والتجارية تفتح فروعها في أي مكان شاءت ووجد القطاع الزراعي مجاله واسعاً في أي بلد يختار.

إن دول الرابطة لا ترى في هذه التسهيلات الجديدة ما يسيء إلى اقتصادياتها؛ لأن بلادها تكاد أن تتكافأ استعداداتها في جميع المجالات الحيوية فإذا هي أفسحت لأي يد أجنبية مجال العمل فإنها بما فعلت تربح لرعاياها مجالات مثلها أو أوسع منها في أي دولة يختارونها.

ولكن الحالة في أكثر بلاد الشرق الأوسط لا تتناسب وهذا التنظيم! هنا دول سبقت غيرها بعشرات السنين وعشراتها في جميع ميادين الأعمال، فباتت الاستعدادات غير متكافئة ومعنى هذا أن مثل هذا التنظيم إذا أتاح لرعايا دولة واسعة التصنيع حرية العمل في دولة جديدة على الحياة فإنها بهذا سدت الطريق على الأيدي الجديدة في البلد الجديد ولا يجد البلد الجديد فرصة كافية للاستفادة من طاقة عماله خارج حدوده على قاعدة المثل، وبهذا تضيع الفائدة من عملية الترابط وتخسر الدولة الجديدة كل ما يحقق مكاسب غيرها من دول أخرى سبقتها إلى ميادين التقنية والتصنيع.

التعليم المهَني

قال صاحبي: كنتُ في بعض رحلاتي إلى الخارج أمرُّ ببعض القرى فأشاهد بعض الفلاحين منهمكين في بناء بيوتهم الصغيرة يشتركون في العمل مع أطفالهم وبناتهم.. وبسؤالي عرفت أنهم غير مأجورين للعمل فيها فهي تخصهم يبنونها لسكناهم أنفسهم فمنهم النجار والبنّاء والمبلط والمبيض، كما عرفت أنهم ليسوا من أصحاب هذه المهن، وأنهم يقحمون أنفسهم فيما يعملون فتتم أعمالهم غاية في البساطة في شكل يقيهم الحر والقر ويجمع شتات أفرادهم.

قلت: لقد كان هذا ديدن سائر بوادينا وقرانا بل مدننا الصغيرة قبل أن يغزونا الغنى والرفاه، بل كان البادي يصنع آنيته لنفسه وينسج فرش بيته، ويحوك ثوبه إلى جانب ما يزرعه لطعامه ولا يحتاج سوق المدينة إلاّ لما ندر من حاجاته.

أما اليوم وقد بدأنا خطواتنا الأولى نحو الحضارة شرعنا ننسى أكثر مميزاتنا الفطرية ونتواكل.. وتلك إحدى مآسينا.

إن الشعوب الفاهمة لا تنسى وهي تتحضر مميزاتها الفطرية، ولا تتوانى في رفاهها عمّا ألِفت من نشاطها المهني، بل إنّ بعض البلاد التي حققت شوطاً بعيداً في حضارتها باتت تتوسع في مناهجها لتعطي الأعمال المهنية نصيبها الوافر من حضارة الفرد.

ولقد قرأت في أحدث ما قرأت عن بلد أوروبي أن مجلسه البلدي قرر تعميم التعليم المهني في مدينته بشكل إلزامي، وجاء في حيثيات هذا القرار أنه لا يكفي للعامل المحترف أن يجيد مهنته التي يحترفها فربما حال دون رواجها حائل وضرب القرار مثلاً بعمال بعض المناجم التي توقفت مناجمهم عن العمل كما لا يكفي الموظف أن يستغني بوظيفته عن حرفة مهنية يستعملها فربما عاكسته بعض الظروف

في وظيفته أو أحيل إلى المعاش في سن صالحة للعمل، فلا يجب أن يعيش تحت رحمة الظروف أو رحمة معاش يحدده سن التقاعد؛ لهذا كله لا بد لكل فتى أو شاب أو كهل أن يتعلم في أوقات فراغه مهنة أو أكثر تتفق مع مؤهلاته واستعداده الجسمي والعقلي ليعتمد ما تعلم إذا خانته ظروف عمله أو شعر بحاجته إلى ما يزيد دخله.

ومن أجل هذا يرى المجلس البلدي ضرورة التوسع في إنشاء مدارس مهنية تضم عشرات الحرف، وأن توزع حصصها بين الأوقات التي يتاح للمتعلمين من كل الدرجات أن ينضموا إليها ليأمنوا بما يتعلمون على حياتهم العملية.

ويرى هذا المجلس أن التطور الاقتصادي السريع والتقدم الفني والميكانيكي في كافة المرافق الصناعية يفرض بين الحين والآخر إحداث حرف جديدة تقتضيها أوضاع الحضارة الجديدة، ويطمر حرفاً قديمة فيتعين على المدارس المهنية أن تجاري محدثات المهن وتهيئ المواطنين لمزاولة أي عمل محدث ليجدوا فرصتهم في رواج السوق ويغنوا مدينتهم في كل مرفق.

هذه هي الحضارة في أدق معانيها.. أمّا أن نفرح لقشورها ونسعد برفاهها ونعيش على هامشها متكلين على ما تصنعه اليد الأجنبية وما تحمله إلينا من محدثاتها وننسى حتى صناعاتنا التقليدية ثم لا نجاري ما تطوره الأمم من محدثات فذلك أدنى ما يعرقل سيرنا ويحول دون تقدمنا في الحياة.

جهُودُ العاملين من أسلافنا

قال صاحبي: ألا ترى أن متتبعي تراجم رجال الحديث وسيرهم بذلوا الكثير في سبيل تحقيق ما ترجموا؟

قلت: لقد كانوا مضطرين لبذل ما عانوا؛ لأن السبيل أمامهم لم يكن سهلاً ميسوراً. فقد انطوى جيل النبوة عن مئات الألوف ممن عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم وصحبوه وحفظوا عنه ثم تلاهم مئات ألوف أخرى كانوا معنيين بالنقل عمن سبقهم ليبلغوه إلى من خلفهم طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل.

فلما ندب أصحاب التراجم أنفسهم فيما بعد لتحري حقيقة الحافظين والناقلين كان عليهم أن يدرسوا أحوال هؤلاء فيضبطوا أنسابهم وتواريخ ميلادهم وأن يعنوا بأحوال كل شخص على حدة عناية تقرر حقائقه العلمية والأخلاقية والعقلية وتعين درجته من الجرح والتعديل ليستوي حكمهم على حقيقة ما نقل أو روي فاقتضاهم ذلك بذل الجهود التي ترى أنها قليلة النظير.

كان بعضهم يسهر الليالي الطويلة بين التنقيب والبحث، وتكلّف بعضهم الأسفار الشاقة بين الأقاليم النائية، والبوادي البعيدة سعياً وراء الكشف عن حقيقة رجل، وأخذاً من رواة الحديث، وتعقيباً على خلة سمعوها عنه له قيمتها في تجريحه أو تعديله.

تلك مشاق نستطيع أن نؤكد أنه لم يسبق إلى مثلها في تاريخ الأمم استطاع المجدون من هذا النوع بما بذلوا من راحتهم وأوقاتهم أن يغربلوا ما تناقل إليهم من ألوان الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غربلة تفرز درجاتها وتعطيها قيمتها من الصحة.. فابتكروا لها من الألقاب والكنى ما يعين حقيقتها فمن

حديث صــحيح، إلى حســن إلى مرســل، إلى غير ذلك من ألقاب تواضــعوا عليها ليتفقوا على درجتها من الكمال.

وتصــدى بعضــهم لأكثر من هذا فتعقبوا الأحاديث التي اختلفت نصــوصــها، وتفننوا في دراسـة وجوه الخلاف فيها، وبذلوا الكثير في اسـتقصـاء رواتها، واسـتقراء مَواطن الضـعف في من عرف منهم بضـعف وكانوا يعلنون ذلك في صـراحة ووضـوح أفادت المشتغلين بعلم الحديث وساعدتهم على تصنيف الجيد والرديء.

وجاء المجدون من رجال اللغة العربية يتعقبون آثار رجال الحديث ويقلدونهم في استقصاء رواة مفردات اللغة ويغربلون رواتها، ويبحثون عن رجال السند المتصل في الرواية الواحدة ســعياً وراء الكشـــف عن حقيقة الناقل وتعيين درجته من الجرح والتعديل!!

رحل أكثر المعنيين بهذا إلى الأطراف البعيدة في البادية ليناقشـــوا الأعراب في كلمة مفردة أو لفظ مركب.

كل هذه جهود لو توافرنا اليوم على بعضها فيما يهمنا تحقيقه من مقدراتنا لكان لنا غير هذا الشأن الذي نعيشه.

كيف يُخطِّط اليهُود؟

قال صاحبي: ألاّ تعجب لليهود وقد انتشروا في أكثر ممالك الأرض وتوزعوا في أقطارها، فأصبح منهم الأمريكي والإنكليزي والفرنسي والإيطالي والأفريقي والعربي أيضاً، ومع هذا لم ينسوا يهوديتهم كجامعة. فهم يمدون قومهم بالأموال، ويساعدونهم بالنقود بينما لم نجد نفس هذا الأثر بمثل هذا الاهتمام في جالياتنا العربية التي انتشرت في أكثر بلاد العالم.

قلت: إنها قصة النسيان التي ذكرت. فأكثر العرب المهاجرين في أطراف الأرض ما لبثوا أن اندمجوا في بيئاتهم الجديدة.. لا أقول اندماجاً كلياً! فإن المهاجر الأول لا يفقد حنينه إلى مسقط رأسه مهما كانت نسبة الحنان. ولكن الأجيال التي تخلفه جيلاً بعد جيل كثيراً ما تنسى مسقط رأس الجد، وتميل بعواطفها إلى البلاد التي أنشأتها.. على عكس اليهود الذين لا ينسون أنهم يهود مهما تفرقت بهم البلاد ومهما توازعتهم الأجناس، ومهما تعاقبت عليهم الأجيال.

ولا يقتصر الأمر على هذا فالمشاهَد المعروف أن الجاليات العربية مهما بلغت نشاطاتها، واتسعت جهودها قل أن تجد بينها من يستطيع أن يسيطر على عالم المال أو المناصب العالية أو الجاه النافذ بقدر ما فعل اليهود.

فأنت اليوم لا تستعرض الأحوال العامة في أي دولة من كبريات الدول إلاّ وجدت اليهود يحتلون أهم المناصب الرئيسة فيها ووجدت لنفوذهم أكبر الأثر في توجيه السياسة العامة فيها.

وهم إلى هذا يسيطرون على أهم الأعمال تجارية أو صناعية ويمتلكون من ناصية التعليم ما يستطيعون توجيهه بصورة غريبة.. أما الصحافة وأما وكالات الأنباء في كثير من بلاد العالم الراقي فحدِّث عن مقدرتهم في استخدامها ولا حرج، بل إن

كبريات الصحف وأهم المؤسسات العالمية للأنباء تمولها أموال يهودية ويشرف على توجيهها زعماء اليهود.

وهم إلى هذا يمولون أعظم المسارح أهمية في أوروبا وأمريكا، ويمتلكون أكبر المؤسسات السينمائية، ويشرفون على كثير من دور النشر والتأليف، وينفقون عن سعة لشراء كل من يعترض سبيل دعايتهم عن طريق التأليف أو الصحافة أو الإذاعة أو التمثيل حتى باتت أهم هذه الوسائل تعمل لخدمتهم وتخضع لتوجيههم.

فهل لنا أن نقيس هذا بجهود الجاليات العربية في أقطار الأرض وأكثرها جهود فردية لا تسيطر على اتجاه ولا تملك من النفوذ المادي أو الجاه الرسمي ما يهيئها للتوجيه والتخطيط؟

كيف يُعنُون بعجزتهم!!

قال صـــاحبي: ألا ترى أن على أثريائنا وكبار بيوت المال فينا أن ينظروا إلى العاجزين والمقعدين نظرة خاصة تهيئهم للعمل الكاسب لا على غرار ما نشهده من توزيع الإحسان عليهم في صور نقود أو ما إليها مما لا يفي بحاجة المضطر العاجز؟

قلت: لقد لاحظت تطبيقاً لهذا الرأي في أكثر من بلد في أوروبا.. وأدهش ما أدهشني فيما رأيت قصة مؤسسة تجارية تعمل في تصدير النحاس.

أرادت هذه المؤســـســـة أن تخدم العاجزين عن العمل في مدينتها عمياناً، أو مقعدين، أو مبتورة أيديهم، فأنشـــأت داراً خاصـــة تجمعهم لا لتطعمهم أو تؤويهم فقط. بل لتعلّم كل عاجز مهنة تتفق وعاهته ليعيش منها. وعلى العاجز إذا أتقن ما تعلمه أن يغادر الدار إلى حيث يســـتطيع الإفادة مما تعلم ليعيش من كســـب يده ويستغني عن سؤال الناس.

وكنت قد سألت بعض المسؤولين عن الدار ماذا يصنع العاجز بمهنته التي تعلمها في الدار إذا غادرها صـفر اليدين لا يملك من المال ما يهيئه للعمل؟ فقال إن الدار لا تدفعه إلى الحياة العامة دون أن تســلحه لمواجهتها، وحســبك أن تعلم أن نظام الدار يقضـي بتعيين مرتب يومي متواضـع لكل من يلتحق به من العجزة ابتداءً من يوم دخوله وهي لا تدفع له من هذا المرتب اليومي إلاّ ما تدعو إليه حاجة ملحّة يقنع بها المســؤول في الدار ليتوفر له في صـــندوق الدار أكبر قدر ممكن من المال يستطيع أن يهيئه لعمله المقبل. وهي إلى هذا لا تبيح له أن يغادر الدار حتى يتحقق لها نوع العمل الذي ســيشــغله إذا ترك الدار فإذا بدا لها أنه لا يســتطيع أن يزاول عملاً يستقل به أبقته في الدار وكتبت إلى المحال المهنية والبيوت الصناعية في المدينة

تعرض عليهم أمره وتعيِّن مستواه المهني فإذا وافاها من يوافق على استخدامه براتب ترضاه له أسلمته إلى الجهة المطالبة وظلت مشرفة على علاقته بالعمل الجديد.

وربما شعر بعض المتعلّمين في مؤسستها بقدرتهم على أن يستقلوا بأعمالهم دون حاجة لأن تلحقهم بأي مصنع.. ففي مثل هذا يتعيّن على العامل أن يقدم من ذويه من يتعهد بألاّ يعيش عاطلاً ولأن يزاول ما يتعلم لكسب عيشه وإلاّ فإن المتعهد به مسؤول عن دفع جميع ما أنفقت الدار على تعليم العامل.

يقول هذا المسؤول: إن الفكرة الأساسية التي تعمل مؤسستنا من أجلها ألاّ يعيش عاجز في مدينتنا عالة على سؤال الناس؛ لهذا فنحن لا نتيح له مغادرة الدار حتى يثبت لنا قدرته على العمل الذي يعوله.

فليت بيوتنا المالية وأصحاب الإحسان فيها بوجه خاص تتسع مفاهيمهم لمثل هذا اللون من الإحسان.. إذن لاستطعنا أن نعالج أهم أدوائنا في الحياة.

بين العبقريّة والجُنون

(1)

قال صاحبي: كنتُ ذات أمسية أتنزّه وبعض أصدقائي في بعض بساتين الطائف، فتناهى إلينا صـــوت ناي رائق اللحن عذباً، وعندما أخذنا سمتنا إليه إذا صـــاحبه معتوه لا يفهم ما يُقال! فكان مشهده موضع عجب لا يُدانى..

قلـت: لا عجـب فيمـا أرى.. فـالحواجز بين المعتوهين والعبـاقرة أدق من أن تســـتبينها. ولقد تعمق أكثر من بحاثة في دراســـة الحدود الفاصـــلة بين النبوغ أو العبقرية من جهة والعته أو الجنون من جهة أخرى فلم ينتهوا إلى نهاية يصح الوقوف عندها.

وأنت ترى هذا مشاهداً. فأكثر العباقرة وأكثر النوابغ لا يحسنون معاشرة غيرهم ولا يتقيـدون في المعـاملات العـامـة بمـا يجب أن يتقيـدوا بـه، وأنـت ترى في أكثر تصرفاتهم من الشذوذ ما ينفي عنهم مسحة العقل أحياناً.

أعرف فناناً من أشـهر عباقرة الكمان في بلد عربي كتبت الصـحف عن شـذوذه أغرب قصة تكتب. فقد كان مدعواً لإحياء حفلة كبيرة في بلد ما، ولمّا حضر انتظر الناس أن يطربهم ويشـنف أسماعهم فلم يفتح له بشـيء كما قال، وحاولوه ليداعب كمانه بأية محاولة يراها فأقسم أن يده لا تطاوعه ليمسك بالكمان: ولمّا أكثروا عليه في غير جدوى وكان الليل قد أوشـك على نهايته أبى إلاّ أن يسـتأذن للخروج.. وما مضـت بضـع دقائق حتى سمع صـوت كمانه يملأ الجو حنيناً آتياً من نافذة قريبة من بيت يسكنه صديق له. ولما عوتب في هذا أقسم أغلظ الأيمان أنه لا يدري لِمَ عصاه النغم وكيف واتاه.

هذا لون من معاشرة بعض النوابغ وهو كما أراه لا يختلف كثيراً عن تصرفات أي مجنون..

وفي أوروبا اليوم يعنون ببعض المجانين ممن تتجلّى مواهبهم في الرسم أو التصوير أو الموسيقى، ويرون أنهم ربما اكتشفوا ألواناً من نبوغ المجانين لا تختلف كثيراً عن مواهب العباقرة المشهورين. ويؤكد عالم نفساني أن من مواهب بعض العباقرة ما يسلكهم مسلك المجانين.

وقد قرأت من أخبار ميونيخ أن نفراً من أطباء العقول فيها استطاعوا فتح معرض خاص عرضوا فيه رسوماً ولوحات زيتية خطتها ريش المجانين في مصحات من ألمانيا والنمسا وهولندا والنرويج، وإن بعضها أثبت لبعض المجانين مواهب لا يحلم بها فنان عادي، بل ولا تقل روعتها عما تخطه ريشة نابغة من نوابغ العصر! فلا تستغرب على صاحبك المعتوه ما رأيت فربما اكتشف العلم في أعماقه مواهب عبقري نابغة.

ونحن نشاهد في بعض المعتوهين في بلادنا تجليات غريبة يسمون بها إلى أوج لا نعرف كيف نفسره، ولو درسها العلم لأدرك أنها بعض معاني العبقرية كما نشاهد من تصرفات بعض العباقرة وشذوذهم ما يجمعهم بالمجانين في كثير من بدواتهم.

بين العبقريّة والجُنون

(2)

قلت لصاحبي: كنت تحدثت إليَّ قبل أيام عن المعتوه الذي صادفته يشجيك بأنغامه على الناي وكنت رأيت في هذا ما أثار عجبك وهالك أن يصدر مثله من مجنون.

وكان من رأيي أن الحواجز بين المعتوهين والعباقرة أرق من أن نستبينها، وذكرت لك ما أعرفه عن بعض الباحثين الذين تعمقوا في دراسة الحدود الفاصلة بين النبوغ والجنون فلم ينتهوا إلى ما يصح الأخذ به.. إلى أن قلت لك إن في أوروبا اليوم مجانين تجلّت مواهبهم في الرسم أو التصوير أو الموسيقى، وإن أطباءهم باتوا يعنون بهذه التجليات ويهيئون لأعمالهم الفنية معارض خاصة يعرضون فيها رسومهم ولوحاتهم الزيتية.

وأزيدك اليوم أنني قرأت عن معرض متجول يزور المدن الراقية في أوروبا وأمريكا يعرض جديداً من هذه اللوحات والرسوم، وأكبر ظني أنهم بهذا العرض المتجول العام يخدمون فكرة لها قيمتها العلمية. إنهم يتوخون من وراء ذلك أن يصادف العرض بعض الباحثين من كبار العلماء فيستطيع أحدهم أن يبني على ما يرى نظرية تفسر ما يتجلى من مواهب المجانين في لوحاتهم.

ومن طريف ما قيل عن أكثر هذه اللوحات أنها تعرض رسوماً لا تختلف عن غيرها مما عرف من لوحات الفنانين العاديين، وأن بعضها ربما تفوقت على مستوى رسوم الفنان العادي.

ومما لوحظ على مجموعة الرسم المعروضة أنها تمثل الفن على مختلف مراحله سواء كان ذلك الرسم كلاسيكياً يرسم الأشياء على حقيقتها الأصلية أم رمزياً يتباعد

شيئاً فشيئاً عن الأصل، إلى أن يبلغ الفن التجريدي الذي شاع أخيراً ورأينا بعض نماذجه هنا في بلادنا بريشة فنانينا الجدد الذين تعشقوا الهوسة التجريدية وأسميها هوسة لأني إنسان كلاسيكي فيما يبدو أتعشق رسم الطبيعة كما خلقت بينما يرى فنانونا الجدد أن يطلقوا العنان لخيالهم وتصوراتهم البعيدة حتى ليشكل على مثلي أن يفهم ما يقصده الرسام قبل أن يصور لي فكرته ويضع يدي على الخطوط التي أرادها ليعبر عما تخيله.

ومما لفت نظر بعض المشاهدين أن بعض الرسوم زادت فيها الألوان الفاقعة القوية وأن بعضها بالغ الخيال في أشكال تدخل الهلع على النفوس، أو تبدو عليها مسحة غريبة غير معهودة في لوحات غيرهم من أصحاء العقول ما جعل بعضهم يستنتج أنها في واقعها تعبر عن أشياء خفية مدسوسة في العقل الباطن الذي يهيمن على ريشة المجنون في أكثر أحواله.

إنها دون شك ظواهر لها معانيها الدقيقة وهي لا تزال إلى اليوم قيد الدرس وهم يؤملون ألاّ يعجز العالم في ضوئها أن يحدد الحدود الفاصلة بين العباقرة والمجانين.

يبذلون أرواحهم في سَبيل الإنسانية

قال صاحبي: ما هذه الفدائية التي قرأت عنها أخيراً في قصة الدكتور العربي نزيل أمريكا الذي جرّب مصل الحمّى الصفراء في نفسه ليدرس أعراضها ويكتشف أثر العلاج الذي ابتكره لتخفيف آلامها والقضاء على جرثومتها تدريجياً، فما لبث أن اغتالته الحمّى وقضت على حياته؟!

قلت: إنها فدائية كبار العلماء ونوابغ المخترعين في أكثر من مجال. فقد جاء في إحصائية العام الماضي أن مختبرات التجارب في أوروبا قضت على **65** عالماً من علماء البحث والاختبار كان أكثرهم منصرفاً إلى بحوثه وتجاربه، فقضت البحوث على حياته أثناء مزاولته العمل فراح ضحية العلم.

إن أكثر المخترعات التي ننعم بفوائدها في أكثر مجالات الحياة ابتداء من قصة الطيران إلى فكرة الكهرباء إلى موضوع الإشعاع إلى حكاية الذرة إلى مجال الطب إلى مئات البحوث في غير هذه الميادين لم تبرز إلى حيز العمل إلاّ بعد أن عرّضت علماءها لأهول الأخطار وقضت على فريق كبير منهم بالموت الرهيب.

وقد جاء في إحصاء معهد علمي أميركي أن مرض الحمّى الصفراء التي هالك شأن ضحيتها الدكتور العربي أنه من أخطر الأمراض التي يتعرض لها المعنيون بأبحاثها ذلك أن جراثيمها كما يقول بحث المعهد كثيراً ما تتسرب إلى المراكز العصبية فيلتهب الدماغ بصورة يتعذر علاجها ولا ينفك الباحث يعاني آلاماً مريرة حتى يقضي على حياته.

وفي أخبار هذا المعهد الذي نشرت بحوثه مجلة طبية تصدر في العراق أن إحصاء شمل عدة مختبرات في الدول الإسكندنافية أظهر قصة **30** نوعاً من أنواع الجراثيم الفتاكة أحدثت أثرها في **78** من رجال البحث بينهم ثلاث سيدات قضت عليهن

قضـــاءً نهائياً كما قضــــت على 24 من صــــنف الرجال ونقل 19 منهم إلى المستشفيات ربما نجحا منهم ثمانية أو عشرة أما الباقون فلا أمل لشفائهم.

وأنت إذ تذكر هؤلاء كفدائيين تعرضـــوا لأخطار الجراثيم في ســـبيل مصـــلحة الإنســان يتعيّن عليك أن تذكر إلى جانبهم شـهداء بحوث الفضـاء والطيران وأعماق البحار والذين أوغلوا في مجاهل الأبعاد المجهولة في الأرض والصحاري المقفرة التي لم يطأها إنسان والتجارب الكيميائية على تعدد أخطائها وأخطارها.

لا بل يتعيّن عليك أن تذكر بائعي أرواحهم في ميادين الحروب ومجال المقاومات الشعبية في كثير من البلاد المحتلة ولست اليوم بعيداً عن فدائيي فلسطين فإن منهم من يحزم المفرقعات على بطنه ويتعرض للدبابات والمعدات لتلفه تحت عجلاتها فتقضي عليه وعليها بما حملت في آن واحد.

إن السخاء بالروح في سبيل الإنسان سجية قديمة عرفتها مئات الأحداث لمئات الألوف من أصحاب التضحيات في عشرات المجالات وعشراتها.

إدارة الناس فنٌّ لهُ قواعِدُه

قال صاحبي: ألا تعجب معي لفلان رغم ثقافته العالية، ورغم تعمّقه في دراسة الحياة، لا أراه إلاّ فاشلاً في إدارة بيته، في تنظيم أعماله، في علاقته بمرؤوسيه في العمل، في معاملاته مع أكثر أصدقائه ومعارفه؟

قلت: ذلك في رأيي شأن بعض العباقرة وأصحاب الثقافات العالية. فإدارة العمال فن لا علاقة له بالثقافة العامة، ولا بفلسفة العباقرة.. فربما نجح في إدارة الناس، وتنظيم الأعمال، وعلاقات الأصدقاء شخص عادي يعرف كيف يبادل الناس شعوراً رقيقاً حساساً، ويعرف كيف يعيش بعيش أصدقائه، ويحس بإحساس مَن يتعامل معه من مرؤوسين وأصحاب اختصاصات أو حاجات.

إني أعرف مثقفاً نبغ في أكثر من مجال، كنت أجلس إليه فكأنما أجلس إلى موسوعة لا نهاية لسعة آفاقها، ولكني كنت مع هذا لا أستطيع معايشته ولو إلى فترة قصيرة لفرط شذوذه في معاملاته العامة.. فهو يشعر أنه سيد كل المواقف التي تصادفه، ولا يعترف لرأي إلاّ إذا كان هو صاحب هذا الرأي، ولا يستمع لأي عرض لأنه كما يرى نفسه فوق كل عرض، وكانت خلاله هذه تؤذيه في أصدقائه، كما تؤذيه في كل مَن يتعامل معه، كما تؤذيه في مرؤوسيه؛ فقد كان يرهقهم بتخطيطاته التي يفرضها دون أن يتعمق في مشاعر العاملين بها أو يتحسس إحساسهم فيها.

لا أدّعي أنه يتقمص روح جبار أو متسلط.. لا.. ولكنه يعيش حياته في جو خاص لا يتلاءم وحياة الناس ولا يشعر بشعورهم فلا تلبث أن تضطرب علاقاته بكل من يعامله منهم، ويفشل في إدارة كل من كتب له أن يديرهم.

وأعرف في الوقت نفسه أكثر من شخص لم يظفروا ظفر نابغتنا في الدراسات العالية ومع هذا استطاعوا أن يتفننوا في علاقاتهم بالناس وعرفوا كيف يديرون من يديرونهم بروح ودودة تختلط بمشاعرهم، وتعيش بعيشهم، وتقدر مشاكلهم، وتخطط إذ تخطط للعمل وهي تضع في حسابها مقدرات كل من يعمل في محيطها أو يتعامل معها.

هذا الصنف من الناس استطاع أن ينجح نجاحاً باهراً، وأن يكسب رضا العاملين معه وأن يربح من إخلاصهم وحبهم ما حقق له أكثر أمانيه في العمل.

لست أعني بهذا أن نوابغنا لا يحسنون إدارة أنفسهم وأعمالهم فالنابغة الذي يستطيع أن يخالط المستويات العامة إذا تعيّن عليه أن يخالطها، وأن يشعر بشعور العاملين معهم، ويعرف كيف يتودد إليهم ويقدر ملابساتهم فسيضمن لأعماله نجاحاً ممتازاً، وسيجد من ثقافته العالية ما يساعده على دراسة النفسيات التي تحيط به فلا يعجزه أن يعايش غيره ولا تتعذر عليه الإدارة كفن.

هيئة الأمم مقصُوصَة الجناح

قال صـــاحبي: حاولت أن أفهم الحكمة من تأســـيس هيئة الأمم فتعذَّر عليَّ ذلك.. لقد كنت أحســـب أن مهمتها الأولى فرض أحكامها في كل خلاف بين الدول، وأن تكون لكلمتها أذن مســـموعة وأمر نافذ، وإذا الأمر على غير ما فهمت. فمشاكل الدول لا تزال هي مشاكلها! ربما عُرضت على الهيئة جلسة بعد أخرى.. ربما قتلتها بحثاً ودراسة، وربما انتهت في شأنها إلى أمر وأصدرت في أمرها قراراً ولكنها قرارات لا تتخطى أقسـام الأرشـيف، فما حكمة وجودها وفيمَا هذا الإنفاق الهائل على جهازها الواســع الذي لا يجدي فتيلاً إذا أدلهمت الأمور وتفاقمت الخطوب؟؟

قلت: وما عساك تريد من باز مقصوص الجناح أن يفعل؟ لقد خُلقت هيئة الأمم يوم خلقت مقصوصة الجناح.. فهي لا تملك إذا ملكت أكثر من أن تتلقى شكاوى المغلوبين لتحقق فيها، وتدرس ظروفها وملابســاتها ثم تصـــدر قراراتها بالإدانة أو البراءة.

وليس في طبيعة تكوينها إذا أدانت ما يعطي قراراتها صــفة الإلزام على غرار ما يفعل كل حاكم يتولّى أمر طائفة من الناس، فالحاكم في كل طائفة يملك من أسـباب التنفيذ القوية ما يضمن احترام كلمته وتنفيذها وليس لهيئة الأمم ما يضمن لها ذلك أو شيئاً من ذلك.

إنها لا تملك قوة فعّالة مزوّدة بالعدد والعدة تقف على أهبة الاســـتعداد لدعم قراراتها وتنفيذ ما تراه في أمر الخاطئ أو المعتدي وإلاّ كان شــأنها غير هذا الشـــأن الذي رأيته وتراه ماثلاً في مئات القضـــايا العالمية التي عجزت إلى اليوم عن إقامة العدل فيها.

إنك لا تســتطيع أن تفرض لها مثل هذا الاســتعداد فهو يحمل موانع التنفيذ.. ذلك أن استعدادها إذا أريد لها الاستعداد يجب أن يبلغ مداه إلى أوسع ما يتسع له الخيال. عليك أن تفرض خلافاً تفاقم أمره بين دولتين من كبريات الدول التي باتت تســتخدم القنابل الذرية والهيدروجينية وأن قراراتها صــدرت لتدين إحداها وتلزمها إلزاماً بما حكمت عليها، أفلا يتعين على هذه الهيئة –هيئة الأمم– أن يكون لها من الجيش والعدّة ما يقوى على دحر من أدانت لتمتثل طائعة صاغرة لقرار الهيئة وحكمها؟

فهل تتخيل أن في اســتطاعتها أن تكون لها مثل هذه الإمكانيات أم هو ضــرب من الخيال يحمل موانع التنفيذ؟

ستظل هيئة الأمم يا صاحبي لا تملك إلاّ أن تصدر القرارات وتشفعها بما تستطيع من توصيات ولا أكثر.. على أن الأمر لو عاش لا ينقصه إلاّ ما رأيت من عجزها عن التنفيذ. إذن لقيل إنه لا بد مما ليس منه بد ولكن في الحنايا خفايا هي أدق مما تتصور.

من أهم هذه الخفايا مشــكلة النفوذ عندما يســيطر على اتجاهات الهيئة فالدول المشــتركة في مجلس الهيئة ليســت كلها ذات مســتوى واحد.. إن من بينها الضــعيف والأضــعف، كما أن من بينها القوي والأقوى.. الأقوى الذي لا تنتهي قواه عند حد محدود وكنتيجة لهذه الفوارق اســتطاع الأقوياء أن يتقاسموا نفوذ الهيئة فكان لكل قوى فلك واسع المدار تدور فيه عشرات الدول فلا تصدر في نقاشها أو تعليقها أو تصويتها إلاّ في إطار المدار الذي تقيدت به، وبذلك باتت الهيئة هيئة أقوياء الأمم وباتت سياستها تتجه باتجاه ما حشد الأقوى. هي ذي مأساة هيئة الأمم المستتبة على مسرح حياتها ليت المعنيين بها يعالجون داءها عساها تؤدي بعد ذلك بعض ما عليها.

إلى أيّ حَدٍّ فهمنا مَعَاني الحج؟

قال صاحبي: ترى إلى أي حد استطاعت هذه الجموع الحاشدة التي وفدت للحج أن تحقق حكمة الحج في هذا التجمع؟

قلت: لو تهيأ للمسلمين في زماننا أن يحققوا حكمة ما يفرض عليهم من فروض لكان لهم شأن غير هذا الشأن الذي انتهوا إليه من شتات وفرقة وتخلف.

إن مبلغ ما نهتم به اليوم من شؤون الحج أن يقال عن أحدنا لقد حج فلان وعاد بسلامة الله. أما كيف أدى هذا الحج؟ وبمن تعارف في صعيده وهل ناقش أو اتصل أو شارك في بحث له علاقته بأمور المسلمين؟ فذلك آخر ما يدور في خلد الحاج أو يمر بمخيلته.

وكيف تدور في خلد حجاجنا أمثال هذه الأمور وأكثريتهم لا تتسع ذهنياتهم لمثل هذه الأمور الدقيقة. وإذا تراءى لنا أن نحصي الواعين منهم الذين تتسع مفاهيمهم لمثل هذه المعاني فسوف لا نعثر إلاّ على أقليات لا يكفي عددهم لتمثيل المسلمين تمثيلاً صحيحاً يسع أجناسهم ومختلف أوطانهم وسائر مشاكلهم التي تعايش بلادهم.

لقد تهيأ لبعض الواعين أكثر من اجتماع اهتبلوا فرصتها بين أحضان هذه المشاعر، ولكن آثارها كانت محدودة وستظل محدودة مهما قيل في شأنها كما قلت لا تمثل سائر أجناس هذا الحشد المائج بصورة عملية فعّالة.

إن المسلمين بما تهيأ لهم من فرصة الحج يملكون من أسباب التجمهر والتجمع ما لم يتهيأ لأمثالهم في سائر الأديان والأمم.. وإذا قيل إن لبعض الأمم مناسبات ربما كانت قريبة الشبه بمناسبة الحج عندنا فصحيح.. ولكنها لا تبلغ مهما بلغت جزءاً من أهمية الحج ومداه الواسع.

ولســـت أغالي إذا ادّعيت أن بعض الأمم الواعية تتمنى لو تهيأت لها مثل هذه الفرصـة التي يهيئها الحج للمسـلمين في كل عام لتتقارب في إطاره وتتفاهم في دائرة نطاقه.

فما يمنع المســـلمين أن يغتنموا فرصـــتهم في الحج بعد أن تكالبت عليهم أكثر الأمم، ما يمنع كبراءهم وأصـــحاب الرأي فيهم أن يفتقوا وعيهم على معاني الحج ومشـــروعية الحج.. ما يمنع علماءهم وهم يفصّـــلون لهم واجبات الحج ومحرماته أن يحدّثوهم طويلاً عن الحكمة في هذا التجمع الفريد من نوعه ليعرفوا كيف يستفيدون من مشروعيته.

ليس للعصَا قيمَة تربويَّة

قال صاحبي: يعجبني في بعض المربين أن طلبتهم يستحون من عصيانهم رغم أنهم كمربين لا يؤمنون بسياسة العصا. ويشتد عجبي أكثر لمربٍ عرفته لا يؤمن بشيء إيمانه بفكرة العصا، ومع هذا فليس بين طلبته من يهابه أو يهاب العصا.

قلت: لا أرى أن الأمر في هذا أمر العصا.. فثمة شيء اسمه شخصية المربي إذا استطاع أن يبنيها لنفسه فقد هيأ لمركزه من الوقار ما لا تهيئه ألف عصا ومنحها من الاحترام ما لا تمنحه أقسى أدوات التربية التقليدية المتعارف عليها.

وليس كذلك شأن العصا.. فرب مربٍ لا تهيئه عصاه لغير الاستخفاف. ربما أَلِفها طلبته ففقدوا بتأثير الاستمرار إحساسهم بمرارتها فهم لا يبالون به ولا يأبهون لعصاه.

لا أعني بهذا طبعاً أن أعطي العصا رقماً تحت الصفر في كل الحالات مهما اختلفت الظروف أو تنوّعت الأسباب.. إنما أعني أن اتخاذ العصا كوسيلة معتمدة للتربية أسلوب فاشل في الحياة، فهيبة العصا إذا أعطت أثرها مرة أو أخرى فإنها لا تلبث أن تصبح مألوفة للطالب يفقد فيها مرارتها. وإذا فقد الطالب مرارتها استهان بها واستخف وأصبح لا يعبأ بما يناله منها.

وللعصا بعد هذا ما هو أعمق من هذه المساوئ، فهي مظهر من مظاهر القسوة وليس كالقسوة شيء يثير عناد الطالب ويحفزه للعصيان والمشاكسة ويهيئه لكثير من السيئات التي يأباها الفتى المهذب.

التربية اليوم قوامها شخصية تعرف كيف تحترم نفسها، وتبني لذاتيتها وقاراً له قيمته في نظر من تربيهم. فنحن نناقشهم عند كل سيئة يخالطونها ونفلسف لهم في أناة وهدوء كل خطأ يرتكبونه.

نستطيع أن نخلق لهم إحساساً مميزاً يتفهم الأشياء على حقائقها، ويزن الحقائق بمعاييرها، ونهيئهم ليصيخوا للفكرة ونحن نقنعهم بوجوه الرأي فيها في غير عنف من جانبنا أو عناد من جانبهم.

إذا استطعنا تمريسهم على هذا النوع من الحياة لانت قناتهم للتربية وعرفنا كيف نحسن توجيههم.

ومع هذا فلربما استهوتهم هواية حادة ضاعت معها كل أساليبنا من الحكمة، وعندئذٍ فلا غنى لنا عن العصا في صورة عاقلة متزنة لا تثأر لنا أو تذيقهم بأسنا بقدر ما تشذب طفرتهم وتعالج غلطتهم.

مَا كُلُّ غَزَل للغنا

قال صـــاحبي: أراني لا أطرب لكثير من ألوان الشـــعر الذي يغنيه بعض الفنانين عندنا، رغم أنه شعر غزلي رقيق الحاشية يتحدث عن الحب وأحوال المحبين.

قلت: لا أرى أن كلّ أشـعار الغزل صـالحة للغناء. فالشـعر الغنائي لون له سماته الخاصـة وله لغته المألوفة. ولسـت أعني اللغة الشـعبية فمترادفات الفصـحى غنية بالفصيح العذب الذي يجري على ألسنة الناس فيما ألِفوا من شجون الحياة.

لقد كان جرير من أبرع مَن يتغزل ولكنه غزل لا يطاوع الألحان أو يذوب فيها ذوب الغزل الذي يشجيك في شعر عمر بن أبي ربيعة أو عبد الله بن قيس الرقيات.

ربما كان لبيئة الشعر، أو ملابسات الشاعر ما يهيئه للشعر الغنائي ويوحي إليه بالمألوف من عذب الألفاظ ورقيق المعاني التي تنســاب بانســياب الألحان وهذا ما افتقده جرير. فقد عاش بعض حياته في البادية بين الرمال الســـافية، والعيش الشظف. فجاء غزله –حتى الرقيق منه– مذكراً لا يسيل سيلان الغزل في شعر ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات.

وعاش بعض حياته في بغداد وكانت بغداد يومها تعاني من شـــدة الحياة وقســـوة ظروفها ما شـــدها إلى ألوان من الجد لا تتناســـب والحياة الحالمة الرخوة التي تتفتح للفن الغنائي وتذيب فيه شـــاعرها كما كان شـــأن مكة في نفس الفترة التي عاشـــها جرير في بغداد.

لقد مرت بمكة في عهد ابن أبي ربيعة وهو عهد بني أمية فترة عاش المكيّون فيها حياة حالمة ملؤها الطرب والموســـيقى والغناء.. كانوا في هذا العصـــر يقولون إذا عجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سريج في شعر ابن أبي ربيعة.

هذه الحياة الحالمة الطروب تنفست عن شاعر يذوب في بيئته فكان هذا الشعر الغنائي الذي يسلس للمغنّي فلا تدري وأنت تسمعه أهو فن الملحن أم هو ظرف الشاعر.

لا أريد أن أقول لك إن مكة ترفت يومها بفعل الغنى الذي شاع في أوساطها فأنت تعرف أنها ندبت شبابها وشيبها على رأس الفتوحات الإسلامية فعادوا يحملون إليها من الغنائم ما لا يحصيه رقم. وإن خلفاء الإسلام شعروا أن عليهم أن يمدوا لقريش وأقيال مكة في النعيم وأن يغدقوا عليهم من المنح ما يغمرهم ليكسبوهم سياسياً.

لا أريد أن أقول لك هذا فأنت تعلمه ولكني أريدك أن تحقق قصة هذا النعيم، الذي أنساهم جد الحياة وتركهم يعيشون حياة مترفة لا همَّ لهم فيها إلاّ أن يطربوا ويطربوا للغناء، وما يصاحب الغناء من شعر يذوب في الألحان، ويمتزج بها امتزاج الماء بالراح.. بذلك كان الشعر الغنائي الذي لمع فيه شعراؤها لذلك العهد غنياً بالرفيق المعذب الذي يمثل ما يجري على ألسنة الناس من شجون الحياة.

لِئلا نُؤخِّر العَمَل اليَومي

قال صاحبي: قضيت هزيعاً طويلاً من ليلة البارحة وأنا أناقش أولادي أمر الاختبار الذي أظلنا أوانه ليواصلوا جهودهم في مراجعة واجباتهم المدرسية قبل أن تفاجئهم أيامه فلا يجدوا من الوقت ما يتسع للمراجعة والتحصيل.

قلت: أرى أنك أخّرت ما كان يتعيّن تقديمه، فلو تهيأ لك أن تبذل مثل هذه النصائح في وقتها لاستطعت أن تخدم أبناءك أجلّ خدمة يمكن أن تسديها لهم..

وفي رأيي أن وقت مثل هذه النصائح يبدأ ببدء السنة الدراسية ليتهيأ للطالب أن يوزع جهوده على مدار السنة توزيعاً مقدراً لا يكلفه عنتاً ولا يرهقه من أمره عسراً.

لقد قلت في مثل هذه المناسبة قبل اليوم أن مأساة الكثير من طلابنا تتلخص في تأخير أعمال اليوم إلى الغد. فهم يستقبلون عامهم الجديد في توان وتهاون اتكالاً على مآتي أيامهم، وهي في نظرهم أيام طويلة المدى يرون أن في استطاعتهم أن يتداركوا خلالها كل ما فوَّت التواني عليهم من الفرص في صدر العام، فلا يلبثون أن يشعروا بالتواني وقد شرع يأكل عليهم أيامهم فإذا الأسابيع وتنقضي أخذ بعضها برقاب بعض، وإذا العام الدراسي ينتصف أو يزحف منحدراً إلى الشهور الأخيرة من العام وعندئذٍ يستيقظ الطالب ويدرك أنه مطالب بما فوَّت التواني وفرَّط الإهمال فيتكالب على العمل ويدمن السهر فيترك التكالب ويترك الإدمان أثره في طاقته الذهنية فتعجز عن أداء وظيفتها كاملة، وتترك الطالب يشعر بضعفه عن مجاراة المستوى الذي يرشحه للفوز في الامتحان.

وقد يسعفه الحظ فتطبق ذاكرته مؤقتاً على بعض المعلومات التي تتسق وما اختير من مواد لمنهج الامتحان مصادفة فيظفر بأرقام تهيئه للنجاح ولكنه لا يلبث أن

يدرك أن نجاحه كان زائفاً لأن استعداده لما يستقبل في سنته الدراسية المقبلة لم يكن كاملاً في سائر المواد التي يجب أن تبنى على أساسها واجبات العام الجديد.

كما يدرك أن نصيبه من النجاح نصيب ذاكرة خدمتها الصدفة فالتقطت كلاماً استطاعت أن تختزنه ليوم موعود كما يختزن المسجل الآلي ما يسمعه دون أن يختلط بشيء من معناه.

وكفاءة الذاكرة في مثل هذه المَواطن لا تكفي لإعداد الطالب لما يستقبل من مناهج الدروس وإلاّ لكان لآلات التسجيل قيمتها في سائر المناهج.

إن على الطالب أن يتفهم واجباته، ويعي ما يختلط بمعانيها ليتذوّق ما يترتب عليها من معلومات جديدة تتدرج بتدرج سنواته الدراسية، أمّا أن يعتمد على ما تختزن ذاكرته من حروف أو أصوات فذلك أدعى لفشله من عام إلى آخر كلما تقدمت به سنوات الدراسة.

عِنْد الصّباح يحمد الناس السُّرَى

قال صــاحبي: خيّم القلق على أحد معارفي بشــكل يثير الحزن، وقد قيل لي إن القلق كان عاماً في الأسـرة كبارها وصـغارها، ذلك أن وحيدهم سـقط اسمه من بين الناجحين في الاختبار وتكرر رسوبه لعامين متتابعين عاماً بعد آخر.

قلت: أرى أن رسـوب الفتى الناشـئ في امتحانه صـدمة تبادره بها الحياة قبل أن يخرج إليها، وليسـت الحياة إلاّ صـدمات تتوالى غداً بتوالي عيشـه فيها فإذا لم يثبت أمام التجربة الأولى اسـتهانت به الأحداث واسـتبدت برجولته وهزت قواه على الاحتمال.

إذا قيل إنّ الامتحان شـر لا بد منه فيجب أن يُقال إن في هذا الشـر احتكاكاً يعيّن مدى قدرة الشخص على الثبات ويحدد كفاءته على مواجهة الصعاب..

لا بل يصـح أن يُقال إنه درس يمارس فيه الحياة على حقيقتها ويتدرب على منازلتها ويتعلم الصبر على أحداثها. فإذا استطاع أن يثبت نجاحه في قوة الاحتمال فبشره بما تبشر به كل عامل ناجح يجالد الحياة ولا يجزع لقسوة صروفها.

لا أعني بهذا أن ينشأ الفتى لا أبالياً يهمل واجباته ويتراخى عنها ولا يهتم بنجاحه فيها كما لا يهتم كل بليد فاشـل فذلك أسـلوب العاجز الذي لا يحقق ظفراً في الحياة.

وإنما أعني أن يثابر، الفتى على واجباته في دأب متواصـل ويعطيها من عنايته كل ما تستحقه من جهد وما عليه بعد هذا أن يخيب فأله.

عليه أن يقنع نفسه بما ثابر وأن يرضي ضميره بما بذل، وأن لا ينسى مع هذا أن للحياة مفارقات وأن من مفارقاتها ما يذهب بصـبر الحليم، وأنه أمام هذه المفارقات أكبر من أن يجزع أو يتضاءل.

عليه أن يفهم أنه يواجه في غرفة الامتحان أول درس في حياته العامة وأن رسوبه إن رسب يشكل أول صفعة ينالها من الحياة، فإذا وثق من نفسه كرجل لا يبالي الصفعات وأبى إلاّ أن يجعل منها ما يحفزه لاستئناف الجد في غير توانٍ أو تراخٍ فقد هيأ نفسه للكثير الذي يرشحه لعظائم الأمور ويساعده على ركوب الصعاب في سبيل مراميه البعيدة..

إن أكثر قادة الأمم وأصحاب الأثر الخالد فيها مر بهم من تجارب الفشل ما صمدوا لقسوته ولم يتخاذلوا فاستفادوا من صمودهم مراناً حفزهم للنتائج الباهرة التي خلدت آثارهم على مر الأيام.

يا صاحبي.. قل للمحزونين الذين خالفهم الحظ فرسبوا في نتائج الامتحان إن لكل جواد كبوة، فلا تأسوا على ما فاتكم ولا تحزنوا على ما أصابكم واستأنفوا سيركم بأقوى مما فعلتم ولا تيأسوا. فعند الصباح يحمد القوم السرى.

لا نطلق الحريّة ولا نقيدها

قال صـــاحبي: ألا تســـتنكر معي أعمال من ينكر على أولاده الفتيان حريتهم ويأبى إلاّ أن يمارسوا حياتهم الخاصة تحت إشرافه.

قلت: إذا كنت أنكر الكبت وقيد الحريات لما يترتب على ذلك من ردود الفعل التي تعطل حيوية الفتى وتفقده شـخصـيته ككائن له قيمته في الحياة، فإني أنكر في الوقت نفســه إطلاق الحرية إطلاقاً تاماً وأن يترك للفتى حبله على غاربه لا تحده مقاييس ولا يقف دون هواه حاجز.

ما أروع التوسط في مثل هذه الحالات. فلا نكبت فتانا كبتاً يضيق على أنفاسه، ويطعن كرامته، ويضـــرب على طاقاته كإنســـان حيوي ولا نطلقه لهواه في كل ما يشـتهي ففي شـهوات الشـباب مزالق إلى أسـوأ الدركات وليس لسـنه من تجارب الحياة ما يحول دون ترديه في المهاوي وهو إلى هذا ربما اسـتمرأ ما ألِف وتعوّد فنشـأ عبداً لما استمرأ رهيناً بكل ما تعود من مزالق الشباب.

والحرية الواسـعة التي لا يحدها إشـراف تسـتطيع تشـبيهها بحبات السـبحة عندما تســلمك الحبة إلى ما يليها وما يليها تلقائياً ودون كبير عناء، فإذا أنت قد تجاوزت دون أن تشعر آخر حبة في نهايتها.

ونحن اليوم أمام أكثر بلاد أوروبا التي باتت تشـكو الحرية الواسـعة.. تشـكو حبة السبحة التي أسـلمت الشـباب إلى ما يليها، وما يليها حتى تجاوزوا إلى آخر حبة في نهايتها أو كادوا.

كانوا كلما خرج الشباب بتقليعة جديدة قالوا هي الحرية الفردية التي لا يجب أن نتدخل فيما لا يعنينا منها؛ حتى إذا داهموهم فيما يعنيهم وجد العقلاء أنه قد

أسقط في أيديهم ووجد رجال الأمن أنهم أصيبوا حتى في أمن البلاد، وأنهم عاجزون عن إقراره أمام سيول الشباب الحر.

إنهم اليوم أمام شباب مراهق مجنون تستبيح حريته كل شيء.. إنه لا يكتفي اليوم بإرسال شعوره على الكتفين، ولا بتهاديه في ثياب أنثوية، ولا بتخطيه كل حدود اللياقة والأدب في الشوارع والمجامع والمقاهي.

بل تعدى ذلك إلى العبث بكل محتشمة أو محتشم يصادف طريقه، كما تعدى إلى الإخلال بأمن الناس في بيوتهم أو متاجرهم أو مصارفهم.. بدأ أمرهم كتقاليع مازحة، كان التقدميون يضحكون لها ويعتمدونها بدوات للعبث اللاهي، لا يجب أن تكبت حريتهم فيها ولكن هذه الحرية ما لبثت أن تمادت وتمادت حتى عبثت بكل مقومات الأخلاق، واستهانت بكثير من ألوان الإجرام، وبات المهيمنون على أمن الدولة عاجزين عن رد عادياتهم.

ماذا فعلنا لِفلسطين؟

قال صـــاحبي: تناقلت بعض الأخبار أن دويلة العصـــابات في فلســـطين تبني مشـــاريع هامة لها حيويتها في الأرض التي احتلتها، فهل يفهم من هذا أنهم ينوون البقاء في الأرض العربية المحتلة إلى الآن؟؟

قلت: ما دمنا نترك للهيئات الدولية أمر البحث في مصـــير بلادنا المحتلة، فإننا بهذا نقدم لإسرائيل أوفى ضمان لبقائها آمنة فيما احتلت من بلادنا، وتعطيها أوثق أمان لتبني في بحبوحته ما تشاء من مشاريع ومؤسسات.. دون أن يخالجها شك في أنها بنت لنفسها حق البقاء المستمر..

ولو بدا لها أننا جادّون عملياً في استرجاع حقوقنا بأيدينا، وأننا على استعداد لأن نضرب بعرض الحائط جميع الحلول التي تحاولها أية هيئة دولية لا تتفق مع استرجاع حقوقنا لما وجدت من الجرأة ما يشـــجعها على صـــرف الأموال وبذل الجهود في سبيل لا تأمن نهايته ولا تضمن عواقبه.

ولقد جاء أن بعض الأخبار تناقلت أنهم يبنون فيما احتلوا من بلادنا مشـــاريع هامة، والذي أعرفه أن الأمر أبعد من هذا فهم يبنون في جبال الخليل مســـتعمرات وافية لاستقبال مهاجرين جدداً من شـذّاذ الآفاق، ومستعمرات عند بانياس على الحدود السـورية أنشـأوا حولها مزارع بلغت مسـاحتها نحو **150** فداناً زرع أكثرها قمحاً ومدت بين أقســـام المســـتعمرات خطوط الهاتف وأنابيب المياه وأقيمت في حواشيها مراكز عديدة لتربية المواشي.

وعلى بعد أميال من القنيطرة أنشـأوا مسـتعمرة واسـعة وهيأووها لسـكنى عدد كبير من المزارعين وزوّدوها بكل ما يلزم لها من معدات زراعية وأضـــافوا لها عدة

"كراجات" لصيانة المحاريث الآلية وآلات الحصاد وأتوبيسات النقل وعبّدوا لها طريقاً يصلها بأقرب المدن إليها..

وفي سيناء أقاموا مستعمرة وجعلوا منها مركزاً لصيد الأسماك، وتقع المستعمرة في منطقة واسعة تتوسط بين العريش وبورسعيد وزوّدوها بقوارب للصيد وهي اليوم بعد أن تغطي حاجة سكانها من السمك تستطيع تصدير ما قيمته ألف جنيه أسترليني يومياً إلى سوق عسقلان، كما جاء في نشرة رسمية لعسقلان.

إن في مثل هذه التصرفات الجريئة الواسعة ما يؤكد لمتتبعها مبلغ اليقين الذي يعتنقه الصهاينة في بقائهم الأبدي فيما احتلت جيوشهم من أراضينا.

وأحسب أننا بتراخينا وتواكلنا وتشبثنا بما لا يجدي من قرارات دولية بتنا نعطي أعداءنا الدليل تلو الدليل على أننا لسنا جادين فيما نولول أو نشنشن.

إن ما فعلناه إلى اليوم في سبيل فلسطين لا يتفق وما يجب أن يفعله شعب يقدر كرامته ويعرف قيمته بين الشعوب.

فإما أن ننظر إلى واقعنا نظرة جديدة لا تمت بصلة إلى كل ما نظرناه قبل اليوم وإلاّ فهو العفاء على كل ما له علاقة بنا كأمة كان لها مركزها في التاريخ.

تَنَاحُر العرب يعرّضهم لِلمشَاكل

قال صـــاحبي: لا يعلم إلاّ الله مقدار ما عانى العرب على اختلاف أقطارهم في ســبيل الاســتقلال والحرية حتى انتهوا إلى ما ظفروا به في أعقاب الحرب الأخيرة، وباتوا ناعمين بما ملكوا من مقدراتهم وما نالوا من اســتقلالهم فهلاّ يتعيّن عليهم أن يعقدوا خناصرهم في وئام على ما نالوا؟!

قلت: إن أكثر المتناحرين اليوم في أقطار العرب من أصـحاب اليمين والشـمال، كانوا من خيرة المجاهدين في ميادين النضــال الحر، عانوا في ســبيل بلادهم ما لا يحتمله إلاّ حر مجاهد، وقاسوا من أجلها ألواناً من شظف العيش، وتعرّضوا لأصناف من الأهوال لا يعلم مداها إلاّ الله حتى اســتطاعوا أن يثبتوا أحقيتها في الحياة. ويؤيدوا مركزها بين العالم المســتقل ويهيئوها للجلوس في مصــاف أمثالها من الأمم الحية.

كان العرب في حقبة ســالفة من الدهر لا ينعون على أنفســهم شــيئاً كما ينعون جهلهم وتخلفهم عن مواكب الحياة، فما كادوا يملكون مقدراتهم حتى تزاحمت أقطارهم على منابع العلم ينهلون منها، ونشـط المخلصون لتعبيد كافة المسالك في سبيل الظفر بالمكان الذي يليق بشعوبهم ويساعدهم على إعدادها إعداداً له قيمته بين معاصريهم من أمم الأرض.

وفي ســبيل الظفر بتلك المكانة تنادوا بالوئام واســتطاعوا أن يجمعوا شــتاتهم في هيئات اتخذت مكانتها بين هيئات الأمم واستطاعوا أن يرفعوا أصواتهم بين جنباتها، وأن يدللوا على مبلغ حيويتهم وأن يتركوا أثرهم في جميع المحافل التي ترتادها أقوى الأمم وأكثرها جدارة بالحياة.

فهل جد بعد هذا ما أساء إلى كيانهم، وزعزع الثقة في مركزهم الجديد بين مصاف الأمم.

إنه سؤال تلوح في ثناياه علامة استفهام بارزة الخطوط.. وإنه إحراج لا يعرف العربي المخلص لقوميته كيف يتخلص من وخزه المؤلم.

إن أخشى ما أخشاه أننا شرعنا بتناحرنا نعرّض بلادنا من جديد لمشاكل كنا في أشد الغنى عن التعرض لها.. وإننا بتنا منذ الليلة نعود القهقرى إلى مضاجعنا القديمة قبل أن نستيقظ وأصبحنا نشرع معاولنا لتهدم كل ما بذلنا من جهد وتنفض جميع ما بنينا لحرية بلادنا واستقلالها.

شرعنا نحتك بالأقوياء من غير طينتنا ونمتحن إمكانياتنا الجديدة بما لا نستطيع الثبات فيه إذا جد أوان الجد فإذا عصفت بنا العواصف غداً، وإذا اجتثت ما بنيناه لحريتنا واستقلالنا وحرمتنا ما ظفرنا به بعد طول الجهد فالذنب في هذا ليس ذنب الطامعين بقدر ما هو ذنب المتناحرين من بني قومنا في سائر أقطارهم..

فهل يخفف المتناحرون بعض غلوائهم ويعودون إلى ضمائرهم فيما سببوه لنا بما اقترفوا بعنادهم وما عرضونا له بتناحرهم أم هم سادرون فيما أرادوا من شطط؟؟

حتى يسلموا بلادهم إلى أسوأ العواقب وأشدها خطراً على حياة الحرية والاستقلال.

عُلوم الإسلام في آسيَا الوسطى

(1)

قال صــاحبي: كنت في حديث مع حاج من طاشــقند فإذا هو ضــليع في اللغة العربية يتحدث بها في يسر وسهولة كما يتحدث بها ابن جلدتها من أساطين العرب المتعلمين. وبتداعي الحديث والبحث بنا فإذا هو ضليع في الفقه الإسلامي، ضليع في الحديث يبحث في أصولهما وفروعهما بحث المتمكِّن.. فعجبت لهذه الكفاءة من شاب ناشئ في بلد قصيٍّ بعيد عن مَواطن العلوم الإسلامية في بلاد العرب.

قلت: لا أرى في هذا ما يدعو إلى الغرابة. فمن يقرأ تاريخ طاشـــقند ويدرس علاقتها بالإسلام وعناية أهلها في عصور الإسلام الذهبية وما بذلوه في سبيل فتح المعاهد وبناء المدارس وتخريج الفطاحل لا يجد أي غرابة في أن تظل آثار ذلك المجد الأثيل ماثلة في شباب اليوم أو شيوخه من أهالي طاشقند. فقد اعتنقت طاشقند. يوم اعتنقت الإسلام عن قناعة وإيمان، وفتحت صدرها واسعاً لثقافة الإسلام حتى نبغ من رجالها من عاش الإســلام يزهو بكفاءاتهم وإخلاصــهم ويفخر بما بذلوا في سبيل الإسلام.

ولم يقتصر الأمر في هذا على طاشقند وحدها في هذا الجزء من آسيا الوسطى، فتاريخ الإسلام يحدثنا بالكثير من جهود الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي استطاع أن يميل من تركيا إلى ما وراءها من بلاد آسيا الوسطى وأن يرسل دعاته إلى داغســتان وبخارى وتركســتان وأزبكســتان وأذربيجان وما حول ذلك من عواصــم ومدن ودساكر وقرى فأقبل الناس أفواجاً على اعتناق الإسلام.

وانتهت الأخبار إلى عبد الملك بن مروان في دمشق فنشط للعمل على هدايتهم وندب من أســاطين العلماء والمحدثين من يكفل له توطيد شــرائع الإســلام فبنيت

المساجد فيها بشكل واسع عم سائر المدن والقرى وبدأت حلقات العلم في كل مسجد تؤدي دورها بصورة فعّالة.

وجاء سليمان بن عبد الملك فأمر بتدعيم الفكرة فأقبل عشاق المعرفة من كل صوب حتى ملأوا حلقات العلم في جميع المساجد، حتى النائية منها، فعمت اللغة العربية أكثر البلاد المتاخمة حتى فضلها أكثر السكان على لغاتهم الأصلية، فكان المتخاطبون بها يباهون بما حذقوا من مفرداتها.

وجاء العهد العباسي فأحكم الصلة بين بغداد وسائر شعوب تلك المنطقة فشرع المتعلمون يغادرون مناطقهم إلى مكة والمدينة وبغداد ليتزودوا من معارف هذه البلاد ما وسعهم التزود.

كان بعضهم يبقى في موطن هجرته ليفيد كما استفاد، كما أن بعضهم كان لا يلبث أن يعود بما تزود إلى موطنه الأصلي ليساعد على بناء الثقافة الإسلامية ودعم مركزها بين شعوب المنطقة.

عُلوم الإسلام في آسيَا الوسطى

(2)

قال صاحبي: كنا في صدد حديث ثقافة الإسلام في داغستان وبخارى وسائر بلاد التركستان وما حولها فهلا أتممت؟

قلت: إن معاهد العلم ما لبثت أن انتشرت في سائر ربوع تلك البلاد النائية حتى وصفها بعض الرحالين في عصر بني العباس بأنها كانت تضاهي معاهد بغداد والأندلس، وأنهم وجدوا بين حلقات الدروس الدينية في المساجد من فطاحل العلماء من لا تقل كفاءاتهم عن أمثالهم في حلقات مساجد مكة والمدينة والفسطاط وبغداد والشام.

ويذكر بعضهم أن الأمر لم يقتصر يومها على الاختصاص الديني، فقد نبغ بينهم مَن تبحّر في علوم العربية، وأنه نبغ من بينهم أدباء وشعراء كانت لهم ميزتهم في الأدب العربي كما ذكر بعضهم أن معهداً في طاشقند كان يعنى بدراسة الفلسفة والطب العربي، وأن مثله في مدينة بخارى أنجب من الفلكيين والمتفوقين في دراسة علم النجوم وبناء المراصد عدداً لا يستهان به وأنه شهد طلاباً من الشركس يواصلون دراستهم في أكثر من معهد شهدهم في أكثر من بلد من بلاد أواسط آسيا وأن أكثر هؤلاء الشركس لا يتخاطبون إلاّ باللغة العربية كما لو كانوا قد نسوا لغتهم الأصلية وأنه في مروره بمدينة بخارى وجد في معهد لعلوم الفقه والحديث طلبة كان بينهم الصيني والهندي والأفغاني والتبتي والسرخسي والفرغاني، وأن اللغة العربية كانت تجمعهم على لسان واحد. كما شهد وفداً قدم من الصرب يجمع نحو ستين طالباً كانت أعمارهم تتراوح بين العشرين وأقل منها وأكثر وأنه فهم من كبيرهم أنه ينوي توزيعهم على بعض المعاهد الإسلامية. فقد دخل آباؤهم في

الإسلام ورأوا أن يندبوا أولادهم إلى بخارى ليتفرقوا بين معاهدها ويتزودوا من علوم الإسلام ما يصلح أن يكون نواة لبناء معاهد جديدة في بلادهم تُعنى بعلوم الإسلام وتنشر ثقافته بين طلاب المعرفة منهم.

وقد حفظت لنا كتب التأريخ مئات الأسماء اللامعة من أصل تركستاني أو بخاري أو طاشقندي أو سمرقندي كانوا يحتلون مراكز الصدارة في كثير من فروع العلوم الإسلامية. وحسبك أن تعلم أن على رأس من ذكرت عالمين جليلين هما الإمام البخاري والعلاّمة الترمذي.

وممّا يذكره مؤرخو مكة أن من بين الأعلام الذين كانوا يتصدرون للتدريس في المسجد الحرام رجالاً يرجعون بأنسابهم إلى أصول تنحدر من آسيا الوسطى، وأن طلبة من التبت كانوا ملتحقين بمدرسة كانت بجوار باب النبي كانت تدرس الفقه الحنفي.

كل هذه الحقائق تدل على المدى الذي تغلغلت فيه تعاليم الإسلام في ذلك الجزء البعيد من بلاد العرب، كما تدل على مبلغ الروابط التي توثقت بيننا وبينهم في أزهى عصور الإسلام.

متى نستفيد من أسْلوب التعارف بالمراسلة؟

قال صاحبي: ما فكرة تعنى بها أكثر الصحف في البلاد العربية فتفرد لها صفحة خاصة تسميها صفحة التعارف ويتسع التعارف حتى تقرأ بين تلك الصفحات إعلاناً عن زواج يعلن الفتى فيه عن سنه وعن دخله الشهري وعن رغبته في الزواج، وتعلن الفتاة عن شكلها ولونها وقامتها وعن رغبتها في الزواج، وهل ترى أن مثل هذا الزواج المرتجل ينتهي بالمتزوجين إلى خير؟

قلت: أمّا رأيي عن صفحة التعارف كوسيلة للمراسلات بين أقطار العرب أو ما هو أبعد من أقطار العرب ففكرة سليمة صحيحة يجب أن نثني عليها ونشجعها. فالناشئ من أجيالنا في أي بلد عربي يستطيع أن يلمّ بكثير من مقدرات البلاد الأخرى التي يهمه أمرها عن طريق صفحات التعارف، ويستطيع أن يختار أكثر من صديق في أكثر من بلد عن طريق هذه الصفحات لا ليبادلهم التحايا والطيبات فقط، بل ليوسع معلوماته عن حياتهم العامة وأحوالهم الاجتماعية والسياسية. يستطيع الصديق بالمراسلة أن يسأل صديقه في الطرف الآخر عن سائر الشؤون التي يهم المثقف أن يعرفها عن البلاد الأخرى، وأن يكون في الوقت نفسه داعية لبلاده يتحدث عنها لكل أصدقائه بالمراسلة فيعطيهم فكرة عامة عن عمرانها؛ عن تجارتها؛ عن منتوجاتها؛ عن ثقافتها؛ عن مشاريعها الجديدة؛ عن خطواتها في سلم التقدم فتنمو بسبب ذلك معارف الشباب في جميع البلاد التي تتبادل المراسلات عن طريق صفحات التعارف، وفي استطاعتهم إذا أحسنوا التصرف أن يخلقوا لا لأنفسهم وحدهم بل لبلادهم صداقات تنمو من حيث لا يقدِّرون لتكون في أحد الأيام ركيزة قوية إذا ادلهمت الأمور أو نزلت ببلادهم نازلة..

لقد قرأت أن مدينة ما أصابها الزلزال بنكبة فاجعة فبادر أصدقاء الشباب بالمراسلة إلى فتح اكتتاب واسع لإعانة مدينة أصدقائهم فتهيأت لهم مبالغ لا يُستهان بها استطاعوا أن يغيثوا بها المدينة الصديقة.

ما أحلى أن يتوسع شبابنا أو شيوخنا إذا واتاهم النشاط إلى خلق صداقات لا تقتصر على شرق أو غرب، بل تتسع إلى أوسع مدى يستطيعون ليستفيدوا لثقافتهم ويفيدوا بلادهم في أهم مناحيها.

وإذا كان لكل فكرة آفة ففي رأيي أن الزواج بالمراسلة من طريق صفحات التعارف كثيراً ما ينبني على مغالطات يرتكبها المراسلون أو المراسلات ليصلوا إلى غاياتهم المشبوبة.. إنه لا يكفي في رأيي أن يقول الفتى أو تقول الفتاة ما يغري بإنجاز الأمر بينهما، بل لا بد لكل طرف أن يسمع عن الحقائق التي تهمه من المحتكين والمتصلين ممّن يثق في إخلاصهم وإلاّ بنى صرحهما على جبل من ملح.

رجُل الطموح لا يعجزه الوصُول

قال صاحبي وهو في سياق حديث عن قريب له: إنه ليحزنني أمر هذا الفتى، فقد تركه أبوه ومضى إلى رحمة الله في سنته الأولى من الدراسة المتوسطة فاضطر لترك الدراسة وهو يعمل اليوم بما تخوله شهادة الابتدائية من عمل براتب لا يقيم أود عائلته.

قلت: وليس في هذا ما يمنع مواصلته للدراسة أو تنمية معلوماته بأي أسلوب يواتيه، فالطموح الجاد لا يعجزه الدأب في سبيل ما يطمح مهما كانت الظروف ومهما عاكسته الحياة.

وإني لأذكر في هذا الصدد قصة جزّار سويدي كان أبوه يعمل بواباً لإحدى العمارات، فكان لا يجد ما ينفقه على تعليم ابنه لهذا كلفه أن يترك المدرسة عند نهاية المرحلة الابتدائية وأن يلتحق بأي عمل يربح منه، فاشتغل الفتى صبياً عند جزّار، فحذق الصنعة وأصبح جزاراً ممتازاً، واستطاع أن يستقل بعمل خاص به في الجزارة ثم عنَّ له أن يكمل تعليمه في المدارس الليلية فالتحق بها وظل يواظب على الدراسة فيها حتى ظفر بالشهادة الثانوية. فكان أعجوبة بين زملائه الجزّارين. وقد قيل له لو اكتفيت بما ظفرت لتهيأ لك عمل في غير ميدان الجزارة، ولكنه أبى وأصرّ على مواصلة عمله كجزار ليجد الفرصة كافية لمواصلة دراسته، وبذلك استطاع أن يلتحق بالجامعة وأن يواصل دراسته فيها وعندما شعر أن متطلبات العمل في الجزارة تشغله عن مواصلة الدرس باع دكانه وتفرغ للدراسة، ولكنه ما لبث أن وجد نفسه عاجزاً عن مواصلة الدرس لقلّة ذات اليد فبحث حتى استطاع أن يجد عملاً امتهن فيه دفن الموتى وظل على دراسته لا يتوانى.

ونال على أثر هذا شـهادة الطب البيطري من كليته، فلم يقف طموحه عند هذا الحد، بل واصــل عمله في دفن الموتى ليتيح له ذلك مواصــلة الدرس، وبذلك استطاع بين عام وآخر أن يحصل على الدكتوراه بدرجة متفوق.

وبدا له بعد ذلك أن عمله في البيطرة لا يشـبع رغبته في الحياة، فظل على عمله في دفن الموتى والتحق في الوقت نفسـه بكلية الحقوق فثابر على دراسـته فيها حتى نال شهادتها.

ولم يشأ بعد ذلك أن يرتبط بمكتبه الجديد كمحامٍ فقط، فعرض على زميل له من علماء باثولوجيا الحيوان تأســيس معهد لفحص المواد الغذائية فكان لهما ذلك، واستطاعا أن يبتكرا فيه بعض طرق الاختبارات العلمية الهامة لاكتشاف ما في مواد الغذاء من عناصر صالحة للحفظ أو مضادة للحيوية مما لا يسمح باستخدامها عند حفظ الأطعمة، فأدى وزميله بذلك خدمات علمية عظيمة لصــالح رقابة الأطعمة، واستطاعا تحقيق أرباح خيالية كما استطاعا تأكيد شهرة واسعة أصبح المعهد بعدها حديث الأوساط العلمية والطبية في كثير من بلاد أوروبا.

قل يا صــاحبي لقريبك الفتى أنَّ بعيد الآمال واســع الطموح لا يعجزه أن يعمل الكثير والكثير جداً إذا صدق العزم وأكد النية.

عَلَيْنا ألا نتشاءم

(1)

قال صاحبي: ما بال قوم يتشاءمون فلا يرون في ملابسات أمة العرب ما يطمئن على مستقبل يؤكد كيانهم ويمنحهم الفرصة لإثبات وجودهم بين الأمم الحية على وجه الأرض.

قلت: إنهم سلبيون عديمو الثقة بأنفسهم وليس كالسلبية وانعدام الثقة شيء يثبط العزائم ويغري بالتراخي والكسل.

ألم يأتهم نبأ العرب قبل وثبة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وما كانوا يعانونه من جهل وتفرقة في صور لا تبشر بما يحقق أملاً في حياتهم، فما كاد النبي يخطو خطواته حتى قالت الأيام آمين.. فإذا التفرقة تتداعى لتجتمع أطرافها في كتلة واحدة، وإذا غيوم الجهل تنزاح لتسطع الشمس من ورائها وهاجة قوية، وإذا إخوان الصحراء من بدو الخيام وبدو القفار يسيحون في نصف الكرة الأرضية ليملكوا زمامها ويفرضوا مبادئهم وأحكامهم على دولتين من أكبر دول العالم يومها.

ثم أين هم من ماضي هذه الأمم التي تعاصرنا والتي تهيمن اليوم على أكثر قارات الأرض؟ ألم يقرأوا تاريخها يوم كان يسودها الجهل وتحكمها الفوضى ويسيطر عليها الإقطاع والهمجية في أبشع صورها؟

فهل منعها هذا من أن تستيقظ لتجمع شتاتها.. هل منعها هذا من أن ينادي المنادون بين أرباضها ليأخذوا بيدها إلى العمل الجاد المثمر الذي أهلَّها للحياة الصحيحة، ومكّن لها لتسيطر على مقدرات عشرات الأمم وعشراتها وتفرض حتى ترهاتها ومباذلها على أكثر الشعوب التي تعاصرها.

إنها لو منيت في عهود تأخرها وجهلها بمتشـــائمين يفتّون في عضـــدها وينكرون أهليتها للتجمع والتقدم لظلت في مكانها مســـتكينة لجهلها تســـتمرئ النوم، ولما استطاعت أن تخطو خطوة في دروب المجد الذي باتت محسودة عليه.

ألم يأتهم أن العزائم تفعل ما لا يفعله الســـحر؟ وأنه ليس بينك وبين أن تحقق أقصى أمانيك إلاّ أن تثق بنفسك وأن توحي إليها أنك أقوى من أن تُغلب؟.!

لا أرى أي معنى لهذه السـلبية التي مُني بها بعضـنا، ولا أفهم كيف أفسـر تشـاؤم المتشــائمين؟ فلســنا أول أمة تأخر بها الحظ أو عاندتها الأيام. فتأريخ الأرض مفعم بآلاف القصـــص وآلافها تلك التي تحكي أدوار الأمم التي دارت بها الأيام من ضعف إلى قوة، ومن عجز إلى إقدام.

لا.. لا يا صـــديقي ليس لنا أن نتشـــاءم وقد بدأنا نشـــق الطريق، وبدأ روّادنا يرسمون الخطط، وبدأ وعينا يستوحى من معاني الحياة على حقيقتها.. إننا يا صديقي سائرون.

عَلَيْنا ألاّ نتشاءم

(2)

قال صاحبي: وكنا في صدد المتشائمين الذين يجهلون معاني الثقة بالنفس، وهم يحسبون أن لا أمل في نجاح أمة العرب وهم في غمرة هذا الشتات وهذه اللاأبالية المقيتة.

قلت له لا أرى أن نذهب بعيداً في مثل هذه المعاني، فنحن اليوم على أبواب محاولات لا يُستهان بفاعليتها.

لا أرى معنى لليأس. فالحياة دول يصعد في مدارجها المتفائلون ويتثاقل السلبيون واللاأباليون فيستمرئون حضيضها ويستنيمون لطراوتها.

لا يجب أن نتصور الحياة كالحة لا ينفذ إليها ضوء. ففي هذا ما يثبط العزائم وتفتر له الهمم. فالرجل الرجل لا يعترف بعجز ولا يعرف في الحياة مستحيلاً. وليست الأمة إلاّ مجموعة أفراد تتضافر عزائمها على العمل في سبيل النهوض وتمشي في مواكبها مشية المعتز بنفسه الواثق من كفاءته وقدرته على مجابهة الحياة.

كلنا يعرف قصة أمة تعاصرنا اليوم في آسيا، وأخرى تعاصرنا في أوروبا خرجتا من حرب طاحنة منهوكة القوى لم يترك الدمار في مدنها وعواصمها إلاّ آثار أطلال ترسم للمشاهد في أول وهلة أبلغ معاني التدهور فلم يفت ذلك في عزائم رجالها؛ لأن لهم من الثقة بأنفسهم ما يجل عن الوصف.

لقد نادى مناديهم حيَّ على العمل فلم يأنوا ولم يستكينوا بل تواثبوا من كل صوب مصممين فما هي إلاّ خطوات وخطوات حتى تبدلت الأرض غير الأرض فانشقت الميادين عن عمران لا يُضاهى ومؤسسات لا تُجارى ومصانع تضج لهول آلاتها آفاقهم على سعتها.

لم يكن بينهم يائسون يفتّون في عضد المنادين ولم يكن بينهم سلبيون يرجفون بما لا يفهمون.

كانت شعوباً واقعية لها فهمها الناضج وعزمها الصامد.. كانت فاهمة مركزها في جلاء واضح عارفة لكل ما يتعين عليها لتستأنف مسيرتها فنشطت لما فهمت وآلت أن تحقق لبلادها ما عرفت.

فما علينا لنحقق لبلادنا ما يتعين علينا تحقيقه إلاّ أن نصرف عن أذهاننا أراجيف اليائسين، وألاّ نبدد ثمين أوقاتنا في تصوير الحياة حالكة قاتمة لا ينفذ إليها الضوء لينير آلام المتوجعين ونستبكي عيون الحائرين ونحيا حياة البكّائين الذين لا يحسنون إلاّ العويل والندب.

علينا ألاّ نترك عدوى اليأس والبكاء تتسرب إلى صفوف شبابنا الجديد فتعطل مواهبه وتثبط من عزمه الذي بتنا نبيط آمالنا به ونعقد عليه أمانينا فالشباب عدة الحياة اليوم إذا تراخى تراخت الآمال المعقودة بناصيته فضاعت أمانينا وخاب لنا كل سعي.

إن بلادنا لا تستنكف أن تسلم مقاليد نهضتنا إلى شبابها المتوثب إذا أثبت جدارته بها، وإلى أن يصم أذنه عن كل متشائم يهرف بما لا يعرف وأن يدلل في ذات الوقت على واقعيته وكفاءته وقدرته على وزن الأمور.

مَظاهر السّرف في مُناسبَاتنا

(1)

قال صـــاحبي: ليتك كنت معي في حفل البارحة لترى العجب الذي نســـتغربه! قلت وما ذاك؟

قال نزل بعين من أعيان جيراننا ضيوف لا يزيد عددهم عن ثلاثة. أراد أن يحتفي بمقدمهم فأولم لهم ودعا بعض أقاربه ومعارفه إلى ما أولم. إلى هنا والأمر جد عادي. ولكن الشـــيء الذي يلفت النظر أن ذبائح الوليمة، وإن كنت لا أعرف عددها، ولكني أعرف أن صـحاف اللحم الكبيرة ظلت بعد نهاية الأكل كما لو كانت لم تمد إليها يد ضـــيف لكثرتها كما أن أطباق الفاكهة ظلت على حالها كأنها لا تجد من تناديه لأكلها.. ليتك كنت معي لتعجب لمبالغاتنا وتأسى لهذا الصرف المقيت.

قلت: إنها سمات البادية لا تنفك تلازمنا في أكثر مرافق حياتنا حتى نتفهم الحياة على حقيقتها، ونعرف قيمة الأشياء في جواهرها بعيدة عن قشورها.

إن شأننا اليوم في أكثر ولائمنا واحتفالاتنا يعبر أبلغ تعبير عن مدى ما نتكلفه في ســـائر مظاهرنا الاجتماعية، وليس بيننا وبين أن نقتصـــد فيما نتكلف إلاّ أن نرتفع بأذواقنا إلى مصاف الإنسان الراقي الذي يعرف كيف يعبر عن اهتمامه بأية مناسبة سعيدة بأسلوب لا يتكلّف في سبيله بعض الإرهاق والنصب الذي نتكلفه.

إن في اســـتطاعة صـــاحب الذوق الرفيع أن يقدّر ضـــيفه بإيناســـه وإبداء ولائه وشعوره الطيب أكثر مما يقدره بالسرف المقيت المتكلف.

وأنت ترى أن الأمر بيننا لا يقتصـــر على مثل هذا الحفل الذي نتكلفه لنســـتقبل به ضيفاً عزيزاً، بل هي خلة شائعة في أكثر مرافقنا الحياتية ومناسباتنا الاجتماعية.

فحفلات العرس عندنا مظهر صـــارخ من مظاهر الســـرف الذي لا يقره عقل، وإذا راق لبعضـــهم أن يعلّله باقتناص فرص الأفراح فما رأيك في اقتناص فرص الأتراح لنبالغ في ضـــجتها فنتكلف من المظاهر ما لا يليق بقوم أصـــيبوا في عزيز لديهم وباتوا باكين.

ألا ترى أننا ننســـى ترحنا وننســـى بكاءنا في ســـبيل عادات وتقاليد لا مبرر لها فنستقبل المعزين بولائم لا حدود لها كما لو كان لا يشغلنا شاغل الموت والحزن عن الإعداد لما يجب للعرف المقيت في ضجة لا تختلف كثيراً عن ضجة الزواج والأفراح والليالي الملاح.

إنه حب الظهور المتكلف ينســـينا كثيراً من قواعد اللياقة ويأخذ بنواصـــينا إلى توجيهات نسميها عرفاً دون أن نستوحي عقولنا فيما أقدمنا.

قد يُقال إنها لون من الصـدقة وننسى أن للصـدقة ألف سبيل إلاّ هذا السبيل.. ذلك إن أردناها صـدقة بمعناها الصـادق واسـتطعنا أن نخلص النية فيما نتصـدق. نستطيع أن نجعل ولائمنا من مثل هذا النوع وقفاً على المساكين والمحتاجين أو نقدم ثمن ما أســـرفنا نقوداً نمنحها أيتامنا وأراملنا وضـــعفاءنا ومن نحســـبهم أغنياء من التعفف، نقدمها لهم منحاً مســـتورة في بيوتهم، فذلك أجزل مثوبة مما نقدم لوجهائنا وأغنيائنا على موائد هم أغنى الناس عنها.

مَظاهر السّرف في مُناسبَاتنا

(2)

قلت لصاحبي: وكنا في صدد ما نتكلفه في سائر مظاهرنا الاجتماعية من سرف لا يقره منطق مما شاهد لتقاليد معينة لا يقول بها عاقل.

قلت له: إن مأساة المآسي نرى أثرها اليوم كعقبة كؤود أمام مستقبل شبابنا فالشاب الذي يرجو أن يكمل لنفسه نصف دينه تأبى هذه التقاليد إلاّ أن تقف دونه وما يرجو.

فقد بالغت التقاليد في تقييم الصداق المفروض حتى ضاعفت أرقامه بشكل مخيف.. وتسأل من أين للشاب وهو في خطواته الأولى من الحياة بمثل هذا المبلغ الفخم؟ ومن أين لنا أن نضمن كفاءة أبيه أو وليه لتقديم مثله.

وإذا افترضنا أنه أو وليه بذل المستحيل في سبيل جمعه فهل انتهى به الأمر عند هذا الحد، أم أنه مطالب إلى جانبه بعشرات الواجبات كلها نصب وكلها إرهاق وكلها لا تقوم إلاّ على ركيزة واسعة من المال.

تسأل كل هذه الأسئلة فلا تجد مَن يجيبك عليها إلاّ من يقول على الشاب أن يؤجل أمره إلى ميسرة.

وتسأل أثمة من يضمن نتائج هذا التأجيل ونحن نعلم ما يحف به من أخطار وما يحدق به من مآسٍ كما نعلم مبلغ ما يسيء مثل هذا التأجيل إلى فتياتنا في خدورهن؟

تسأل فلا تجد من يقنعك لأن جمهرة من تسألهم يألمون كما تألم، ويحزنون كما تحزن، ويأسفون كما تأسف لعجزهم عن علاج الأمر وتطبيبه.

إذاً فأين الحل؟

لا أحسب ثمة حلاً إلاّ عند الوعي العام إذا تفتق عن مفاهيم ذكية تعرف كيف تقدر الأمور في ضوء الواقع الصحيح. حدثني صديق فقال تقدم إلى فتاتي مَن يطلب يدها فلما وثقت من كفاءته ورضيت دينه وعقله أعلنته موافقتي، فتقدم إليَّ بالصداق فرجعت به إليه قبل أن أحصي عدده وقلت هو مني إليك لتقيم به أود بيتك وما يلزم لقرانك وزفافك، ثم أضفت إليه ما استطعت منحه من جيبي، فما زاد أن عقد قِرانه في ليلة واحدة تسلّم في صباحها زوجه ليبني بها كيفما شاءت وشاء.

هو ذا أسلوب العاقل الذي يعرف منتهى آمال الفتاة أن يبني بها في بيتها، وأن ما دون ذلك من مظاهر لا تزيد عن كونها ثانويات لا تقدم ولا تؤخّر.

ولكن إذا قنع الأب بمثل هذا الأسلوب هل تقنع الأم والأخت والجدة بما رآه؟!

أحسب أن أهم مآسينا تنبت في هذه الزاوية، ولكن أملنا وطيد في مدارس البنات الجديدة التي نرجو أن تهيئ لنا أمهات نفخر بوعيهن وثقافتهن وكمال تقديرهن لحقائق الأمور.

مفَاهيم الرُّجولة

قال صاحبي: ألا تعجب لفلان وقد عاد إلينا يحمل شهادة عالية ترشحه للعمل الوظيفي في مرتبة جد عالية؟ ومع هذا أبى إلاّ أن يشغل نفسه بأعمال حرة، ولكنها في رأيي لا أحسب أنها تقيم أود شاب متطلّع يحلم بحياة تضاهي حياة أترابه من شباب العصر.

قلت: وماذا تعني بشباب العصر؟ أهو الشباب المترف الذي تدلج سيارته به إلى مكتبه الوثير ليقضي فيه ضحوة النهار، ثم يستأنف عودته ليسترخي أو يقرأ أحدث ما أنتجته دور القصة، حتى إذا أمسى هرع إلى سيارته يمتطيها إلى الأصيل الجميل بين المزارع وقد جللتها أشعة الشمس بلونها الذهبي، أو مهابط الوهاد وقد سالت على شطآنها جداول صافية من بقايا السيول، حتى إذا غابت الشمس وراء أفقها البعيد أستأنف عودته ليقضي سمره بين لداته بين لهو الحديث أو حديث اللهو!

لا تحسبني أعني كل شبابنا بهذا العبث المترف، فبيننا شباب يعرف واجبه للحياة وفروضه لبلاده، ولكنهم أقلية لا تكفي سواعدهم لبناء المجد الذي نحلم به لبلادنا.

أمّا فلان الذي تشير إليه وتنعى عليه عصاميته التي هيأته ليترك سبيله المعبد إلى الكرسي الوثير ليخوض مجال العمل الجد فتلك أصالة نتمناها لسائر شبابنا من أصحاب الشهادات العالية.

إن بلادنا لم تنفق على هذا العدد الهائل من أصحاب الشهادات هذا الإنفاق العريض ليملأوا كراسي الوظيفة فقط ويتمتعوا بدخلها الواسع.

لا.. فهي تنتظر منهم إلى جانب هذا أن تظفر بالمهندس الذي يبني المصنع، والميكانيكي الذي يصهر الحديد، والجيولوجي الذي يمسح الجبال، والفيزيائي الذي يتفرغ للمختبر، والكيميائي الذي يحيا لبحوثه وتجاربه، والطبيب الذي يهب نفسه

لبناء المصحات والمستوصفات في أقاصي القرى وبين أكتاف الجبال والبحاثة الذي لا يستأنف ركوب الحمير إلى أوعر الطرق بحثاً عن آثارنا المطمورة، والأديب الذي يجرد قلمه لدراسة مقدراتنا من كافة نواحيها ليستثير الهمم ويوقظ ما عفا من ضمائرنا.

أعرف شاباً عجز عن مواصلة دراسته الجامعية، فاندفع تحت تأثير بأسه ليتصل بمصنع أوروبي لصهر المطاط ويحيله إلى آلاف الأجهزة والأدوات المنزلية. فرابط تحت إدارة المهندسين في ثبات وجلد حتى إذا حذق مهارتهم شد رحاله إلينا، وما لبث أن اتصل ببعض المموّلين فأقنعهم ليبنوا مصنعاً يشرف اليوم على إدارته عملياً فينتج عشرات الأجهزة وعشراتها في صورة غطت الأسواق المحلية وأغنتها عن الاستيراد، وحققت أرباحاً للمموّلين كما درت عليهم كسباً تحسده عليه رواتب الكراسي في أحسن المراتب.

إلاّ أنه درس له ثمنه الغالي.. ما أحوج شبابنا إلى أن يستوحي مفاهيم الرجولة ومعانيها.

ليسَ لنا أن نتحَدّى الحياة أو نتعمّق

قال صـاحبي: ألا ترى أن من السعادة أن أعيش الحياة تلقائياً كما اتفق دون أن أعني نفسي باستقصاء مشاكل الحياة آلامها وشرورها فشلها أو نجاحها وأن أحيا بعيداً عن كل ما يقلق من هموم العيش؟!

قلت: إنها فكرة الشاعر العربي قبل مئات السنين لا أحسبه أراد أن يقرها بقدر ما أراد أن يسخر بأصحاب الجهالة من قومه عندما قال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

قد لا أنكر أن التعقّل المفرط في كل ما يصادفك من أحداث الحياة وأن الإمعان في مراقبة كل ما يمر بك من مفارقات العيش كثيراً ما يرهق النفس وربما أشـقاها وعكر الكثير من صـفائها وتركها لا تنعم بعيش ولا تسـرها فيه بادرة. فهو قلق متوتر يأبى إلاّ أن يتكلّف لدراسـة كل حالة فتتناقض أمام تكلفه أكثر المفاهيم، فيضطرب ويحتار ليؤرقه الاضطراب وتشقيه الحيرة.

لست أعني بهذا أن يعيش الإنسان حياته "سبهللا" دون أن يصحح فيها طريقه ويتبين دربه ويعرف علاقته بكل ما يصـادفه من مفاهيم الحياة ليميز ما فيها من صواب أو خطأ.

أقول لست أعني بهذا أن يستغني الإنسان عن ملكة العقل التي وُهِبها فممارسة العقل تنشـيط لملكاته. وليس كنشـاط العقل لذة ينعم بها رجل الفكر وعاشـق البحث.

لقد ضـلّ الوجوديون عندما حسـبوا العقل مجلبة نكد وتعاسـة. فقالوا إن من يراقب الحياة ويتمعّن أمورها ويتابع مفارقاتها بعناية المدقق الذي يفلسـف مجرياتها

فقد صـــرف نفســـه عن الحياة التي يجب أن يعيشـــها تلقائياً لينعم بأجمل ما فيها.. وتمادت بعض مذاهبهم في هذه التلقائية ليسمّوها بساطة فيحلوا عقالهم تحت شعار هذه البسـاطة ليعيشـوا كما شـاء لهم الهوى، ويتركوا غرائزهم تملي عليهم ألا تغمطوا حظكم في دنياكم ولا تتقيدوا بأوضاع بثتها الأجيال في طريقكم لتحد من سعادتكم وتنسيكم ذاتيتكم.. عليكم أن تنطلقوا وأن تنعموا بالحياة كما خلقت.

إنها حيوانية الحيوان "الداثر" لا حرج على ما يفعل! فهو مفقود الوعي مسـلوب الفهم وليس لهم أن يسـموه سـعيداً بما يفعل في انطلاقته. فالسـعادة أن تشـعر بأنك سـعيد أما أن تسـعد وأنت لا تدري وتسـعد وأنت لا تحس فليس في هذا أي معنى لسعادتك.

لك أن تقول إننا لم نخلق في الحياة لنتحدى جميع مفارقاتها نســـتغرق ونتعمق ونرهق ملكاتنا بالأفكار المضـنية في أسـلوب مربك نحيا به قلقين مضـطربين ولكن ليس معنى هذا أن نلغي عقولنا لننسى حقائق ما نعيش وننطلق كالسائمة لا تردعها إلاّ القوة ومَن يقف في وجهها بالعصا.

بحُوثُ الفَضَاء لا تقتصر على خِدمة الفضاء

قال صاحبي: ثمة فكرة لا تعجبني فلسفتها، تلك قصة أبحاث الفضاء التي باتت تستنزف مئات الملايين ليُقال إنهم وصلوا إلى القمر، تُرى ما هي النتائج العملية التي ترتبت على هذا الاستنزاف العريض؟ وما هي المكاسب الصحيحة إذا قيست بالمكاسب التي تظفر الإنسانية بها لو توفرت كل هذه الملايين لسد عوز المحتاجين والجائعين على وجه الأرض؟

قلت: إن الأمر في رأيي أبعد غوراً ممّا نرى.

هنا شيء اسمه التفوّق.. ولولا ميل الإنسان بغريزته إلى حب التفوق لما كانت حضارات، ولما تفاعلت مدنيات لتنتج سائر المبتكرات التي نتمتع اليوم بأفانينها في كل ضرب من ضروب الحياة.. إذن لعشت اليوم سطحياً بدائياً تستظل بأدواح الغاب، وتستر سوأتك بما يتناثر من أوراقها، وتعيش بصورة عامة في أسلوب لا يختلف عن أساليب عاشها أول إنسان دب على الأرض.

على أن الأمر في بحوث الفضاء لم يقتصر على ما ربح في حلبة التفوق فهم يهيئون هذه البحوث لخدمة المواصلات بشكل واسع الآفاق وهم يهيئونه لخدمة التلفزة في شتّى ألوانها، ويتّكلون عليه في تتبع سائر الحركات الاستراتيجية التي تعنيهم بالنسبة لعلاقاتهم بدول أخرى.

وتتناقل اليوم بعض الأخبار العلمية تفصيلات دقيقة تقول إنها ستدفع بالإنسان إلى ابتكار وسائل حديثة ستحقق كثيراً من القيم التي ستكون لها أحكامها في التقنين الجيولوجي.

وممّا يذكر في هذا الصدد أن مركباً فضائياً واحداً قد يدخل في تركيبه أكثر من خمسة ملايين قطعة وأن بعض هذه القطع التي اهتدت إليها بحوث الفضاء سوف

يمكن استغلالها في مجالات حيوية لخدمة الإنسان. فهم يذكرون في مجال الطب مثلاً أن نظارة خاصة جهزت لملاحي الفضاء في استطاعتها أن تساعد في توجيه مقعد متحرك يستخدمه إنسان مشلول الأطراف، وأن جهاز التمركز الطردي في أي مركبة فضائية يمكن استخدامه لنقل رصاصة أصيب بها جريح في أي موضع دقيق من جسمه بصورة عاش الطب إلى اليوم الحاضر عاجزاً عن نقلها.

كما ذكروا أن مادة بلاستيكية مغطاة بالألمنيوم تعمل اليوم في مراكب الفضاء بمثابة عازل نادر المثال في قوته ويمكن استخدامه في مجالات علمية لم تطرق إلى اليوم.

لا عجب إذا ادّعت اليوم بحوث الفضاء أن خدمتها سوف لا تقتصر على مجالات الفضاء، وأنها ستخدم حاجة الإنسان على الأرض في آفاق لا يحصى عددها.

الليث بن سَعد

(1)

قال صاحبي يحدّثني عن ثري إيطالي أوقف ثراه على مساعدة العلم والعلماء وأنه عاش ينفق على نفر من طلاب الجامعات بصورة سخية هيأتهم لأفضل المراكز.

قلت: إن في هذا ما يذكّرني بعشرات وعشرات من أصحاب الثراء في تاريخ الإسلام عاشوا يبذلون أموالهم في خدمة العلم وطلاب العلم.

ويحضرني اليوم من هذا القبيل قصة الليث بن سعد، وليس مَن يجهل الليث بن سعد علماً وفضلاً وثراءً واسعاً. فقد كان دخله السنوي يقدر بمئات الألوف، ومع هذا فقد قِيل إن الزكاة ما وجبت عليه قط، ذلك لأنه ما حال حول وفي خزانته ما يبلغ نصاب الزكاة!!

كانت منزلته العلمية قلَّ أن تُقارن، وكانت شهرته في علوم الحديث والفقه قلّ أن تُجارى حتى لقد قارنه بعض عارفي كفاءته ببعض أئمة المذاهب الأربعة، وميّزه بعضهم على بعض من ذكرت وشهد له جمهرة من الفقهاء والمحدّثين بعلو كعبه وميزاته على أكثر من نبغ في عصره من فطاحل الأئمة في القرن الهجري الثاني.

وهو مع هذا بالغ الفطنة لامع الذكاء. ذكروا أن الرشيد غضب من زبيدة مرة وهي تناقش بعض تصرفاته فقال لها أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم بدا له أنه قد تسرّع فعرض الأمر على أشهر علماء بغداد فلم يجد مَن يفتيه، إلى أن قِيل له إن الليث بن سعد يزور بغداد من أيام فلو أرسلت إليه فأمر بحضوره وقص عليه ما حدث.

فقال للخليفة: لي سؤال لا تجبني عليه إلاّ إذا حلفت بصحة ما تجيب.

فكبر على بعض الجالسين أن يستحلف الخليفة بمثل هذه الجرأة الغريبة، وظهرت على ملامح الخليفة بعض آثار الغضب.

ولكنَّ الليث أبى إلاّ يحلف الخليفة ليفتيه أو ينفض يده من الأمر فلم يســـع الخليفة إلاّ أن يجيبه إلى ما طلب.

فقال الليث: ألست تخشى الله؟.

قال: نعم.

قال عليك أن تقسم بالله على ما قلت.

فحلف الخليفة يميناً مؤكدة أنه يخشى الله.

قال: إذاً فلك جنَّتان لا جنة واحدة، بدليل قوله تعالى(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) الرحمن: 46.

وإذاً لا طلاق فيما قلت! فهتف به الخليفة أنت أعلم مَن رأيت، وأمر له بمال بالغ الرواة في تقديره، ولكن صـــدى القصـــة كان لها دويها الهائل في محافل بغداد العلمية إلى زمن طويل.

الليث بن سَعد

(2)

لقد كان المقرر في حديث سـابق أن نأتي على بعض ما يُروى عن كرم فقيهنا المحدّث الليث بن سعد ولكن شهرته في الفقه ساقتنا إلى رواية بعض ما اشتهر من كفاءته العلمية ونستطيع اليوم أن نلمّ ببعض ما رُوى عن سخاء يده وبرّه بالمحتاجين وطلاب العلم من الفقراء.

لقد ترجم له أكثر من مؤلف، ويكاد يجمع أكثرهم أنه كان واسـع الغنى، وأنه ورث عن أبيه ثراءً طائلاً، وأنه إلى هذا كان يشـارك في أكثر من تجارة يفوّض فيها وكلاءه أو شركاءه ليتفرغ لطلب العلم، وأنه كان كثير الأسفار في سبيل العلم وأنه ركب إلى الحجاز أكثر من مرة ليأخذ من كبار التابعين في مكة والمدينة، وأنه كان يصـطحب نفراً من تلاميذه في كثير من رحلاته ليفيدهم ممّا يتعلم ويسـتفيد من كتابتهم في مساعدته على تسجيل ما يهمه تسجيله من فرائد العلم.

وأنه عندما ألقى عصاه في بلده مصر ازدحم عليه طلاب المعرفة فكان يعطيهم أكثر وقته ويفرد للفقراء منهم مجالس خاصة في داره.

ولمّا ضاقت داره بالفقراء من طلاب المعرفة أمر وكيله أن يبني لهم بيتاً واسعاً كبيراً كثير الغرف من نوع ما نسـميه اليوم –رباطاً– وأن تجري عليهم نفقات تكفيهم مؤونة البحث عن طلب العيش ليتفرغوا لطلب العلم، وأن بعض القاصين عن بلده كان يبلغهم ما يبذله في سـبيل العلم فيكتبون إليه أنهم لا يجدون ما ينقلهم إليه، فيأمر بنقلهم وأن يزودوا بكافة مطالبهم إلى أن يبلغوا مأمنهم عنده وربما بدا له أنهم يعولون بعض أهليهم فيأمر بمساعدتهم شـهرياً فإذا بلغوا مأمنهم عنده، أمر بتأمين

مساكن تكفيهم، فإذا ضاق ما بنى من مساكن أمر باستئجار ما يكفي لسكناهم وكلّف المختصين بدفع الأجور وأن يرتب ما يكفي لنفقتهم.

وكان يلاحظ أن مستوى بعض الطلبة لا يؤهلهم للدراسة في مجالسه، فيأمر بإحالتهم إلى مَن يتكفّل بتدريسهم فيتطوع بعض كبار تلامذته بتدريسهم. ولكنَّ شيخنا الليث يأبى إلاّ أن يدفع أجور التعليم، وبذلك كانت تزدوج فوائد كبار الطلبة في بيته فيعيشون على نفقته وينهلون بالمجان من مناهل علمه ويتقاضون أجوراً إضافية لقاء عنايتهم بتعليم صغار الطلبة في بيته.

فلا عجب إذا عاش الرجل رغم غناه العريض ومكاسبه الهائلة لا يجد في خزائنه إذا حال الحول ما تجب فيه زكاة.

هذا عدا ما اشتهر به من مساعدة العلماء. فقد كان يفرض للمحتاجين منهم رواتب دائمة، وكان بعض المعسرين منهم يكتب إليه إذا أثقلته الديون فيأمر بسدادها.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

في سَبيل قضيّتنا

قال صاحبي: ألا ترى أننا أخطأنا الطريق بالأمس ونحن نعالج قضيتنا مع العدو الغاصب في فلسطين؟

قلت: لا ينكر هذا إلاّ مكابر. فقد عشنا مع قضيتنا غير موضوعيين، عشنا نتقد حماساً، ننذر بالويل ونتوعد بالثبور بينما عاش أعداؤنا يبكون ويستبكون ويسجلون علينا خطب الحماس وعبارات الوعيد في براعة لا تتوفر إلاّ لدهاة يعرفون كيف تؤكل الكتف.

عشنا لا نركّز على الجهود الشعبية بقدر ما نضللها ونُعمّي عليها ونزوغ عن الحقائق عندما نواجهها.

عشنا ندّعي إفلاس أعدائنا وجوعهم وما يكابدون من أزمات اقتصادية وسياسية وعسكرية ونحن نعلم باطل ما ندّعي كما نعلم أنهم يجندون من سائر طاقاتهم البشرية والآلية والعقلية والدبلوماسية ما تكشفت حقائقه الأليمة بأفظع ما كنا نتخيل.

تُرى هل يعني هذا أننا فهمنا مبلغ أخطائنا فيما سلف منا؟ وهل استطعنا أن نهضم بوعي كل هذه الدروس التي امتحنا بها؟ وهل تبين لنا أننا كنا في أحد الأيام مخدوعين بمن يدّعي صداقتنا؟ ويستغل سذاجتنا ليوجهها كما يشاء ويحقق لنفسه منها ما يخدم مصالحه ويلوّن خارطته بالصورة التي ترسمها سياسته.

إننا في سبيل أن نتابع ما يزيف علينا لمصالحه خسرنا الرأي العام في أكثر بلاد العالم، وارتبك علينا عرض قضايانا بالأسلوب الواضح الذي يقرر الحقائق ويتركها تنطق بحقوقنا في لغة سليمة مؤثرة تضمن إضاءة الطريق أمام كل مستفيد.

قال لي شـــاب عاد حديثاً من بلاد حرة إننا كنا نتوارى عن وجوه القوم في ذلك البلد على أثر حوادث النكبة المريعة، ذلك لأن العدو الماكر اســـتطاع أن يوطّئ لعدوانه بأســلوب بارع ضــلل به على كل مســتفيد، واســتطاع أن يظهرنا بمظهر الطغاة، وأن يذيع كل ما سجّله علينا مما كنا نتبجح به في عتوٍ ليبكي ألماً ويستبكي كل مَن يرجو عطفه ويؤمل رفده.

إن كســـب الرأي العام في أهم بلاد العالم من أهم النقاط التي يجب أن نرتكز عليها في تحقيق قضيتنا، ولا يكفي فيما أرى أن نكون أصحاب حق عادل ونحن لا نحسن تصوير وتجنيد الرأي العام لمشايعتنا.

عسـانا اليوم نقتنع بسـوء ما فعلنا ونثيرها من جديد جذعة تنير طريقها المشـاعل الوهاجة التي تبصر العالم بأحقيتنا فيما نفعل.

ماذا يُريدُون بنا؟

(1)

قال صاحبي: ألا ترى أن ما حدث أخيراً في فلسطين كان في صالح بعض دول الغرب مثلما كان في صالح إسرائيل؟

قلت: هو ذاك على ألا تنسى أن المستفيد في الدرجة الأولى قبل الدول التي تعنيها في الغرب بل وقبل إسرائيل نفسها هم الروس.

ولا أحسبك تسألني؟ فأنت تعلم أن ما قيل عن عزم إسرائيل مهاجمة سوريا كان خبراً مصدره موسكو.

وهو الخبر الذي أثار مصر، ودفعها لتعلن فجأة إغلاق المضائق وتفتيش السفن التي تمر بقناة السويس تحاشياً أن تنقل ما تنقله لإسرائيل وأن تطلب سحب قوات الأمم المتحدة من الحدود الفاصلة، وأن تأمر جيشها بعبور قناة السويس في طريقه إلى إسرائيل.

ولست تجهل أن روسيا أيدت كل هذه الخطوات سلفاً إن لم تكن قد أشارت بها.

ولا تشير روسيا بهذه الخطوات أو تؤيدها، بل ولا تهيئ الجو لها بالخبر الذي أشاعته إلاّ لتخدم مصالح خاصة بها.

فهي تريد قبل كل شيء أن تكشف دول الغرب أكثر ممّا كانوا مكشوفين لأمة العرب وتضع عيونهم على مبلغ العطف الذي تتمتع به إسرائيل وكأنها بهذا تريد أن تقول ليس لكم إذا جد الجد غيري.

وهي بالتالي إذا انتصر العرب سيكون لسلاحها ومعداتها فضل لا تؤمل أن ينساه العرب لها، وستجد دعايتها الشيوعية منفذاً قوياً إلى صفوف كثير من العرب الذين عاشوا يستاؤون من أية علاقة تربطهم بها.

كما أنها خطوة مضـــمونة ســـوف تقصـــي فريقاً كبيراً ممن يحتفلون في بلاد العرب بصداقة الغربيين وتقضي على جزء هام من علاقاتهم بهم.

وهي إذا هزم العرب استطاعت أن تمكن لعلاقتها بهم، وأن تؤكد لهم أنها ملاذهم الوحيد، وأنها بما تكن لهم من حب ستعوّض خسارة الخاسرين وتهيئ له من جديد ما يضمن لهم استئناف الكرّة ومعاودة القتال.

أنا لا أقول إن مَن يدّعي صـــداقتنا بين دول الغرب يخلصـــون لنا إخلاصـــهم لإسرائيل أو يؤيدون قضايانا العادلة ضد قضايا إسرائيل الباطلة.

لا أقول هذا ولكني أقول إن التجاء العرب بروســـيا بعد أن ادلهمت أمورهم سيكون له خطره الذي لا يُقاس بأي خطر تجرع العرب مرارته قبل اليوم.

فروســـيا التي خططت لتجر العرب إلى ما جرّتهم إليه لا تنوي بكل ما فعلت إلاّ خدمة مصالحها.

فليتنا نكتفي بما جرّبنا ولا نغذ الســير قبل أن نتبصــر مواقع أقدامنا، وأن نقف حيث وقفنا دون أن نعتمد إلاّ على ســواعدنا وإلاّ أســلمنا عواقبنا لأســوأ ما نعاني اليوم، ورحم الله الشاعر العربي الذي يقول:

ما حكَّ جلدك مِثل ظفرك
فتولَّ أنت جميع أمرك

ماذا يُريدُون بنا؟

(2)

قال صاحبي: ألا تستغرب تصريحات بعض الناطقين من دول الغرب وهم ينفون عن إسرائيل أنها أداة استعمار للغرب، وأنها مخلب هجوم لصالح الغرب، وأن عطفهم عليها ليس إلاّ عطفاً على مضطهدين يجب أن يعيشوا.

قلت: إن اليهود لم يضطهدهم إلاّ الغرب فما ذنب العرب فيما حدث، وإذا كان في الغرب مَن يرى حق اليهود في العطف فلماذا لم يمهدوا لهم منتجعاً من بلادهم وفي أوروبا وأمريكا متسع لإنشاء الصهيونية في أوسع مدى؟

إننا لا نستطيع دائماً أن نفسر هذا الحماس البالغ لنصرة إسرائيل ظالمة أو مظلومة بأنه عطف إنساني على مضطهد يجب أن يعيش.

إن أحداث السنوات التي مرت منذ وعد بلفور في عام 1917م إلى اليوم أثبتت جميعها بصورة لا تقبل الشك أن إسرائيل ليست إلاّ معقلاً لدول الغرب، وإن شئت فقل قاعدة حربية هيأتها الدول المعنية وشحنتها بأحدث الذخائر والأسلحة لتكون منطلق هجوم على بلاد العرب عند الاقتضاء.

وهي بما فعلت لم تفقد صداقة العرب رغم تأييدهم في أحرج المواقف، بل هيأت الفرصة واسعة لعدوها التقليدي في موسكو فمن المعلوم أن سياسة موسكو تحاول من عهد بعيد أن تسيطر على دول العالم ولكن يمنعها من ذلك أنها لا ترى مواجهة الحرب بالحرب، بل تخطط لسياستها ما تستغل به الفرص دون أن تكبد جيوشها خسائر تُذكر.

حسبها أن تثير القلاقل في كل بقعة تتصل بنفوذ الغرب، وأن تمد الثائرين بأموالها وسلاحها وتنادي بهم كدعاة للحرية، وتؤيد ما يدعون لأنفسهم في كل مؤتمر أو

مجلس بينما تضطر دول الغرب أن تقحم نفسها وجيوشها في مثل هذه المواقف، فتخسر شبابها المقاتل وتثير على نفسها نقمة العالم الذي يراها تقتحم ميادين لا صلة لها ظاهرة بما يدور فيها من أحداث.

لقد دبرت روسيا أزمة فلسطين لترقص من وراء الكواليس، فماذا فعل الغرب لتلافي عواقب ما سموه عطفاً على اليهود المضطهدين.

لقد أعطوا الفرصة لروسيا وتركوها تدّعي نصرة العرب وليس في العرب من يجهل أنها كانت أسبق من اعترف بإسرائيل وأنها في أكثر من مناسبة مدت إسرائيل بمساعداتها، وأباحت لليهود رعاياها أن يهاجروا إلى إسرائيل ليدعموا مركزها على حساب العرب.

وحتى عندما فرضت هيئة الأمم المتحدة حظر إرسال السلاح إلى المحاربين في فلسطين بعد وقائع عام 1948م، كانت روسيا تمد إسرائيل بالكثير من السلاح الذي قضى على كثير من حقوق العرب.

إن دول الغرب بعطفهم المصنوع على إسرائيل أثاروا في الشرق فتنة عجزوا عن تلافيها وسيظلون عاجزين ما أتاحوا الفرصة لروسيا لتزيدها وقوداً وتشعلها سعيراً.

لقد عاش العرب طوال تاريخهم الإسلامي يعاملون اليهود معاملة قل أن يكون لها نظير فلم يضطهدوهم كما اضطهدتهم أوروبا، بل إن اليهود عندما كانوا يئنون من اضطهاد أوروبا كانوا يجدون ملاذهم عند العرب ويجدون أمانهم.

فماذا حدا فيما بدا؟ ليس في الأمر إلاّ ألاعيب السياسة التي أرادت أن تستغل إسرائيل كقاعدة لنفوذها في الشرق فأبت القاعدة إلاّ أن تزج بهم في أتون لا يدري إلاّ الله إلى أي مدى سيتسع لظاه.

إن روسيا وقد سنحت الفرصة لها سوف لا تتركها دون أن تحقق ما تصبو إليه من ربح.. وهكذا جنت على نفسها براقش.

الفتوّة في بغْدَاد

كنتُ كتبتُ قبل اليوم وبمناسبة شهر رمضان عن السُنَّة التي سنَّها الخليفة الناصر لدين الله في مثل هذا الشهر المبارك ودعا لتأسيسها في حواضر الإسلام.

تلك هي سنة نظام الفتوة الذي اقترحه بعض أشراف بغداد بدافع من غيرتهم على الشاب المسلم الذي غمرته المدنية يومها فماع في ترفها وكاد يفقد أصالة العربي المسلم المعروف بإقدامه وبسالته.

ويهمني هنا أن أشير إلى ما رواه التاريخ عن الحماس البالغ الذي بدا به الخليفة الناصر. فقد ذكر أنه سجل اسمه بين جماعة الفتيان في بغداد، وفرض نفسه أن يبرز أمام الجماهير في أكثر من مناسبة وهو يرتدي شعار الفتوة الذي التزم به الفتيان في مجتمعاتهم.

ونستطيع أن نستمع إلى الرحالة المعروف بابن جبير وهو يصف الناصر لدين الله، ويقول ابن جبير بعد أن وصف ما شاهده في مجلس الناصر لدين الله إنه كان لابساً ثوباً أبيض شبه القباء مُحلّى بخيوط ذهبية وعلى رأسه قلنسوة مطوقة بوبر أسود. وكان القباء المطرز وكانت القلنسوة المطوقة شعاراً اتخذته جماعة الفتيان وكانت بعض الجماعات تضيف إليه حذاءً طويلاً من الجلد ليقوى على الحركات الخشنة التي كانوا يمارسونها، وأعتقد أن فكرة الحذاء الطويل انتقلت بعد هذا العهد إلى الجيوش النظامية في أكثر الدول.

وجاء في كشف الظنون لحاجي خليفة أن الاحتفال بدخول الشاب في سلك الفتوة كان يقضي أن يشرب الشاب كأس الفتوة ماءً نميراً وأن يلبس سراويل خاصة بها.

وكان المفروض على أصحاب السلك من رجال الفتوة أن يتدربوا تدرباً متواصلاً على فنون الرياضة كوسيلة لتقوية أجسامهم وإعدادها للأعمال الشاقة.

وإذا كان فتيان العرب قد مارسـوا قبل هذا العهد التدريب على ركوب الخيل وطعن الرمح وضـرب السـيف والرمي بالسـهم فقد أضـيف إلى نظام الفتوة في هذا العهد رمي البندق.

وليس هو البندق الذي نعرفه اليوم بشـكله الماثل، وإنما هو كرات دقيقة كانوا يصـنعونها من الطين أو الحجارة أو الرصـاص ويرمونها بالقوس بصـورة لا يحذقها إلاّ من طال تدريبه عليها وأعتقد أن بندقنا اليوم اسـتعار اسمه من كراتهم التي كانوا يصنعونها.

وقد اسـتفادت بلاد الإسـلام كثيراً يومها من نظام الفتوة واسـتطاع الشـباب في جميع الحواضـر التي كانت معرضـة لغزو الصـليبيين أن تحمي حماها، وأن تنتصـر بفضل ما تهيأ لها من الإعداد الجسمي والروحي في أهم المواقع الحربية.

إننا للمرة الثانية نتمنى على القائمين بأمور الإسـلام في سـائر أقطار الأرض أن يدعوا شبابهم إلى نظام الفتوة ليعدوهم إعداداً قوياً يحمون به بلادهم من كل طامع، ويصونون به استقلالهم الذي ضحوا في سبيله بمئات الألوف من الضحايا.

ليتك تفهمني وأفهمك

قال صاحبي: إني لأعجب لهذه المهاترات التي تنشأ بين كاتب وآخر بين أديب ونقاد فينة بعد أخرى، فإذا أعمدة الصحف مشحونة بالكثير الذي يسيء إلى سمعة الأدب كفنٍ.

قلت: إن مأساتنا في هذا كثيراً ما تنشأ من ضيق أذهاننا فأنت عندما يضيق ذهنك بالنسبة لمن يخالفك الرأي اتسعت شقة الخلاف بينك وبينه، فلا عجب إذا استدرجكم هذا إلى الملاحاة ولا عجب إذا استدرجتكم الملاحاة إلى العناد وليس كالعناد شيء يطور الخلاف ويصرف عن الهدف فإذا أنت وصاحبك تتلاحيان في غير الموضوع.

ما أحلى أن تحاول فهم ما يراه مخالفاً ما أحلى أن تفنّده في استقراء وتدرسه في دقة الرجل الحر الذي لا يضلله الغرض ولا يحيد به عن الحق الصراح.

أذكر أنني كنت أقرأ من نحو ثلث قرن في بعض صحف البلاد العربية وكانت يومها من أمهات الصحف بحوثاً بدأت للبحث والدراسة العلمية ولكنها ما لبثت أن استطالت واستطالت حتى انتهت إلى ملاحاة صرفة خرجت بها عن مدار البحث فإذا هي كلام مغرض ومفاهيم لا تليق بصحافة كنت أجلّ مركزها بين الصحف.

ولم تتورع المجلات المحترمة التي كنت أكبر فيها عنايتها بالأدب الأصيل والعلم الغزير في بعض بلادنا الشقيقة. لم تتورع هذه المجلات أن تخوض مخاضاً لا يليق بسمعتها. فقد فتحت صدورها لدراسات بدأت علمية قليلة المثال ثم ما لبث الجدل أن مال بها إلى الملاحاة، ومالت الملاحاة بها إلى العناد، ومال العناد بها إلى مهاترات ما أساءت في رأيي يومها إلى المجلات فقط تلك التي كنت أحترمها وأقدر

جهودها في سبيل العلم والأدب بل تعدت الإساءة إلى سمعة أصحاب الأقلام الذين كانت أسماؤهم يومها تلمع في دنيانا كما تلمع النجوم الزاهرة.

ترى هل استفاد العلم من كل ما جروا؟ هل ظفر الأدب كفنٍّ بما كان يرجوه من بحوثهم الواسعة؟ هل انتفعنا وأمثالنا مما قدموا وكنا يومها طلاب معرفة وعشاق دراسة كما كنا مهووسين بالأدب؟.

قد يُقال إن تلك البحوث بما شابها من مهاترات عنيدة حققت جوانب لها قيمتها من الفائدة، ولكن مع هذا لا يتعين علينا أن ننسى أنها كشفت إلى جانب ذلك من النواحي الأخلاقية ما أساء إلى سمعة الكتَّاب والناشرين.

يبدو أننا عشنا حيناً من الدهر كان المخالف بيننا لا يعنيه كثيراً أن يتلاقى مع مخالفيه في نقطة الابتداء فيمضي النقاش مضياً نظيفاً تحصحص فيه الحقائق. أقول يبدو أن المخالف لا يعنيه هذا بقدر ما يعنيه أن يعتز بنفسه وأن يثبت لمبدئه وربما تكفل في سبيل ما اعتنق كثيراً من المغالطة ليحقق لنفسه نصراً مهما تراءى له في هذا النصر من زيف.

تُرى ما يمنعني إذا خالفتك في بعض مذاهب الفكر ألا أنسى أن نظرتي إلى الأشياء لا تتسع لجميع الزوايا مهما حاولتها لتكون شاملة وإن أحكامي في ضوء هذا إذا قاربت الصحة لا يلزم منها أن تكون صحيحة صحة كاملة فالكمال لله وحده.

بَين القَديم والجَديد

قال صاحبي: ألست ترى من حق الشباب أن يختاروا بين مَن يتحمس للقديم، ويرى أن على الشاب ألاّ يعدل به جديداً وبين مَن ينبذ الارتباط بالقديم ويرى أن على الشاب أن يكون ابن عصره بكل ما في هذا من معنى.

قلت: أحسب أننا ناقشنا مثل هذا قبل اليوم، وأنه كان من رأيي أن مَن لا قديم له لا جديد له، على ألاّ يرتبط بالقديم ارتباطاً كلياً ينسى فيه ملابسات القرن الذي يعيشه، فليس من طبيعة الحياة ولا من سننها أن يقف الإنسان حيث وقف وإلاّ لظل إلى اليوم يعيش في الغابات حيث عاش أجداده الأعلون، ولما تقدم خطوة واحدة في سلم الحضارات.

إنك اليوم تنصت إلى من يخاطبك من بيته في أمريكا وأقصى بلد في أوروبا فلو وقفت الحياة عند أول مرحلة عاشها رجل الغاب لظللت إلى اليوم تحيا حياتك بين الرفش والفأس يظللك كهف غائر أو دوحة عريضة الظل.

لقد عاشت الأجيال قبلنا لا ترى أن لون الحياة التي تحياها هي نهاية المطاف، بل كان طُموحها يمتد إلى أبعد مما تعيش، ولهذا ظل الجيل بعد الجيل يرقى في سلم الحياة مرقاة كان لا يعرفها جيل سابق كما ظل تفكيره يتسع لأفق أرحب مما كانت تتسع له أفكار أجداد عاشوا قبله.

عاشت الحياة تتدرج بأبنائها من واسع إلى أوسع، ومن درجة إلى أعلى منها.

من هنا كان التطوير، من هنا استطاع الإنسان أن يغزو القمر، وأن يعيش في أعمق أعماق البحر ليدرس ويحقق ويستنتج، ومن هنا استطاع أن يبز الطيور في أجواء تعجز عن منالها بشكل كانت لا تحلم به أجيال سبقت، ومن هنا استطاع أن

يصافح ثبج البحار في أمان لا يضارعه أمان، ومن هنا استطاع أن يهبط من طبقات الأرض إلى آلاف الأميال ليستخرج من معادنها أنواعاً كان لا يتخيلها عقل.

ومن هنا كان تطور العلوم والفنون والآداب والأفكار والنظر إلى مثل الحياة شيء لا بد منه لنواميس الحياة.

لا ننكر أن ثمة مصادفات قد تنشأ لظروف خاصة تعوق التطوير حيناً من الدهر قد يقصــر هذا الحين وقد يطول، ولكنه لا يدوم لأن الوعي المدرك لا تنطفئ ذبالته مهما تكالبت عليه الظروف، فهو لا يلبث أن يســـترد وهجه لتســـتأنف الحياة خطواتها ولو في شكل وئيد في ضوء الذبالة التي شعّ وهجها ببصيص من النور.

لا يجب أن يقف الشـــاب حيث وجد أباه لا يحيد عنه شـــعرة، فذلك لون من الخمول الذهني من شـأنه أن يعوق تطوير الجيل وأن يقف به عند مرحلة معينة بينما تتسابق الأمم في مجالات رحبة الآفاق.

كما لا يجب أن ينسى قديمه كل النسيان ليبني على غير أساس فما شيد صرح من غير أساس إلاّ كانت نهايته الانهيار.

عليه أن يأخذ من قديمه تجارب من ســـبق من أســـلافه وما حققوا في ميادينهم لينطلق بعدهم من حيث انتهوا بعد أن يســـتعير من أحدث الأمم أحدث الأفكار التي لا تتعارض وما ورث من مثل عليا.. فالجديد بحذافيره يشوبه من الغث ما يتنافى والمثل العليا، والقديم بكل علاته وقوف لا يتفق مع سنة الحياة.

علينا أن نَدرس فُروع الفِكر عِند الأُمم

(1)

قال صاحبي: يصادفني في الحين بعد الآخر شاب يدرس بعض نواحينا الهامة في التاريخ أو الأدب أو الحياة العامة، وأعلم أنه وغيره مكلّف بذلك البحث من جامعته كرسالة يتقدم بها زميل لنيل شهادة ما فما أروع هذا النشاط الذي تبدو به جامعاتنا وهي لا تزال بمكانها من الخطوات الأولى.

قلت: ونعمّا هذا الشباب الذي يجاهد في سبيل التكليف. فقد مرت بنا عهود وعهود كنا موضع دراسة كل نابغة يشد رحله إلى بلادنا ليحقق ناحية من نواحينا كلف ببحثها لجامعته بينما نظل في مكاننا لا ندري عن حيثيات الأمم التي تعاصرنا شيئاً يفتق أذهاننا ويفتح عيوننا على الحياة.

وإني لأذكر أني قرأت فيما قرأت للدكتور النّشار وهو فيلسوف إسلامي بحثاً ينعى به أمم الشرق لتخلّفها في هذا المضمار الدراسي، وفيه عرج إلى قضيتنا مع اليهود أعدائنا فيقول إنه في حديث له مع أستاذ جامعي إنكليزي لفت نظره إلى تقاعس العرب عن البحوث التي تتناول أعداءهم بصورة مفصلة، تكشف آلاف الخبايا التي يجب أن يكونوا على علم واسع بها، وأنه قال له إن مما يلفت النظر أنه لا يوجد اليوم قسم من أقسام الجامعات الإنكليزية يخلو من يهودي كأستاذ أو طالب دراسات عليا، وإن جل هذه الدراسات تتناول النواحي العربية في شتى أنواعها هذا عدا الطلاب من اليهود الذين يلتحقون في مئات الجامعات بين أمريكا وأوروبا وهم لا يصرفون همهم في شيء كما يصرفونها في بحوث عربية تمثل تاريخ العرب وحاضرهم وتظهر آلاف الحقائق التي يحتاج اليهود لمعرفتها.

ويعلق الدكتور النشار على ما سبق ليقول إننا للأسف لم نعرف الفكر اليهودي حتى الآن على الإطلاق. ولا نعرف نشأته ولا تطوره ومنذ أنشد اليهود التلمود في منفاهم السحيق. لم نعرف حقيقة أفكارهم لا خلال تطوره في العصور الوسطى ولا في العصور الإسلامية. لم نعرف مقدار مشاركتهم في الحياة العقلية الإسلامية في العراق ولا دورهم في نكبة المسلمين في إسبانيا ولا مبلغ تطورهم فكرياً في العصور الحديثة مع أنهم درسوا الحياة الإسلامية والفكر العربي، ولهم مراكزهم القوية لدراسة هذا الفكر في يافا وفي الجامعة العبرية وفي بيت المقدس وفي كثير من جامعات أوروبا.

قلت لصاحبي وهذا ما أعنيه وأنا أتمنى من جامعتنا أن تندب طلابها لدراسة الفكر في أهم الأمم التي تعاصرنا وأن نخص أعداءنا بنصيب أوفى من هذه الدراسات لنكشف من حقائقهم ما لا يصح أن نجهله في مثل هذه الملابسات السيئة.

إن على جامعاتنا أن تندب شبابها ليتخصص في فروع الفكر فلا يعجزه غداً أن يقدم لمكتبته العربية أبحاثاً حقيقية غنية بتفصيلاتها تتناول الأمم التي يعنينا بحث حقائقها من أصدقائنا إلى أعدائنا إلى كل من له علاقة بمقدراتنا.

وعلى جامعاتنا ألاّ تنسى بقدر المستطاع أن مطابع أوروبا وأمريكا تزدحم بالإنتاج الفكري الذي تصدره إلى الأسواق العالمية وبين هذا الإنتاج دراسات قيّمة يضعها المكلفون بالدراسات العالية في الجامعات مما يتناول نواحي الفكر في شتى أمم العالم ومن بينهم أمتنا، كما تتناول في الوقت نفسه دراسة ألد أعدائنا فإذا اتسعت رفوف المكتبات في جامعاتنا بكثير من هذا الفيض ساعدنا ذلك على التوسع في فهم كل ما يهمنا فهمه من مناحي الحياة.

علينا أن نَدرس فُروع الفِكر عِند الأُمم

(2)

قال صاحبي: وكنا في صدد ما يتعين علينا لندب طلابنا الجامعيين ليدرسوا فروع الفكر في أهم الأمم التي تعاصرنا أصدقاء كانوا أم أعداء ليقدموا للمكتبة العربية أبحاثاً غنية بتفصيلاتها تدرس حقائق هذه الأمم وتكشف لنا من مناحيهم كل ما له علاقة بمقدراتنا في الحياة.

قلت له: ولا يجب أن نقف بطلابنا الجامعيين عند هذا الحد. فأدبنا لا يزال إلى اليوم أدباً محلياً وكان يتعيّن تصديره إلى سائر بلادنا الشقيقة لتصل أصواتنا إلى أسماعهم ويعرفوا مقدار مساهمتنا في نهضتهم، وهذا لا يتأتى في الغالب الأعم إلاّ لجامعي درس أصول الأدب دراسة منهجية.

والأديب الجامعي لا نقنع بجهوده في هذا المضمار. فهو يجيد لغة أجنبية أو أكثر ونهضتنا الجديدة في أشد الحاجة إلى الأجنبي الذي يتفهم حقائقها وهو نزيل بيته في أقصى مدينة من أوروبا والصين. نحن في حاجة لأن نكتب له بلغته لنصل بها إلى قلبه. فليس كلغة الأجنبي سلاح نستطيع أن نغزو به عواطفه ونحتل مكاننا من فؤاده.

ومثل هذه الآمال تناط أكثر ما تناط بطالب الجامعة الموهوب الذي يستطيع أن يقدم أمته أفكارها وآدابها وآمالها في الحياة ومساهمتها الجديدة في بناء الحضارة يقدم كل هذا للأجنبي في بلده في بيته في صحيفته في مجلته ليعرف أية أمة هذه التي تنوي مساهمته في مضمار الحياة.

إن قصيدة عامرة أو بحثاً وافي العناصر أو قصة محبوكة الأداء أو قطعة موسيقية تخاطب القلب أو لوحة فنية معبرة هي سفير دبلوماسي بارع يعرف كيف يربط بين

وجداننا ووجداهم مهما نأت بنا الأبعاد وانقطعت بيننا الأواصر، وهي قاسم مشترك يجمع القلوب إلى القلوب ويعطي فكرة واضحة عن حياتنا الجديدة.

إن طلابنا الجامعيين في أكثر بلاد أوروبا وولايات أمريكا يتفرقون في كل صيف إلى كل قارة، فيتغلغلون في مجاهل إفريقيا ودساكر وقرى الهند والصين وجزائر جاوه لينقلوا أفكارهم وأحاسيسهم وحقائق مقدراتهم إلى من يجهلها، فلا أقل من أن نندب سفراءنا في شخص نتاجنا الأدبي أو الشعري أو القصصي أو العلمي ليصبح مقروءاً في كل أمة بلغتها أو بأية لغة حية ذائعة.

لا يعجز الدارس الجامعي أن يفلسف الأفكار التي يغزونا بها كاتب أوروبي ويناقش البحوث التي تنشرها مجلة علمية أجنبية يناقشها بلغتها في أسلوب هادئ علمي رزين، وعبارة راقية تقنع ولا تهوش ويبعث بها إلى أكثر صحيفة رواجاً لها مركزها العالمي لتكون لنا بمثابة من يقول نحن هنا لنا آراؤنا ولدينا من أبواب المعرفة ما نستطيع أن نساهم به في مجالاتكم.

لا أذكر أن جامعاتنا في سبيل أن تنشط في مثل هذه الميادين، لا بد لها أن تجد من بيوت المال عندنا ما يشدّ عزمها ويقوي إسارها ويهيئها للعمل الجاد المثمر، فعسى أن يتضافر القادرون على تشجيعها لتؤدي رسالتها في الحياة كاملة.

بَينَ الحضَارتين العَربيّة والأُوروبيَّة

(1)

قال صــاحبي: ما بال بعض الأوروبيين ينكرون على العرب مركز الأســتاذ الذي علّم أوروبا يوم كانت أوروبا غارقة في جهلها، ممعنة في بداوتها لا تكاد تتصـــل بأي نموذج مبتكر ممّا صنع العرب حتى تظنه لوناً من السحر نفث فيه الشيطان.

قلت: ليس هذا دأب كل الأوروبيين: فبينهم مَن لا ينســى فضـــل العرب على حضارة أوروبا، ويعترف لرجال الفكر العربي بأثرهم في كل ما تميزت به أوروبا اليوم.

وأحسـبك قرأت مؤخراً ما ناقشــه الأســتاذ الفرنسـي مونتيل في محاضـراته التي أُذيعت من باريس ونقلتها عدة صحف بعدة لغات منها العربية.

لقد قال الأســتاذ فيما قاله عن أثر العرب في حضــارة أوروبا.. إن بيننا معشــر الأوروبيين وبين العرب أواصـــر رحم روحية وعقلية، وليس من يتفحص الحقائق ويتمعنها إلاّ أن يدرس خيال الظل في كل ما أنتج الفكر الأوروبي ليدرك مبلغ الصلة بين الحضارتين العربية والأوروبية.

وقال: إن علينا أن نفســر المدى الحضــاري الذي بلغته بغداد في عهدها الزاهر والمجال العقلي الواســع الذي احتلت قرطبة صــدارته في عصـرها الرائع لنتبين مبلغ الأثر الذي انتهى مداه إلى أقصى بلاد أوروبا.

ذلك الأثر الـذي جعل أحد البـابـاوات يعلن في تـذمُّر نعيـه اللغـة اللاتينيـة في خطاب قال فيه إن اللغة اللاتينية كادت تنطمس في الأوســـاط الدينية فكلهم يتكلمون باللغة العربية ويكتبون اللغة العربية.

إلى أن يقول المحضـر: إن القرون الوسـطى المسـيحية كانت غارقة في قراءة نوابغ الفكر العربي، فإن كتب ابن سينا والفارابي وابن رشد نقلت إلى اللاتينية وأصبحت

أوروبا من حدودها في الشمال إلى أقصى الجنوب تفكر بعقلية العرب وتناقش في مفاهيم العرب.

ولقد كان الأوروبي المطَّلع إذا قرأ ما ترجم من كتب الفقه الإسلامي يستطيع أن يعتز بثقافته بين جماهير معاصريه، وإذا قرأ ترجمة مقدمة ابن خلدون تكشفت له من حقائق الاجتماع ما يذهل له مستمعوه.

وقلت لصاحبي لعلّك لا تستغرب عناية الأستاذ مونتيل ببغداد وقرطبة بين مئات المدن الإسلامية العربية التي ازدهرت فيها حضارة الإسلام.

ولكن سوف لا يطول عجبك وأنت تعلم أن أمهات المدن الإسلامية والعربية كانت جداولها تصب في بحر بغداد وأن كثيراً من نوابغ الفكر الذين ازدحمت بهم بغداد شعروا بضرورة البحث عن منأى قصي يجدون فيه مجالاً لا يزدحم بغيرهم فكانت قرطبة التي فتحت صدرها لكل نابغة طارئ حتى جارت بغداد في زحامها بالنوابغ، وحتى قيل إن بعض نوابغها ورّث خلفه تسعين كتاباً مخطوطاً تناولت شتى ألوان المعارف وأن أحد خلفائها كانت مكتبته الخاصة تحوي أربعمائة ألف كتاب أباحها لكل مطلع ورتب لها من كبار المؤلفين والفلاسفة في عصره من يتزود من معينها لمؤلفاته ومذكراته فكانت نهضة نادرة المثال فاضت جداولها على أكثر مدن أوروبا.

بَينَ الحضَارتين العَربية وَالأُوروبيَّة

(2)

قال صاحبي: كنا في صدد ما أدلى به الأستاذ الفرنسي مونتيل في محاضراته التي ألقاها من محطة باريس والتي كان لها صداها في كثير من صحف العالم في أكثر من لغة من بينها اللغة العربية.

قلت له: تحدث الأستاذ فيما تحدث عن مناهل قرطبة التي فاضت جداولها على أكثر مدن أوروبا فقال إن قرطبة بل وأكثر عواصم إسبانيا كانت همزة وصل بين الفكر الأوروبي والفكر العربي، وهنا جاء على عدة أمثلة ذكر فيها عشرات الألفاظ العربية الباقية إلى اليوم في اللغة الإسبانية، كما جاء على عدة مصطلحات علمية تستعمل اليوم في بعض اللغات الأوروبية منحدرة عن منهلها الأصلي في بلاد العرب إلى أن قال ولو أردت أن أستقصي كل ما في هذا المعنى من ألفاظ ومصطلحات محتفظة بأصلها العربي في كثير من لغات أوروبا لاقتضاني ذلك أن أفرد له مجلداً ضخماً.

وتحدث الأستاذ فيما تحدث عن هندسة البناء التي نقلها الأسبان عن العرب، وعاشت شائعة بينهم دهراً طويلاً وكانت تعد مفخرة بين أساليب البناء لذلك العصر.

ولقد صدق الأستاذ فيما روى بدليل هذه الآثار التي احتفظ بها الأسبان كأثر تاريخي. ولو شهدت يا صاحبي ما شهدته أنا شخصياً من عظمة القصور والمساجد التي احتفظت برونقها في أهم مدن الأسبان لشهدت عجباً. فكل أثر رأته عيني تراءى لي وكأنه ينطق بأروع ما تنطق به حضارة مكتملة البناء.

وتحدث الأستاذ عن الموسيقى وآلاتها في الأندلس وأشار إلى آثارها الباقية في موسيقى إسبانيا اليوم كما أشار إلى بعض الألحان بمسمياتها وما تركت من أثر في بعض ألحان أوروبا.

وجاء على ذكر الرياضيات والطب والفلسفة وعلم الفلك والنبات فقال إن العرب حملوا مشاعل هذه العلوم وأمثالها في عصرهم الزاهي حتى استضاء بضوئها الألوف من طلاب المعرفة في كثير من بلاد أوروبا إلى أن قال إني لأعجب للمغرضين الذين يجحدون فضل العرب على نهضة أوروبا كما أعجب لبعض رجال البحث التاريخي الذين لا يتكلفون العمق في دراساتهم ليتبينوا الآثار الدقيقة التي انطبع بها أسلافنا في عهود سابقة.

هذه خلاصة موجزة كل الإيجاز عن محاضرة الأستاذ الفرنسي مونتيل التي أذاعتها وكالات الأنباء ونُشرت بأكثر من لغة وعنيت بها بعض الصحف في بلاد العرب فهل عُني بها قراؤنا من الشباب الذين غرتهم الحياة الزائفة فقدروا للعقل الأوروبي ميزة حسبوها من خصائصه دون غيره.

ربما قيل إن للشباب المغرور بحضارة أوروبا عذره لقلة ما بين يديه من مظان القراءة والاطلاع، ولكنه عذر لا يغني، ففي ذخائر الكتب القديمة من النفائس ما يمكن البحث عنه إذا تعشق الشاب مزايا البحث وبين رفوفها ما يكشف عن حقائق الحضارة العربية بشكل يذهل العقل.

قصَّة غِذاء الإنسَان

قال صاحبي: ما خبر يقول إن عالماً من أبرز علماء الطبيعة أعلن في مؤتمر جامع أن الجنس البشري قد يبيد وينقرض إذا استمر العدد البشري في ارتفاعه واطراد الزيادة في نفوسه بينما تظل مواد الغذاء الطبيعية محتفظة بنسبتها على وجه الأرض.

قلت: ويرى غيره أن ثمة أخطر من هذا ذلك أن المواد الغذائية الطبيعية لم يثبت احتفاظها بالنسبة الأصلية بل على العكس فقد اعتراها من أسباب النقص والفناء ما قضى على بعض هذه النسبة من جراء التصرفات السيئة التي يمارسها الإنسان والتجارب الكيميائية الخطيرة التي يتهالك الأقوياء على التوسع في أعمالها.

ولكن ثمة أفكار لا تتشاءم بهذا القدر المخيف. فهنالك عالِم من هولندا يقول إن العلاقة ثابتة منذ القديم بين عدد السكان على وجه الأرض وبين ما تنتجه الأرض من مواد غذائية.

وأحسبه يعني بهذا أن ملايين البشر الذين تقصفهم الحروب وتقضي عليهم الكوارث وتبيدهم الأوبئة في بعض المناطق المتخلّفة من الأرض تنظم هذا التوازن وتحفظ نسبته بشكل متعادل.

وهناك رأي لا يجادل في حقيقة الخطر ولكنه يدلي برأيه في تحاشٍ وهو لعالم ألماني يقول فيه إن في استطاعتنا ترويض الحيوانات المتوحشة واستخدام لحومها لتغذية الناس.. إنه يرى أن تصرّف الإنسان نحو الوحوش في الغابات تصرّف أخرق لا بد أن ينتهي عند حد.. لا بد أن يكف الإنسان عن صيدها ليترك لها الحرية كاملة ولذلك لا تلبث أن تألف الإنسان وتعيش إلى جانبه شأن سائر المواشي الداجنة فلا يصعب عليه أن يستفيد من لحومها إلى أن يقول إن الاختبار دلّ على أن الحيوانات الطليقة تأكل ما يتيسر لها في البيئة الطبيعية وليس لها مطالب كثيرة رغم

أنها تنتج من اللحم أكثر مما تنتجه الحيوانات الداجنة ومن أهم ما قرأته عن عناية العلماء المختصين بفكرة الغذاء وتوفيره ليسد حاجة الناس إليه خبر عن مؤتمر عقد في باريس من شهور حضره نحو 300 عالم ندبتهم حكوماتهم من شتى أقطار الأرض ليناقشوا الموضوع تحت إشراف هيئة اليونسكو. وقد ذكر المعلقون ومراسلو وكالات الأنباء أن نقاشهم الذي دام نحو نصف شهر أسفر عن مقترحات لها قيمتها وأنهم انفضوا على موعد من العام الجديد ليستأنفوا دراساتهم.

وليس لمثلي أن يشك في كفاءتهم وقدرتهم على استنتاج ما يكفل للإنسان عيشه على الأرض إذا خلصت النية، وتضافرت الجهود واستجاب العاملون في الإنتاج الغذائي في سائر الحكومات للعمل الموحد الذي تتفق عليه آراء العلماء من كل قطر إذا ثبتت فعاليته.

وهناك رأي قديم كان ينادي به بعض المتعمقين يتلخص في أن تساعد الحكومات الغنية غيرها في الأراضي المتخلّفة بما يعينها على استصلاح الأراضي البور في بلادها لتعطي نتاجاً وفيراً.. ورأى آخر أحسبه أقدم من سابقه تأريخياً كان ينادي بعلاج التلوث الصناعي الذي أصبح يسمم الجو والماء ويخلق للدود بيئات صالحة لنموه وتكاثره بصورة تركت أثرها مريعاً في القضاء على جزء كبير من الإنتاج الزراعي.. إننا نؤمل أن تسفر البحوث العلمية عن نتائج تحفظ النسبة بين عدد السكان المتزايد وبين ما تنتجه الأرض.

عَلينا أَلاَّ نُبَالغ في تدليل الطِّفل

قال صاحبي: أتراك توافق على التدليل المفرط لصغارنا هذا الذي نشهده في كثير من بيوتنا؟

قلت: إنه أسلوب خانق يضيق به حتى الأطفال من حيث لا ندري، فالطفل يحس إذا أفرطنا في تدليله أننا ننظر إليه باستصغار، وأننا لا نمنحه الأهمية التي يستحقها كإنسان له كيان وربما شعر أننا نلهو به ونتسلى كما نلهو ونتسلى بأي حيوان صغير.

وإذا أفرطنا في التدليل فمنعناه أن يشارك لداته في اللعب خوفاً عليه من أذى اللعب، وأبينا عليه الحركة في الظلام خشية أن يفزع من خيالات الظلام، وحاولنا ألاّ يبعد إلى أكثر من مدى أبصارنا حرصاً عليه من كل ما نتوهم.. فقد فرضنا عليه قيوداً لا تتفق مع مزاجه كطفل له غريزته التي هيأته للانطلاق المعقول.

إن الطفل من أحوج الناس إلى الرقة، وأحقهم بالتدليل والحنان على ألاّ نفرط في كل هذا ونبالغ فنتركه ينسى أهميته بيننا، وربما شعر أننا نسخر به وبكفاءته الصغيرة التي يحس بها في أعمق أعماقه.

إن من الأطفال من يحس بإحساس الكبار في وقت مبكر، ويرى أنه لا ينقصه الكثير ليصبح في عدادهم. وفي هذا كثير من معاني الثقة بالنفس فإذا أبينا إلاّ أن نسبغ عليه الحنان المفرط أسأنا إلى الثقة التي كان يتعين علينا أن ننميها، وسممنا إحساسه بكيانه، وقتلنا فيه شخصيته.. فإذا تمادت طفولته إلى مراحل المراهقة أو الفتوة أو الشباب أو اكتمل جسمه في مرحلة الشباب وهو يحس إحساس الطفل فتلك جنايتنا لا محيص من أن نؤاخذ بوزرها ما عاش فاشلاً تلازمه الخيبة.

قلت إن الطفل من أحوج الناس إلى الرقة وأحقهم بالحنان، ويهمني أن أضـــغط هذه المعاني إلى حد معقول فلا ينبغي أن ندللـــه إلاّ إلى حد مناسب فلا نحاول أن نشـــبع كل رغباته دون أن نميز بينها لنبيحه منها ما يتناســـب وأوضـــاعنا ويتفق وملابسات ظروفه.

إني أعرف والدة كانت تفرط في حنانها على طفلها، ولا يطاوعها قلبها الرقيق أن تعصـــيه في أمر أو ترفض له مطلباً، فعاش محلولاً يفرض دلاله على كل من يعامله فخابت أمانيه في كل من يعامل.

وأعرف والدة أحبت صغيرها بأسلوب المجانين، فحرّمت عليه الاختلاط ضناً به أن يفارقها فألف حنوها المفرط إلى درجة أصـــبح معها يضـــيق بمعاملة مدرســـيه بالمدرســـة فكان يفر إلى أمه كلما ضـــاق بمدرس فتفتح صـــدرها فرحة بفراره إليها وتصطنع كل أسباب الرضا لتعوضه ما فقد من حنوها في المدرسة، فلما قضت الأم نحبها ولم يكن له من يكلؤه بعدها عاش هانئاً بما تركت له من ثروة يهيمن عليه المداجون حتى أفقدوه ما ورث وتركوه ضائعاً يعاني مرارة الفاقة والذل.

ما أروع الاتزان في كل مناحي الحياة، وما أروع أن نعيش حياتنا موزونين.

المدنيّة الملوثة

قال صاحبي: ألا تدهشك هذه الحضارة الحديثة التي كما خاصمت الدين خاصمت الأخلاق؟ فهي رغم ما أحرزته من نجاح استطاعت أن تملك به طاقة البخار والكهرباء ونواة الذرة، وأن تطير به في أعلى أجواء الفضاء وتسبح به في أعمق أعماق البحار، وأن تحتل به مركزها في القمر برغم كل هذا عجزت أن تعالج في نفوس أبنائها عناصر الفساد الذي بات ينخر في عظامها بصورة بدت فيه بوادر الانحلال المدمر.

قلت: ليس في الأمر جديد. فالمدنية لا تعطي إلاّ بقدر ما تأخذ. وربما أعطتك من بهرج الحياة وزخرفها وفتنتها بقدر ما تأخذ من دينك وشهامتك ومن مروءتك مما فطرت عليه أفضل المزايا.

ولهذا يوصي علماء الأخلاق بالحذر من إغرائها وفتنتها، وألا تأخذ منها لمتعتك إلاّ بقدر يحفظ عليك ما فطرت عليه من شمائل.

لقد لاحظ محمد إقبال شاعر الهند جوانب الضعف الأساسية في حضارة الغرب، وأنت لا تجهل محمد إقبال فهو من أنبغ العقول التي أنتجتها الثقافة الجديدة، ومن أعمق مفكري الشرق الذين احتكوا بحضارة الغرب في أرقى بلادها.

يقول هذا المفكر في صدد ما لاحظ على الحضارة الغربية لقد عجنت هذه الحضارة بطينة الفساد لاتجاهها المادي وثورة أصحابها على الديانات والقيم الأخلاقية والروحية فهي اليوم ملوثة غير عفيفة وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطاهر والفكر السامي والذوق السليم، وتسلط عليها القلق برغم المدنية الباذخة والغنى الفاحش، فهي وإن أظلم جوها بدخان المصانع ولكن بيئتها على كثرة أنوارها غير متهيئة لفتح روحي جديد يشرق به عليها عالم الغيب.

أقول ونحن نرى مصـــداق ما يقوله محمد إقبال ناطقاً في تفكك الأســـر وشـــيوع الفساد واستهتارهم بسائر القيم روحية كانت أو أخلاقية.

ربما أغراك بهم لون من الصدق التجاري والاستقامة فيما يعاملون، فبضائعهم قلّ أن يشوبها غش، وأسعارهم قلّ أن يستمرئوا فيها المساومة ولكن هذا وأمثاله ليس إلاّ ضـــرباً من التجارة نفســـها. إنهم قوم خلقوا للكســـب والكســـب المادي وحده، وأثبتت تجاربهم في معاملاتهم أن في الاســـتقامة أو في ربح يصـــيبهم وأن صـــدقهم في التعامل يضمنك لهم كعميل ويحقق لهم فيك كسباً يفقدونه بالغش، فثابروا على هذا اللون من الاستقامة واتخذوا فيه الصدق ديدنهم.

إننا بهذا لا نعني أمة وحدها ولا شعباً خاصاً بقدر ما نعني المدنية التي يتعين علينا ألا تنســـينا مزايانا الفطرية والتي لا يجب أن نخالطها إلاّ بحذر لنأخذ منها ما يســـتقيم وقيمنا الدينية وشمائلنا الأخلاقية.

ليس الشديدُ بالصُّرعَة

قال صاحبي: ما أروع الأقوياء الذين يملكون أنفسهم في أشد أوقات الغضب.

قلت: وذلك أقصى ما يشير إليه الحديث الشريف وهو يقول ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

وثمة ما هو أروع من هذا ذلك الذي إذا ملك نفسه عند الغضب تأبى عليه كفاءته إلاّ أن ينتصر عليها إلى النهاية، ينتصر على رغائبها السيئة وميولها إلى الانتقام فإذا هو يبدو أهدأ ما تتخيل وألين ما تنتظر وأسمى خلقاً وأقرب إلى معاني العفو.

أتذكر قصة وحشي قاتل حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنت تعرف من هو حمزة، وإلى أي مدى كان عزيزاً على الرسول صلوات الله عليه أثيراً عنده محبوباً؟

لقد جاء هذا الوحشي قاتل حمزة عم الرسول مستسلماً تائباً يطلب قبوله بين صفوف المسلمين، فوقف بعض الصحابة ينتظرون ما يأمر به الرسول على أمل أن يهتبلها الرسول فرصة يأخذ بها ثأره من عدو لدود كهذا فجع الرسول وفجع عامة المسلمين في أثير عندهم.

لكن النبي صلوات الله وسلامه عليه كان أكبر من أن يغضب لنفسه في أمر فات أوانه، أبى إلاّ أن ينتصر للخلق الكريم فأعلن عفوه عما كان وقبل توبته ورضي إسلامه ثم قال: (على ألاّ تجعلني أراك) فالنبي بشر ومن الخير أن يتوارى وحشي عن عينيه لئلا تغلبه طبيعة البشر.

وأنت تذكر دون شك ما دمنا في صدد فعلة وحشي ما فعلته هند امرأة أبي سفيان، تلك التي ما كادت ترى حمزة مجندلاً بسيف وحشي حتى عمدت إلى صدره فشقته وتناولت قلبه فلاكته بين أسنانها بصورة يعافها الكبد الغليظ، ومع هذا فما

كادت تتقدم مستسلمة في رهط من قومها. ما كادت تتقدم تائبة راضية بالإسلام حتى قبلها الرسول.. وعندما تهامس بعض الصحابة آملين أن يأخذ بحقهم منها كان النبي صلوات الله وسلامه عليه أكبر من أن يأخذ بحقه من مهزوم يستسلم.. ما لبث أن أعلن العفو عنها وقبل طاعتها للإسلام..

وأحسبك لا تنسى مثل هذا أو بعده قصته مع أهل مكة وما عاناه من استهتارهم وحيفهم وطغيانهم واستعداء سفلتهم عليه، وما كان منهم يوم أزمعوا على قتله فلم يظفروا به، وما كان من أمر جموعهم يوم حاربوه ومع هذا ما كاد ينتصر.. ويقتحم مكة عليهم ظافراً حتى قال اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

وعندما ازدحمت جموعهم بين يديه أذلة منكسرين يتوقعون أشد أنواع العقوبة وأفظع ألوان الانتقام صاح بهم صلوات الله وسلامه عليه "ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا في ضعة المستكين: أخ كريم وابن أخٍ كريم".. فلم يزد عن أن أعلن العفو عنهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء."

هذه مشاهد عفوية جاء بها السياق عرضاً وهي إذا قيست بمئات المشاهد من أمثالها دلت على مبلغ هذا الخلق السامي الذي امتازت به مزايا محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

لعلّ بعض المشاهدين يومها كانوا ينتظرون من سيد الموقف بعد أن كلأه الله بعنايته أن يأخذ لنفسه ولعامة المؤمنين الذين عانوا من طغيان قريش بعض ما يشفي الصدور، ولكن النبي أسمى خلقاً من أن ينتقم لنفسه وذلك هو الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

المَبادئ الحَديثة الثابتة

قال صاحبي: ما عجبت لشيء عجبي لأصحاب المبادئ، يثبتون عليها مهما نالهم في سبيلها، ويقفون لعقائدهم محتسبين ما يصيبهم دون أن يبالوا بما يتعرضون له من إحن.

قلت: إن الثبات للعقيدة احتساباً لله ذكّرني بثبات ابن حنبل للعاصفة الهوجاء التي كادت أن تزلزل عقائد الجماهير يومها، وأن تبيح للفلسفة مجالاً واسعاً على حساب مبادئ الدين الصحيحة.

وأنت تعرف من هو ابن حنبل علماً وفضلاً واستمساكاً بما ورث من صحيح الحديث.

كما تعرف أن حركة الاعتزال كادت أن تقوم في عصره بدعوى حرية الرأي والتوسّع في مجال الفلسفة على أنقاض المبادئ الدينية التي ورثها كبار العلماء وضخ وهجها في صدور الجماهير المسلمة التي توارثت إيمانها عن مصادره اليقينية وأنه لولا ثبات ابن حنبل على رأس بعض أصحاب اليقين من أمثاله لانصرف معظم المسلمين عما ورثوا من الكتاب والسنّة وقلدوا نظريات تقليدية لا يقرها عقل سليم.

لقد صدرت الأوامر يومها عاتية صارمة بأن يشايعوا فلسفة خلق القرآن أو يعذبوا فانهزم أمام هذه الصرامة علماء كان لهم شأنهم ولزم آخرون بيوتهم ينشدون السلامة أما ابن حنبل فقد وقف للمحنة وقوف الهزبر الشجاع، فقد أرادوه إلاّ أن يقول بما لا يعتقده من قولهم فأبى إلاّ أن يحتسب ما يلاقيه في سبيل عقيدته وإيمانه.

أمروا بأن يثقل عليه بأغلال وأن يرحل من بغداد إلى طرطوس فلما أنيخ الجمل لركوبه تعذر عليه أن يستوي فوقه وهو في قيده من الأغلال فأبى المشرف على

رحاله أن يساعدوه في الركوب فحاول المستحيل حتى استوى على ظهر الجمل بعد أن قاسى من الآلام ما لا يطاق واحتسب أكثر من هذه الآلام طيلة أيام المرحلة حتى انتهى إلى طرطوس حيث ترك فيها يتلظّى بوقدة الشمس الحارة وهو مع هذا صائم فلم يرحموا صيامه ولم يرأفوا بضعفه بل زادوا في نكالهم عندما وكلوا به بعض الحرس يتناوبون على جلده بالسياط حتى سالت الدماء من ظهره وهم مع هذا ينادونه أن يعتق نفسه من العذاب، فيعترف بخلق القرآن فلا يزيد عن أن يهيب بهم: (أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به.(

ورأى المشرف أن يستعين بكبير من أصحاب القول بخلق القرآن لعلّه يقنعه بسداد النظرية فشرع يناظره بما حذق من علم الكلام فصاح به ابن حنبل: (إنني لا أدري ما تقوله فأعطني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به) فقال له بعض الحاضرين بعد أن شهد ما يقاسيه من آلام العذاب: إن غيرك لم يتعصب كما تعصبت أنت في هذه المسألة فردّ عليهم (إن هذا ليس دليلاً على صحة المسألة أعطوني ما أستدل به من الكتاب والسنة).

ثبت ابن حنبل عند عقيدته بصورة غريبة المثال، فقد كان يغمى عليه من شدة الضرب حتى إذا أفاق تقدموا إليه ببعض الماء ليشرب فكان يرفض لأنه ممسك على صيامه، وعندما يئسوا منه لم يروا بُداً من تركه لينطلق إلى بيته على أن يظل حبيساً فيه! هذا هو الثبات ميزة المؤمن الصادق فما أحوجنا أن نجعل من قصته مثالاً لأنفة المؤمن وصبره على لأواء المحن.

الغِنى النَّافِع

قال صـــاحبي: ما بال بعض المتكالبين على جمع المال يتكلفون من العناء ما تغنيهم عنه بعض مزايا القناعة، فليس المال هو كل معاني الحياة السعيدة.

قلت: قد استصوب رأيك إذا أصبح المال في رأي المتكالبين هدفاً لذاته. أمّا إذا اعتمد كوسيلة يستطيع المتكالب أن يحقق به كرامة لنفسه ومجداً لوطنه وأن يواسي به قريبه المحتاج وجاره المعوز فنعما هذا التكالب.

أنت تعرف من قصص بعض أصحاب الملايين الذين بذلوا في سبيل جمع المال الكثير من نفوسهم وأوقاتهم حتى انتهوا إلى غايتهم منه شرعوا يبنون به أنفسهم وأمجاد بلادهم في أشكال لا مزيد عليها لمستزيد.

هناك مَن يبنون الملاجئ للمحتاجين والمستشفيات للمرضى، هناك مَن يبذل الإعانات سخية في سبيل البحوث العلمية ويقدم المكافآت الجزيلة للإنتاج الفكري والأدبي، هناك مَن يشجع الطلاب الذين قصرت بهم نفقاتهم ويساعد المجدين في أي مجال حتى يحققوا آمالهم، هناك من يبني المدارس وينشئ المعاهد ويساهم في سائر المجالات المنتجة.

هؤلاء قوم سعدوا بما بذلوا في سبيل أموالهم، وأسعدوا غيرهم بما تهيأ لهم من أموال تكالبوا على جمعها.

لقد منّ الله على رسوله عندما أغناه عن غيره فهو يقول سبحانه وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (الضحى: **8**) ومنَّ على بني إسرائيل بمثل ذلك عندما قال جلّ قوله: وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (الإسراء: **6**).

جمع المال ليس مذموماً لذاته بقدر ما هو مذموم لحبسه فيما لا ينفع مذموم للشحّ به وقبضه عن أعمال الخير.

في حديث عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أنه قال :يا أبا ذر قلت نعم: يا رسـول الله بأبي أنت وأمي قال: ما يسـرني أن لي مثل أحد أنفقه في سـبيل الله أموت وأترك منه قيراطين. قلت: أوقنطارين يا رسـول الله؟ قال: بل قيراطين. ثم قال: يا أبا ذر تريد الأكثر وأنا أريد الأقل.

هذا هو المال الذي تتمناه التقوى الخيّرة، بل وتتكالب على جمعه لا لتســعد نفسـها أو لتسيء فيه التصرف بل لتسعد غيرها إلى جانب ما سعدت به ولتصرفه في وجوه تعتز بها وتفاخر وتسابق إلى ما يبني مجد بلادها في أهم المجالات الحيوية.

ولقد ورد في الأثر (نعم المال الصالح للمرء الصالح).

ثم ما ظنك بالفقر وأنت تعرف من مذاقه وانكساره ما تعافه النفس حسبك منه أن سيد الخلق كما ويستعيذ من الكفر يستعيذ من الفقر فهو يقول: اللّهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر.

اضـرب يا صـاحبي إن اسـتطعت في طول الأرض وعرضـها، وإن اسـتطعت أن تجمع مال قارون على أن يكون وسـيلة لا هدفاً فافعل، على ألاّ تتكالب على جمعه لتبني منه لنفسـك علواً في الأرض أو فسـاداً بل تكالب وأنت تنوي الخير للخير، تنوي أن يعزك إذا ذلّ الآخرون، وأن يهيئـك لتكون ملجـأ للمحتـاج وملاذاً للمضـطر، سـخياً إذا دعا داعي أمتك. كريماً إذا نزلت النوائب بمن تعرف أو لا تعرف.

أبو عبد اللَّه البخاري كعَلَمٍ مِن أَعلام الإسلام

(1)

إذا افتخرت الأمم بالعاملين من رجالها الممتازين ففي تاريخ الإســـلام من رجال العمل من تجل جهودهم عن الوصف وتسمو مراتبهم فوق كل فخر.

يحدثنا التاريخ الإسلامي عن أمجاد أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري فتتولانا الدهشــة ويســتثيرنا العجب لهذه المواهب التي اســتطاعت أن تحشــد قواها وتركز جهودها نحو الهدف الذي اختارت حتى اســـتطاعت أن تبرز فيه بتفوق نادر المثال قليل الشبه.

درج أبو عبد الله البخاري بين أقرانه الدارجين في الكُتَّاب، ولكنه ما كاد يناهز عامه الحادي عشـــر حتى بدت طلائع تفوقه تتراءى لفقيه الكتّاب وقد ذكروا أن مراجعته لما يقرره الفقيه كانت مثاراً للعجب.

وضـاق به الكتّاب في سـن مبكرة فألحقوه بحلقات العلم، فشـرع ينهل من منابعه بين طبقات العلماء، وبدأت شهرته تذيع بين الطلاب والعلماء دلائل تفوقه.

ذكروا أنه عندما بلغ السـابعة عشـرة كان بعض أجلّة الشـيوخ يسـمعون منه، وأنه بدأ يؤلف تاريخه المشهور قبل أن يتجاوز الثامنة عشرة.

ونزعت نفســـه إلى الســـياحة على أثر هذا طلباً للعلم وســـعياً وراء المعروفين من كبار المحدّثين فزار أكثر الأمصـــار الإســـلامية وتغلغل في مدن العراق وبلاد العجم والشـام والحجاز ومصـر فاتسـعت آفاقه واجتمعت له مئات الألوف من الأحاديث التي سمعها مشافهة من أشهر المحدثين في عصره.

وكان يعاني في سياحته من شظف العيش وضيق ذات اليد ما لا يحتمله شخص عادي، ولكنه إنسان وهب نفسه وآلى عليها إلاّ أن تثابر فلم يضايقه ما عانى من الشدة ولم يثنه ما لاقاه من الضيق.

قيل إن زملاءه من الطلبة افتقدوه أياماً فأخذوا يبحثون عنه حتى وجدوه في بيت وهو شبه عريان، وقد نفد ما عنده ولم يبقَ معه شيء! فاجتمعوا وجمعوا له من الدراهم حتى اشتروا له ثوباً يكسوه. وبذلك استطاع أن يستأنف كتابة الحديث معهم، ومضى به جده حتى استوى في عصره من كبار الأعلام. فقد تتلمذ له مئات الألوف من طلبة العلم، وقصد مجلسه من أجلة العلماء من لا يوفيهم الحصر، وجلس بين يديه الإمام مسلم صاحب الصحيح جلسة السائل المتعلّم، وقُدّر عدد مَن سمع الحديث عنه بنحو تسعين ألف رجل كانوا يتهيبون مجلسه ويتطامنون في حضرته كأنما يظلهم جبل شامخ.

وفي كلمة تالية نستطيع أن نتابع بعض مزاياه التي تفرّد بها على أقرانه وأثبت جدارته بصورة قليلة المثال.

أبو عبد الله البخاري كعَلَمٍ مِن أَعلام الإسلام
(2)

قلت لصاحبي: وكنا في صدد مزايا أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.

قلت له: لقد بلغ من نشاط أبي عبد الله فيما كرّس له نفسه أن ظل حياته لا يأبه لشيء من أمور دنياه ومعاشه فقد ذكروا أنه لم يشترِ شيئاً في حياته ولم يبع وأن أدواته من الكاغد والحبر والقلم كان يتلمس غيره في قضائها حرصاً على ثمين وقته وضناً بدقائقه الغالية.

وبلغ من انشغاله بفنه المفضل أنه كان لا ينام الليل إلاّ لماماً. وقد شهد من رآه أنه كان يستيقظ في الليلة الواحدة بضع مرات فيوقد السراج ويبدأ في الكتابة والتدوين.

وقد خرَج صحيحه المشهور بصحيح البخاري من ستمائة ألف حديث وكان لا يدوّن الحديث الواحد إلاّ إذا اغتسل وصلى ركعتين.

وذكر عن نفسه أنه كتب عن أكثر من ألف شيخ كان أكثرهم بالغ الثقة رفيع المقام.

وبلغ من تقدير الناس لفضله أنه كان لا يهبط حواضر الأمصار حتى يتنادى الناس بمقدمه، وكان لا يمر بقرية أو دسكرة حتى يسبقه صيته إلى جميع القرى المجاورة فتنثال الجماهير من كل صوب ظامئة إلى رؤيته والاستماع إلى روايته حتى أن مجالسه في الحواضر وبين مجامع القرى كانت تزيد عن عشرين ألف مستمع.

وفي القصة التالية تبدو لنا مواهب أبي عبد الله البخاري جلية واضحة وترتسم أمامنا صورة ناطقة بنبوغه النادر ومقدرته الفائقة.

يقول ابن عدي سمعت عدة مشـــايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسـمع به أصـحاب الحديث فتآمر بعضـهم على امتحانه في أسـلوب شـاذ لا ينجح فيه إلاّ موهوب له مثل كفاءة أبي عبد الله وقدرته الفائقة.

ذلك أن جماعة منهم عمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأســـانيدها، فجعلوا متن هذا الإسـناد إلى آخر، وإسـناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشـرة رجال لكل رجل منهم عشــرة أحاديث، وأمروهم إذا حضــروا مجلس البخاري أن يلقوها عليه ليمتحنوا بذلك معرفته ويميزوا خبرته.

وبذلك طلبوا إليه أن يوافيهم إلى مجلس اتفقوا على موعده، فلما حضـر واطمأن المجتمعون وكانوا خلقاً كثيراً بينهم كبار رجال الحديث تقدّم إليه أحد العشـرة فسـأله الحديث المتفق على تغيير ســـنده. فقال البخاري لا أعرفه! فابتدره الثاني بمثل ما فعل الأول فقال البخاري لا أعرفه فأعقبه الثالث والرابع إلى نهاية الرجل العاشر في مثل الطريقة التي ابتدره بها الأولون، فلم يخرج البخاري عن قوله لا أعرف! ثم ما لبث أن التفت إليهم فصـحح لكل حديث إسـناده ولكل سـند متنه حتى اسـتولت الدهشـــة على الحاضــرين وأقروا له بقوة الحفظ وكمال الفضــل. وبمثل هذا يعرف العاملون.

عِناية السَّلف وَمَا بَذلُوا

(1)

قال صاحبي: ألسْت معي في أن عناية خلفاء الإسلام وأمرائه بشؤون اللغة ومقدرات الشعر كان لها أقوى الأثر في تدعيم مركزهما في الحياة؟

قلت: لا أحسب أحداً ينكر هذا. فربما كلّف أحدهم روّاده أو عمّاله في الأمصار أن ينقلوا إليه أخبار رواة اللغة والشعر، وربما أمر أحدهم بترحيل الراوية إلى عاصمته إذا ظنه مصدر البيت من الشعر أو كلمة من مفردات اللغة فيطوي الراوية مئات الأميال معززاً مكرماً تلبية لنداء الخليفة.

وما كانت العناية مقصورة على ما بذل الخلفاء والأمراء في سبيل اللغة والشعر، فقد دأب الرواة على مسح البوادي من أطرافها إلى أطرافها بحثاً عن كلمة تعذر عليهم تصحيحها، أو بيت من الشعر ارتابوا في حقيقة قائله.

وحذا عشاق النحو حذو هؤلاء في الدأب، فصنفوا أنفسهم في مذاهب قلدوا فيها البصريين أو الكوفيين أو غيرهم من أعلام النحو، وراحوا في سبيل ذلك يتبارون. كل طريقة تؤيد مذهبها، وكل مذهب يأبى إلاّ أن يحقق قواعد ما رأى مستنداً على ما نقله من ثقاة العرب وما درسه من قواعد لسانهم، ولم يدخروا جهداً في سبيل ما تعشقوا. فقد ساهر بعضهم نجوم الليل مكباً على ما جمعه من فنون القول، ونشط بعضهم للسعي وراء ما يحقق من أطراف الجزيرة إلى أطرافها.

وإذا راق لي ولك أن نذكر مثل هذه الجهود الجبارة فلا يجب أن ننسى جهوداً بلغ دأبها إلى أوسع من هذا المدى وأفضل.. تلك هي جهود رجال الحديث والفقهاء. فقد كرسوا نشاطاتهم لاستنباط أمهات المسائل من الكتاب والسنّة، واضطرتهم مذاهب التفسير أن يتعقبوا رجال اللغة وأصحاب القول من النحويين

ليستنتجوا ما يصح استنتاجه عندهم، ويبينوا ما أدى إليه اجتهادهم على أسس صحيحة من لغة العرب وقواعدهم في الإعراب حتى برز منهم الفقهاء الأفذاذ والقضاة اللامعون وأصحاب التحقيق العلمي من مختلف الطبقات.

واتسعت آفاق النشاط في هذه الحقبة الطويلة من تاريخ الإسلام، فامتدت عدواه إلى رجال المغازي والسير ومؤلفي التاريخ ورواة القصص، فرأينا من يجود بنفسه ويتبرع براحته في سبيل دراسة غزوة أو تحقيق سرية من غزوات وسرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بحث حالة من حالاتها تتعلق بموقعها الجغرافي أو التأريخي حتى برز من بينهم محققون لا يقف دأبهم عند حد، وظهر في أعقابهم نقاد غربلوا كل ما انتهى إليه تحقيق غيرهم، وبذلوا في سبيل أهدافهم أقصى ما أمكن البذل.

عِناية السَّلف وَمَا بَذلُوا

(2)

قلت لصاحبي: وكنا في صدد ما بذل رواة الحديث والفقه، وما عانى رواة الأخبار والمغازي إلى أن قلنا عن محققي أخبار المغازي أن بينهم من كان يجود بنفســه ويتبرع براحته في ســـبيل بحث حالة من حالات المغازي تتعلق بتحقيق موقعها الجغرافي أو التأريخي. ونقول اليوم إن منهم من كان يتسع نشاطه إلى تعقّب أسماء المشهورين من رجالها أو فرسانها فيترجم حياتهم، ويسـرد أنسـابهم ويدرس مَواطن القوة والضـعف فيهم ثم يعلّق على هذا بما تراءى له من أسباب وما ترتب على ذلك من نتائج.

ولم يقف نشـاط أسـلافنا عند هذا الحد الذي أرادوا به خدمة دينهم. فإن منهم مَن اتسـع نشـاطه إلى خدمة الحياة في شـتى وجوهها. كان منهم الرحّالون جوَّابو الآفاق الذين عاشـوا يتأبطون كراريسـهم وينيطون محابرهم وأقلامهم إلى مواقع النطاق من خصـورهم ليسـيحوا في أقاليم الأرض من مشـرقها إلى مغربها، ويطأوا قاراتها وأقسـامها من التخوم إلى التخوم ليدرسـوا أصـول البشـر وأنواعها وألوانها ولغاتها ويتعرفوا إلى عاداتها ووديانها وطرائق حياتها ثم يسجلوا ما شاهدوه في فصول مبوبة لها قيمتها إلى اليوم عند علماء الجغرافيا وأسـاطين التأريخ ورجال البحث من المتخصصين في علوم الاجتماع.

وتمتد عدوى النشـاط إلى طبقات أخرى مِن صـفوف المسـلمين، فإذا بينهم من رجال الفلك مَن يعتد بجهوده في أحدث بيئة فلكية تعيش اليوم بيننا.

وبينهم من رجال التنجيم مَن ترك آثاراً لا تُضاهى، وبينهم من رجال الهندسة من شهدت قواعده بكعبه العالي، وبينهم من رجال الطب والصيدلة مَن بزَّ أساتذته من

اليونان والفرس وأدخل على ما ورث من مذاهب الطب طرائق كان لا يصدقها العقل.

وبينهم من رجال الوزارة والكتابة والحساب مَن تفنن وأتقن واخترع من وسائل الفكر والخيال والإبداع ما تدل عليها مخلفاتهم وتشهد بها آثار أقلامهم.

لسنا عظاميين نريد أن نتكل على فخارنا على أمثال هؤلاء الأجداد، فتلك خلال العاجزين فيما نعرف، ولكننا هنا لنثير أمثال هذه الذكريات أملاً في أن نشحذ الهمم ونهيئها للعمل فيما يتعلق بها في ضوء هذا المجد الأثيل..

إننا هنا لنقنع الجاحدين ممّن تنكروا لآبائهم وجهلوا حظ أسلافهم من ألوان المجد وحسبوا أن أمتهم لا تملك من المؤهلات ما يعدها لمواجهة الحياة التي تعيشها أمم تعاصرنا اليوم. إننا لا نبدع جديداً ونحن نتطلع إلى حياة أفضل فقد أثبتت التجارب قبل اليوم أن لا مستحيل علينا إذا صدقنا العزم.

ليس لكَ أن تربطني بعجلة أفكارك

قال صـــاحبي: لا أمقت شـيئاً مقتي للإنسـان الذي يأبى إلاّ أن يسـترقّك لآرائه ويفرض عليك فلسفته في الحياة.

قلت: أمّا أنا فلا أرى الجريمة في أن تذنب في ملكوت الله الذي يســـع المذنبين بفيضـه وإحسـانه، ولكن الجريمة أن تربطني إلى عجلتك وتفرض آراءك على ملكاتي فتعطّلها، وتحجر على أفكاري فلا تبيح لها أن تحلّق إلاّ في حيز حدَّدته خطوطك.

إنه العقل المتفتح جامح الخيال رحب الأفق لا يذكيه إلاّ أن يحتك بالمعارضـــين والمناقضـين ليمرن بذلك ملكته على مناقشـة آرائهم وتمحيص أفكارهم وعندئذٍ لا يربح ما اعتنق من رأى بقدر ما يربح تمرين نفسه على الاستنتاج والاستنباط.

إن العقل المرن الذي نرى أثره في أحدث ما ابتكرته الأفكار الجبارة لم يكســـب مرونته من نظريات تلقاها من أساتذته في صيغ محدودة لا تقبل المراجعة ولا تتسع للنقاش الحر، بل تعلم أول ما نشـــأ كيف يمارس النقاش وكيف يمرن ملكته على الاستنباط، وربما استنتج الفكرة الخاطئة فهداه الخطأ إلى محجة الصواب.

أنت لا تنكر أن أروع النهضـــات الفكرية في تاريخ الأرض لم تتوقد جذوتها إلاّ بعد أن استطاعت أن تذكي روح البحث في جماهيرها دون أن تبالي بتشـعب الآراء وتضـاربها، فتلك تيارات تدل على مدى النشـاط الذي يهيب بالعقول لتتفتح ومن ثم لا تلبث أن تستعر وتسلك سبيلها المنتج في الحياة.

أمّا الركود على ما قيل والبقاء على ما علم وتحديد البحث بما اســتخلصـــه أســـتاذك أو اســـتنتجه معلم معروف الكفاءة فذلك حَجْرٌ لا يفتق ذهناً ولا يعد العقول للابتكار والاختراع.

أنت تعرف أن في الشرق أمة ذاع صيتها بما أنتجت في مجالي الابتكار والاختراع، وباتت تجاري بمنتجاتها عدداً كبيراً من أرقى أمم الغرب علماً وعملاً وأنت تقرأ الكثير من تاريخ نهضتها لتلتمس أهم البواعث التي هيأتها للحياة الجادة فتجد أنها مارست أكثر ما مارست تمرين العقول فيما يفتقها فيعلمها كيف تناقش المفاهيم دون أن تقيّدها نظرية قيلت أو فكرة رصدت أو حكمة كتبت.

كان هناك مجال لمداولة العقول لاحتكاكها. لتمرينها على البحث والدراسة. والاستنتاج الذي لا تحده قاعدة ولا تقف به عند نظرية، ربما سرقوا الفكرة أو استعاروا التصميم لكنهم لا يلبثون أن يتخطوا ما سرقوا أو استعاروا فإذا هم وقد أبدعوا فيما أنتجوا وتخطوا حدود ما أخذوا عن غيرهم، فما أحوجنا ونحن على أبواب هذه النهضة أن نعلم العقول كيف تمارس لنبدع كما أبدعوا.

عَلَينا أن نتفَاعَل مَع أحدَاث الحيَاة

قال صاحبي: أحسبك سمعت صديقنا وهو يقول في حديثه بالأمس أنه عود من حزمة، وأنه إنسان حده حد نفسه وأن حسبه من الحياة أن يخرج من بيته إلى تجارته ليعود من تجارته إلى بيته دون أن يشغل نفسه، بشيء من تيارات الحياة في أركان الأرض.

قلت: إنه ضيّق الذهن في صورة لا يقبلها إلاّ إنسان محدود العقل.

إن حياة الإسلام عاشت قبلنا مئات السنين تتجاذب وتتدافع فكرياً وعملياً حتى أنتجت ألوف النظريات، حتى عرف الأوروبي اليوم كيف يتسلح بها وهو يخوض غمار الفكر والإنتاج.

فلو وقف التجاوب يومها والتدافع بين أعلام الفكر وأساطين الفلسفة وكبار علماء المذاهب لما احتل العقل، ولما استطاع أن يمارس أعماله اليوم في نشاط نرى آثاره لامعة في أكثر أقطار العالم المتمدن.

ولو وقفت تلك الأجيال تدعي أن حدّها حد نفسها، وأن الرجل يكفيه أن يكون رجلاً من بيته إلى تجارته، ومن تجارته إلى بيته لتعطلت أعمال العقل ولما استطاعوا أن يتركوا للحياة هذه الأرتال من الأعمال الفكرية والمذهبية وهذه النظريات التي أعدت العقول لما تتمخض اليوم عنه من إنتاج.

إننا لا نبالغ إذا ادّعينا أن جميع أحداث الحياة التي لا تزال تغير أوضاع الأرض وترسم خرائطها في أشكال وصور ينسخ بعضها البعض، وأن جميع ما دال من دول وما قام على أنقاضها من أمم وما طرأ على قارات الأرض من جزر ومد وحروب ومطاحنات لم تكن إلاّ نتائج نظريات عاشت في رؤوس المفكرين قبل أن تأخذ سبيلها إلى العمل وأثراً من آثار ابتكارات اخترعتها عقول لم تكن ضيقة الحدود.

إن خارطة اليابان في لونها الأخير لم يرسمها جنود الحلفاء على كثرة عددهم، وإنما رسمها عقل واحد استطاع أن يستخدم الذرة في "هيروشيما" مدينة اليابان الصناعية.

وإن حضـــارة أمريكا اليوم التي هيأتها للإشـــراف على الكرة الأرضـــية لم تكن في أحد الأيام إلاّ عقولاً واسعة الآفاق حفية الإنتاج استطاعت أن تعدها للمركز العاتي العظيم الذي تزهو به اليوم على الممالك والأمم.

فلو ضاقت أذهان المنتجين عندهم، والتزم كل مفكر عامل في الحياة حده الذاتي لا يطمع إلاّ في العمل المحدود بين تجارته وبيته لما كانت أمريكا اليوم، ولما كان هذا الشأو الذي تملي به على الحياة.

ما أحلى أن نصيخ إلى صوت الحياة، وأن نتفاعل مع أحداثها، وأن نبني في غمارها كما بنى أجداد لنا عرفوا كيف يعايشون أحداثها وأن نفعل مثل ما فعلوا.

علينا أن نواجِه مُقدَّراتنا بفهم الحصيف

(1)

قال صاحبي: يروعني هذا التكالب على حرب الإسلام وتشويه تعاليمه بصورة تكاد تلمس فيها روح الصليبية المتعصبة.

قلت: إنه خطأ المسلمين قبل أن يكون خطأ أعدائهم! فلو تبينوا موقعهم ممّا يُراد بهم وعرفوا كيف يواجهون مقدراتهم بفهم الحصيف الذي لا يغشه زيف المزيفين ولا ترهات المبطلين لكان شأنهم اليوم غير هذا الشأن.

إن أعداء الإسلام في الغرب أو الشرق لا يخشون شيئاً كما يخشون يقظة المسلمين وتجمعهم على الصراط الذي اختطه لهم دينهم وفرضته عليهم تعاليمهم؛ ولهذا لا أحسبك تعجب إذا قرأت ما ينال المسلمين في كل الأصقاع التي يهيمن عليها الروس.. فإن مبادئ ماركس التي يدينون بها ترى أن لا نجاح يحقق مراميهم إلاّ بالقضاء على الإسلام في سائر الشعوب والأقاليم التي باتوا يحكمونها.

وقل مثل هذا في أكثر الممالك التي يسيطر عليها الغرب عملياً أو فكرياً، فما أكثر الأخطار المدسوسة في كثير من المبادئ التي يبثها باسم العلم رجال تخصصوا في هذا البث فأوهموا المغشوشين أن عقيدتهم قابلة لبحثهم ليدخلوا على الغفل من بعض شباب الإسلام ومراهقيه وطائفة من شيوخه المأخوذين بالبريق الزائف حتى نسينا –بتأثير ما دخل علينا– حقائق الإسلام وأهملنا ما يجب علينا لكيانه وانسقنا وراء ما زينوا لنا من ترهات وما استنتجوا لنا من أباطيل.

إنها دون شك روح الصليبية تعيدها جذعة. فثمة شعوب تعبئ طاقاتها مادياً ومعنوياً للضغط على مقدرات المسلمين وإضعاف معنوياتهم وتشكيكهم في كل ما ورثوا من حقائق كانت ناصعة البيان يوم كانت اليقظة عامة في أقطار الإسلام،

فباتت مهزوزة بفعل ما انساق إلى المسلمين من نظريات ودراسات سمّوها علمية بعد أن بطّنوها بما انتهى إليه إبداعهم في المغالطة المخدومة والتضليل المحبوك.

كان عليهم ألا ينسوا فضل الإسلام ومفكّري الإسلام على حضارتهم يوم نهبوا تراثه وسرقوا أفكاره وقلّدوا حضارته.

كان عليهم ألا ينسوا أننا قبل هذا وبعده أبحناهم علومنا وفتحنا أمامهم أبواب مجامعنا ولم نبخل عليهم بآرائنا وما انتهينا إليه من نتائج بحوثنا ولكنه التعصب البغيض أبى عليهم إلاّ أن يتنكروا لكل ما بذلنا لهم وما هيأنا لإنشاء حضارتهم.

وعوداً على بدء أرى أننا نشاركهم الخطأ إن لم ننفرد به دونهم! فقد أسلمناهم قيادنا ورضينا أن نقيد أفهامنا بهم دون أن نتبيّن وجه الحق في غمار ما يضللون.

ورحم الله شاعرنا البدوي الذي يقول:

أساي مني وبي
وأنا اللي بالوادي جريت
والعتب مني طلع
وأنا اللي بناره انكويت

فغضبة يا سراة الإسلام تعيد لكم مجدكم وتفتح عيونكم على حقائق الحياة.

علينا أن نواجِه مُقدَّراتنا بفهم الحصيف

(2)

قلت لصاحبي: وكنا في صدد خصوم الإسلام الذين تكالبوا علينا واستطاعوا أن يهيمنوا على مقدراتنا وأن يقيدوا أفهامنا بهم دون أن نتبين وجه الحق في غمار ما يضللون به علينا.

قلت له: ليس بيننا وبين أن ندعم شخصيتنا في مجالي الحياة إلاّ أن نعرف مدى مسؤوليتنا حيال أحداث الحياة ونتبنى نوع الواجبات التي يفرضها علينا ديننا لنأخذ دورنا وافياً بين الأمم.

علينا أن نبعث الروح التي عاشت أحقاباً طويلة تخطط مسيرة آباء لنا أثبتوا ذاتيتهم وحققوا من أمانيهم ما شهد به تاريخهم الناصع.

وليس هذا بعزيز علينا إذا تضافرنا على العمل الجاد، وتعاونت سائر قوانا في المجامع والمدارس والمساجد ودور المصانع وغرف المساجد.. الإمام في مصلاه، والعالم في حلقة درسه، والتاجر في منصة متجره، والعامل إلى جواره سنداً له، والمزارع بين رفشه ومحراثه، والمتسوّق في أقصى زاوية من سوقه أن عليه لعزة دينه واجبات لا يجوز بحال أن يتخلى عنها أو يتراخى عن العمل في سبيلها.

علينا أن نتنكر لكل أجنبي عن الإسلام يحاول الهيمنة على مقدراتنا أو يحتال ليسيطر على أفهامنا ويكبل عقولنا بما يضمن له النجاح في توجيهها التوجيه الذي يقيدنا به ويربطنا بعجلته.

لقد تناولنا في بعض ما قلنا قبل اليوم قصص المستشرقين الذين يأبون أن يناقشوا مبادئ الإسلام إلاّ بالصورة التي تمليها أهواؤهم، وقلنا إنه إذا كان البعض قد خدم النقاش بروح علمية بحتة فإن كثيراً منهم أضلّهم الهوى فناقشوا أكثر

مباحثهم بروح تتنافى وحقائق العلم، فثمة نظريات أكدوها كمبادئ وراحوا يؤولون في تفسيرها عشرات النصوص ويحرفون من معانيها ما يدعم تأويلهم وبذلك أوهموا كثيراً من شباب المسلمين بأن مفاهيم الإسلام لا تتماشى مع الحياة، فضللوا بذلك طوائف لا يحصى عددها زلزلت بعض عقائدهم. ولو تحرّى هؤلاء الشباب ما زيف به عليهم وكلفوا أنفسهم دراسة الحقائق في مظانها الصحيحة لكان شأنهم غير هذا الشأن.

إن في المكتبة الإسلامية ألوف المجلدات التي عاشت مدفونة لا يعرف الشاب حتى ولا أسماءها وليس بينه وبين أن يتفهم حقائق دينه ومعالم تاريخه الناصع إلاّ أن ينبش عنها ويعكف على قراءتها ليرى أية دراسات عني علماؤه ببحثها بصور لا تدع مجالاً لمرتاب.

لقد نسينا كل هذه الذخائر وتقاعسنا عن نبشها، وتركنا لخصومنا من كل لون وجنس أمر العناية بها فاطلعوا وتوسعوا في الاطلاع، وعرفوا كيف تؤكل الكتف واستطاعوا أن يخرجوا علينا بما استنتجوا في أساليب لحمتها التشويه وسداها الزيف.

غضبة يا قوم تفتح عيونكم على حقائق ما ضللوا وزيفوا.

لئلا نعَلِّم أطفَالنا وشبَابنا العصيَان

قال صـاحبي: ما رأيت كصـديقك (فلان) مطاعاً في أهله محترماً بين أبنائه يقول الكلمة فلا تعصى بل ربما أشار الإشارة فكان لها حكم الأمر النافذ لا كما يشاهد بين بعض الأبناء وآبائهم الذين يلحون في الخصـام عند أول بادرة تبدر بأمر من والديهم.

قلت: إنها حكمة سيد الأسرة. فثمة أب يعرف كيف يحترم نفسه فيحترم كلمته لا يلقيها على عواهنها لأنه سـيد مطاع فحسـب وإلاّ جاءت برد الفعل وعلمت أولاده اللجج وربما ساقتهم إلى العصيان.

إذا عرف الأب كيف يناقش أولاده في الفكرة قبل أن يصـدع بالأمر فيها، وأن يكشف لهم وجه الصواب من الخطأ ليتبينوا موقفهم منها استطاع أن يكسب ثقتهم وأن يعلّمهم كيف يحترمون رأيه فيما يرى.

وإذا مرن الأولاد على احترام الثقة بات لأبيهم مركزه المحترم منهم حتى إذا بدرت البادرة. مسـتعجلة لا يتسـع وقتها للنقاش قامت الثقة بدورها في احترام كلمته وطاعة أوامره.

وقد قيل إذا أردت أن تطاع فاحكم بما يسـتطاع. وأنا أرى الاسـتطاعة هنا تعني إلى جانب معانيها قناعة المأمور بأن ما يتلقاه من أمره ليس أمراً للأمر وليسـت أحكاماً جزافاً تلقى على عواهنها، لا لشيء لأنه أب أمر وأن كلمته يجب أن تطاع.

حذارِ يا صـاحبي أن تترك أوامرك تترى على أولادك دون تمييز أو حسـاب؛ لأن الطفل أو الشـاب إذا أدرك أنك كثير الأوامر وأنها أوامر لا تعني شـيئاً إلاّ أنك صـاحب الكلمة وأن كلمتك يجب أن تطاع حتى ولو لم يقرها عقله تمرّد على ما أمرت، وربما استساغ التمرد فلج فيه إلى نهاية لا تحمد عقباها.

ما أحلى أن تأمر لشـيء فيه مصـلحة وأن تنهي عن شـيء تعرف مغبته السـيئة. وهذا يعني في رأي التربية الحديثة أن يدرك الابن مدى المصلحة فيما أمرت ويستبين مغبة السوء فيما نهيت.

وإذا نسيت فلا يجب أن تنسى قصة الإيحاء. فإذا استطعت أن توحي إلى ابنك أنه إنسان مميز، وأنه يدرك في موقفه هذا مبلغ ما يتعرض له من مساوئ وأخطاء إذا أصـــر على ديدنه فيه، وأن من الأخطاء ما هو كيت وكيت ومن المســاوئ ما هي كيت.

إذا اســتطعت أن توحي إليه بمثل هذه المعاني في هدوء العاقل تكشــفت أمامه الحقائق الغامضـــة في الأمر، وازداد ثقة بآرائك وتأكد لديه مبلغ حرصـــك على مصالحه.. فلانت قناته وهان عليه أن ينقاد لما ترى وأن يحترم ما تأمر.

على أن أوامرك لا بد وأن تكون محتملة التنفيذ، فإصـــدار الحكم في مواقف لا تحتمل التنفيذ أمر يفقدك الثقة ويشـكك في قيمة آرائك ويعطي المأمورين عشـرات الحجج ضدك، وبذلك يجدون مئات المبررات لعصيانك.

للأَدب أثره في حيَاة الأُمم

قال صاحبي: ألا يصح أن نسمّي الأدب ملهاة المترفين؟

قلت: قد يصح هذا في أمة بلغت شأوها من التقدم وباتت ولا هم لها إلاّ أن تترف وتلهو بطيبات ما نالت.

قلت: ولكنه في غير هذا السبيل تناط به حياة الأمم الغافية وتعقد عليه الآمال في يقظة الوعي وإنارة الطريق.

أنت اليوم لا تقرأ تاريخ أمة أثبتت وجودها بين الأمم الحية وتتبع أهم العوامل التي هيأت صحوتها وأنارت أمامها الطريق إلاّ وجدت للأدب أثره الفعّال في حياتها.

صحيح أن انتشار التعليم بين طبقات الأمة يبصرها بالحياة ويهيئها للعمل النافع الجاد، ولكن الأدب هو البذرة الأولى الذي تتفتح عنه الحياة.

قد تذر الأمة في غفوتها طويلاً فلا تحس بمدى ما تخلفت عن غيرها في سلم الحياة، وربما طاب لها أن تنعم بلذة استرخائها، وربما تراءى لها أنها سعيدة بما يكتنفها من استنامة حالمة.. وهو شأن كل أمة رضيت أن تستكين لضعفها وتنزوي في إحدى زوايا الإهمال. وهنا يأتي دور الأديب.

والأديب الذي أعنيه شعلة تتوقد في إحساس مرهف يستفزه واقع أمته فيألم لآلامها ويتعذب لما سدرت فيه من غفوة فيندفع في حماس ليصرخ في مضاجعها فيقض نومها ويطرد النعاس عن أجفانها ويظل أمره على ذلك حتى تتوثب للحركة وتتهيأ للنهوض.

لست أعني الأديب المصنوع، ولا الأديب المتاجر، ولا الأديب الكاذب الذي يميل بميل الأحداث.. فتلك أصناف ربما برعت في التنسيق والتزويق وإرسال

الصيحات في نبرات خادعة تخالها صيحات الهوى، وليس فيما تذوقه وتحسن تنميقه إلاّ ما يحقق ربحها الذاتي ومنافعها الشخصية.

من الغبن أن نسمّي مثل هذه الصنوف أدباء وهم ليسوا أكثر من تجار كلام يجيدون الصياغة ويتقاضون الثمن ويعرفون كيف تؤكل الكتف.

إنما الأدباء الذين أعنيهم هم الأدباء الذين تستفزهم أصالتهم فيستوحون مشاعرهم ويندفعون بتأثير من وجداهم ويأبون أن يشتروا بعقائدهم عرضاً زائلاً مهما بلغ ثمنه أو تضاعف أجره.

بمثل هؤلاء الأدباء تناط حياة الأمم الغافية، وعلى كواهلهم تعقد الآمال في يقظة الوعي.

فإذا استيقظ الوعي أحس القادرون على العمل بضرورة السعي والحركة. وعندها تنشأ المدارس ويعمم التعليم، ويشعر بالتالي كل مواطن بأن عليه ديناً لبلاده يجب أن يوفيه.

ولا ينتهي دور الأديب في رأيي عند هذه الصحوة لأن عليه أن يتابعها قبل أن تضطرب المسيرة وتختلط الدروب.. عليه أن يتابعها بمشعله لينير أمامها الطريق فتسلك سبيلها السوي إلى غايتها الصحيحة في الحياة.

عِندما نكيّف وجدَاننا

قال صاحبي: ألا ترانا خاضعين في حياتنا لمئات التقاليد ومئاتها مما لا يقره منطق ولا يوافق عليه إنسان وهبه الله ذرة من عقل.

قلت: لقد ورثناها من أجيال سبقتنا فانطبع وجداننا من نعومة أظفارنا، فإذا رأيتنا ننظر إلى الحياة من زاوية ما انطبعنا عليه فلا تستغرب ما نفعل.

إن عاداتنا في مآتم الموت وأفراح الزواج وما إلى الزواج من تفصيلات، ثم في عقد العقود وطريقتنا في الاحتفال به وما نعاني من مشاق في استئجار الحلى والثياب أو استعارتها وما نبذله من نفقات لا حد لإسرافها.. كل هذه لا يختلف عاقلان منا على استهجانها ومقتها، بل إننا في الواقع لا ننفك في كل مناسبة نشيد بمساوئها ونتفكه بنوادرها في ازدراء ومقت، ونقضي كثيراً من ليالي سمرنا في تعقب مصائبنا فيها وشرح ما نعانيه. من هذا سيئاتها تطالعك على الدوام في وجوهنا علامات الكره ناطقة بأبرز معانيها ومع هذا فنحن نمضي في خضوعنا لها مضيَّ العبد تسوقه عصا سيده الجبار ونؤدي طقوسها مستوفاة كاملة كما يؤدي عابد الوثن طقوس وثنه في خنوع الجاهل الضال.

والشيق الذي تهولك غرابته أن الدين قد يبيح لنا ما تحرمه العادة أو يحرم ما أباحته، ومع هذا فنحن ننسى نصوص الدين أو نتغافل عنها ونمضي في ركاب العادة مستجيبين لتقاليدها راضين بأحكامها.

ولو أردنا أن نمضي في سرد الأمثال لهذا لاستطعنا أن نملأ أضخم المجلدات، فأكثر تقاليدنا في غدواتنا وروحاتنا، في صحونا ونومنا، في بيوتنا وأسواقنا، في حبنا أو كرهنا، في أفراحنا ومآتمنا، في مأكلنا ومشربنا، في أزيائنا وملبوسنا كلها مستوحاة من عادات نشأنا عليها أو تسلّمناها موروثة من أجدادنا فتكيف وجداننا بكيفها

واصطبغنا نحن بصبغتها فلا محل للتغيير فيها ولا وجه للفرز والانتقاد إلاّ في اليسير النادر.

وهذا اليسير النادر هو هدفنا اليوم فيما نحن بصدده.

يقول علماء التربية إن في الاستطاعة أن نحكم وجداننا ونكيفه بالكيف الذي نريد ولا نتركه يحكمنا بما ألف ويوجهنا بما انطبع عليه من العادات. فإذا استطاع الرجل أن ينظر إلى نفسه نظرة فيها كثير من الوقار وأن يحترم ذاته كإنسان له شخصيته واستقلاله، وأن يعطي هذه الشخصية قيمة أكثر مما يعطيها الرجل العادي عندئذٍ لا يعجزه أن يكبر على وجدانه المطبوع ولا يعجزه أن يقف في كل خطوة من حياته موقف المميّز الذي يفرز الأشياء ويفهم معانيها ويدرك إلى أي حد كان تأثير الوجدان فيها ثم يعمد إلى مكان الوجدان منها، فيحاول أن يلوي شكيمته بأسلوب مقنع يبدو فيه أمام انطباعات وجدانه في مظهر الرجل الذي يعتز بكرامته ويربأ بها أن تساير البيئة في كل ما تعودت كما يسايرها العاديون الذين لا يحترمون ذواتهم ولا يشعرون بكرامة استقلالهم الشخصي.

إنك قد تحتفل بزواجك فنرى أن وجدانك أو وجدان بعض قرابتك المطبوع بطابع بيئتك لا يجيز هذه الخطوة إلاّ في وضع معين له تقاليده المقدسة، فإذا استطعت أن توحي إلى هذا الوجدان بأنك أكبر من أن تتقيد لتقاليد لا يقرها عقلك فستكبر في نظر نفسك وتبني لشخصيتك من جديد.

مَكتَبة المثقف عنوانهُ الصّادق

قال صــاحبي: ما جمعني جامع بصــديقك فلان إلاّ رأيته يتأبط كتباً اشــتراها من يومه.. ربما مر بي في الشــارع أو رأيته في مكتبة أو صــادفته وهو يركب ســيارته، ولا أذكر مرة أني شهدته خلواً من مجموعة كتب تصحبه، كما لا أذكر أني سألته مرة إلاّ ليجيبني أنه اشتراها لوقته.. فأي وقت يتسع أمامه لقراءة كل ما يشتري؟ وأي دخل يكفيه لتغطية كل ما يشتري.

قلت: أمّا أن وقته لا يتسع لقراءة كل ما يشتري فهو لا يشتريها ليقرأها في يومه، وإنما هي ذخائر يكنزها لفراغه على مدار العام وما يتلوه من أعوام.. وأمّا موضـــوع دخله فمدى علمي أنه ينظم موازنته بشـــكل مقدر مضـــبوط وهو يعطي منها بند شراء الكتب أوفى رقم يستطيعه.. والطريف في أمره أنه ألغى في سنيه الأخيرة عادة شرب الدخان، وألغى كثيراً من كماليات الحياة التي رأى أن في استطاعته الاستغناء عنها ليوفر بنودها الخاصــة فيضــيفها إلى البند الخاص بشــراء الكتب وقد سمعته مرة يقول: إن حاجتي إلى الغذاء الذهني لا تعادلها حاجة في ســائر شــؤون الحياة.. وهو من أجل هذا لا يجلس إليه جالس ليناقشـــه في أي فرع من فروع الفكر إلاّ وجده ضــليعاً نادر المثال وما عنّ له قط أن يحاول كتابة بحث من هذه البحوث التي تعود كتابتها إلاّ استطاع أن يوفيه شمولاً وغزارة لا تتهيأ لكاتب عادي.

ثم لا أرى وجهاً للغرابة, فالمثقف الضــليع لا يواجه الحياة بســائر ألوانها إلاّ من خلال مكتبته العامرة بصـــنوف الأفكار والمفاهيم. إنه وهو يقتعد مقعده من غرفته أو مكتبته في ظل رفوفها وخزاناتها يستطيع أن يحلّق في أبعد أجواء الفكر الإنســاني وأن يحتك بأحدث مفاهيمها الحية ويخالط آخر تطوراتها.

إن صاحبنا لم يفعل جديداً فقد عاش العقاد رغم دخله المحدود –إذا قيس بأصحاب الأرباح الكبيرة– ينفق شهرياً على شراء الكتب ما يقدر بثلثي مكاسبه كما يقول بعض العارفين. استغنى عن كل أنواع المكيفات، وتحاشى جميع الكماليات، وأبى على نفسه أن يكون له أسرة ترهقه نفقاتها؛ ليصبح كسبه بعد كفاف العيش وقفاً على اقتناء الكتب! وبذلك توافرت له مكتبة قل أن يضاهيها مثلها حتى في الدور العامة التي تشيدها الحكومات للمطالعة.

وبهذا استطاعت مكتبة العقاد أن تجمع تكويناً هائلاً وأن تهيئه لقيادة الفكر في بلاد الشرق العربي، وأن تعده ليناقش من فلسفة الحياة ما لا يضاهيه فيها منازع حتى أثبت وجوده بين فلاسفة العالم، وأصبح أكاديمية قائمة بذاتها يعترف بها أساطين الفكر في أمريكا وأكثر بلاد أوروبا، وبات وثيق الصلة بمشاهير العلماء والفلاسفة في أشهر البلاد الراقية. وكان بريده اليومي يرهق سعاة البريد لكثرة مراسليه في الآفاق من طلاب المعرفة وهواة النقاش وكبار المؤلفين الذين يبادلونه هدايا الكتب والمؤلفات.

إن مكتبة المثقف هي عالمه الذي لا تحده حدود، وهي جهازه الكوني الذي يصله بكل ما في الكون من معارف الحياة.

ليتَ لنا مِثل عنايتِهم

قال صاحبي: إن تعجب فأعجب لألماني مستشرق لم يتجاوز سن الشباب، صادفته وبعض أصدقائي في بلد عربي، فلما علم أنّا من مكة شرع يحدّثنا عن قصة الرومية التي استدعاها معاوية –رضي الله عنه– يوم جاء مكة ليسألها لِمَ انحازت لجيش عليّ –كرم الله وجهه– ضده؟ فكانت صريحة صادقة لم تكتم شيئاً ممّا اعتقدت. وكان معاوية أمام تصريحاتها مثالاً للديمقراطية الحقة بما أولاها من حلمه وسعة صدره.. فأي عناية هذه جعلت الأجنبي البعيد يتغلغل في تاريخنا بهذه الصورة الواسعة؟

قلت: لا عجب في هذا. فإن أكثر الجامعات الراقية في أكثر بلاد أوروبا وأمريكا تُعنى عناية خاصة بالدراسات الإسلامية.. إنهم يبذلون جهوداً كبيرة في سبيل أن يتفهم الطالب في قسم الدراسات الإسلامية أهم الأدوار التي مرت بتاريخ الإسلام، ويتعرف على كافة المجالات والعلوم التي جال فيها علماء الإسلام، وهم في سبيل هذا يعقدون الندوات لبحث المواضيع العامة التي كان لها أثرها في تنظيم المجتمع الإسلامي في عهوده الذهبية، ويستضيفون في ندواتهم كبار المتعمقين في الدراسات الإسلامية وأكثرهم من المستشرقين ليناقشوهم فيما يغمض عليهم من دقائق علوم الإسلام ويفسحون المجال أمام طلاب هذه الأقسام ليتحدثوا فيما يهمهم من شؤون الإسلام على أن يدعم الطالب حديثه بمستندات علمية يستقيها من أمهات الكتب العربية الموثوقة، أو مؤلفات بعض المستشرقين الذين يعنون بأمثال هذه البحوث.

وكثيراً ما تتسع بحوثهم لدراسة النظم الإدارية التي كانت تسود دول الإسلام ومراجع الفقه التي كانوا يستنبطون منها أحكامهم وأساليب الحياة التي كانوا يعيشونها.

وتعتمد أكثر هذه الجامعات على مكتبات واسعة تضم آلاف المجلدات من أوثق ما ألَّف علماء العربية في عهودهم بين مخطوط ومطبوع إلى جانب ما تضـــمه من مؤلفات المســـتشـــرقين في بحوث إســـلامية تعددت لغاتها بتعدد أجناس مؤلفيها، وأخذت مكانها بين رفوف الأقسام العربية في هذه الجامعات.

لا أقول إن كل ما يدرس في هذه الأقسام من هذه الجامعات يعطي الإسلام حقه من الإنصـــاف، ولا أقول إن كل هذه الندوات التي تناقش تاريخه تعتمد الحق فيما تناقش. فثمة رجال من نوع عرفت لا تضـيرهم كلمة الحق بينما في البيداء رجال لا يهمهم إلاّ أن يضربوا في كل وادٍ بما يشتهون.

لسنا في صدد صحة ما يقال أو رده، فذلك موضوع له بحثه ولكننا اليوم في شأن هذه العناية التي نتمنى لشبابنا أن يتوافروا عليها يخدمون بها دينهم وعروبتهم.

كيف نضمن تحويل المجتمع

قال صاحبي: كيف نضمن تحويل مجتمعنا عن أكثر ما ألف من مضار العادات؟

قلت: إن للأمم والشعوب وحتى الجماعة الصغيرة أخيلة وتصورات خاصة بها.

هذه الأخيلة تجمع الأفريقي إلى أخيه الأفريقي وهما في أقصـــى بلاد الهجرة من جنوب أمريكا.

وتجمع الغامدي إلى مواطنه الغامدي وهما في أعماق بلاد الحبشـــة وتوائم بين الحضرمي وأخيه الحضرمي وهما في أبعد قرية من جزائر إندونيسيا.

يعيش المهاجر مهما نأت به هجرته تحكمه أخيلة بيئته ولا تقوى أكبر المؤثرات على محوها في الغالب إلاّ بعد أجيال وأجيال.. على أن يتناول تغييرها بالتدريج أبناء الأحفاد وأحفاد الأبناء.

يتقادم العهد على العربي في أوروبا فيجاري الأوروبيين في كثير من مظاهر الحياة إلاّ فيما يتعلق بالأخيلة والتصـــورات فيظل فيها عربياً من حيث لا يدري.. تجده بالرغم من اندماجه في مجتمع أوروبي أكثر أخذاً بالغيرة على قرينته وكريمته من الأوروبي، كما تجده أشد تعلقاً منه بأنواع من المجاملات الشائعة في الشرق.

وتطول إقامة الهندي أو التركســتاني أو الأفغاني أو المغربي في مكة فيظل إلى فترة طويلة من حياته وربما حياة ابنه من بعده محكوماً لتصورات بيئته، ونحن نشـهد هذا واضــحاً في مجتمعاتهم بيننا وطريقة عيشــهم وفي الكثير من مظاهر أزيائهم، بل وفي سائر ما يدور في أخيلتهم من معاني الحياة.

نريد أن نخلص من هذا إلى أن الأخيلة والتصـــورات هي النواميس الخفية التي تجمع الأمة أو الشعب وتدعم أفراده وتدمغه بدمغة واحدة وتحفظ عليه حيثيته.

ومنه يبدو لنا أن رجال التوجيه في كل أمة لا يستطيعون أن يضمنوا نجاح توجيههم إلاّ في ضوء ما يدخل في حسبانهم من مراعاة لأخيلة المجتمع الذي يحاولون توجيهه.

فالموجّه الأهوج الذي يقحم نفسه في تيار الأخيلة الخاصة بأمة يعيش بينها فيصدها ويعلن حربها في قسوة وعنف هو موجّه أقرب ما يكون إلى الفشل والخيبة "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك."

والموجّه الحكيم الذي لا يصادر أخيلة مجتمعه ولا يصادم تيار تصوراته إلاّ بمقدار ما يبني دون أن تظهر آثار الهدم خلفه أحرى بالنجاح وأقدر على تحويل المجتمع رويداً إلى الشكل الذي يصبوه فيه.

وإذاً فليس لتحويل المجتمع سوى تحويل أخيلته وتصوراته حتى يتكيّف بالأشياء في الصورة التي يرسمها الموجه.. تكييفاً يرضيه ولا يفتنه أو يستثير حماسه ضد ما ألف من سيئات قديمة.

دراسَات جَديدة في عُلوم البحَار

قال صاحبي: أرى أن من روائع المبتكرات العلمية في القرن العشرين ابتكار تحلية الماء، ذلك لأن المشاهد في كثير من أقطار الأرض شدة حاجة الناس إلى ما يروي ظمأهم. وقد أحسنت حكومتنا صنعاً عندما بادرت للاستفادة من هذا الابتكار في بعض مناطقنا التي شعرت بحاجتها إلى الماء.

قلت: أما إنها أحسنت صنعاً فيما بادرت إليه فهذا ما يسجل لها ومبلغ علمي ممّا قرأت في الصحف أن ثمة خطوات ستترى في هذا المجال حتى يعمّ فيض الماء سائر المناطق المحرومة.

وإذا ذكرنا بالخير حكومتنا على صنيعها فيما بادرت إليه فلا يجب أن ننسى تقدير هذه الأدمغة الجبارة التي استطاعت أن تستخدم العلم لفائدة البشرية في مجال كهذا بلغت حاجة العالم إليه ما لم يبلغه أي مجال في آفاق العلم.

والطريف في الأمر أن الأدمغة الجبارة التي أعنيها لم تقتصر في مجال البحار على دراسة تحليتها فهناك بحوث واسعة أخذت تتناول كثيراً من الجوانب التي يؤمل العلماء أن تفيد البشر في كثير مما تفتقر إليه حياتهم. فهم يرون أن تزايد سكان العالم بهذه الصورة التي تتضاعف بتضاعف الأيام تحتم على العلم أن يواصل السعي لإيجاد الوسائل التي تغطي حاجة البشر وتضمن لهم حياة مطمئنة.

نشطت الدراسات بشكل واسع فاستبان لأصحابها أن في نباتات البحار مصدراً ثرياً لتزويد الصيدليات بأنواع من العقاقير كانوا لا يحلمون بمثلها، وأن فضلات بعض الحيوانات البحرية التي تعيش في مناطق ضحلة من البحار بالغة الفائدة كأفضل مركب كيميائي، هذا عدا الثروة السمكية التي يؤملون أن يبتكروا لصيدها وسائل جديدة يتضاعف بها الإنتاج إلى ما يزيد عن أمثاله اليوم عدة مرات.

ويتبارى أصحاب هذه الدراسات إلى أبعد من هذا، فقد جاء في أخبار أحدهم أنه زار أعماق كل محيطات العالم في رحلة استغرقت عدة سنوات، درس خلالها كل ما يهمه أن يدرسه وتابعه غيره وكان من هواة اكتشاف المعادن، فتبين له أن قيعان البحار زاخرة بخامات النحاس والفضة والذهب واليورانيوم، وأن بعض المناطق غنية بالزيت بشكل يفوق أمثالها على وجه الأرض وهو لهذا يقترح إنشاء معامل في قيعان البحار الغنية بالزيت ولا بأس في رأيه من إنشاء بيوت زجاجية يسكنها العاملون في مجال الزيت كما يرى أن العلم لا يعجز في المستقبل عن إنشاء حقول زراعية في القيعان تسد بعض حاجتهم إلى الغذاء.

حيّ يا صاحبي حكومتنا في مبادرتها إلى الاستفادة من تحلية مياه البحر، وحيّ العقول المفكرة التي لا تقف جهودها عند حد.

مِن أجل مُتابعَة الأَقمار الصِّناعيَّة

قال صــــاحبي: وصـــــاحبي في هذه المرة من الذين لا تتجاوز ثقافتهم ما تحت المتوســط. قال وهو يســتنكر قصــة ما يســمع عن الأقمار الصــناعية وجولتها في الفضاء؛ كيف نستطيع تصديق ما يذاع عن أقمارهم وليس لدينا ما يؤكد وقوعه.

قلت: إن الدولة التي تطلق قمراً لا تعيش وحدها في الكون، ولا تتميز وحدها بالكفاءة العلمية وهي إلى هذا تعرف أن لها أكثر من خصم في مجال السياسة يراقب ســائر حركاتها، ويتجســس على كل دقيقة من دقائق أعمالها. فهي لهذا لا تجرؤ أن تتبجح بما لا تفعل وإلاّ عرضت سمعتها لفضائح لا يُستهان بمداها.

وليس من يجهل أن مراقبة هذه الأقمار في أبعد آفاقها بات أمراً عادياً لا يكلف الأمم التي تقدمت علمياً إلاّ أن تتابع خطواتها على صـــفحة الرادار أو عدســـات المراصـد الجبارة وتسـاير حركاتها في صـورة مكشـوفة لا يخفى منها دقيق ولا جليل. وربما سبقت الأمة المترصـدة أصـحاب القمر الصـناعي أنفسـهم إلى إذاعة تفاصيل حركاته ونشر صوره ومسيرة دورانه.

ولقد قرأت آخر ما قرأت أن إحدى الدول المتقدمة علمياً اسـتخدمت لتصـوير الأقمار عدســـة دقيقة عملاقة قيل إن زجاجها يكلف ما قيمة وزنه ذهباً وأنها في سبيل أن تتابع سير الأقمار الصناعية في الفضـاء أنشأت مراكز للمراقبة في نصف الكرة الأرضـــية الغربي بلغت نحو 22 مركزاً جهزتها بأحدث أجهزة التصـــوير، واسـتعانت فيها بالعدسـات العملاقة الجديدة فأصـبح في اسـتطاعتها التقاط صـور الأقمار في شتى مداراتها، وليدلل الخبر على قوة هذه الأجهزة ودقة التقاط العدسة الجديدة ذكروا أن بعض الأقمار الصــناعية ربما كان حجمها لا يزيد عن حجم كرة

القدم، ومع هذا استطاعت العدسة أن تؤدي وظيفتها وأن تتابعها في وضوح رغم أن مركزها ربما بلغ بعده عن القمر الصناعي ما يزيد عن مئات الكيلومترات.

وتعلق بعض الأخبار العلمية على آخر أنباء هذه العدسة العملاقة التي طوقت مراكزها نصف كرة الأرض، فتقول إن بعض كبار العلماء من المهتمين بطبقات الفضاء استطاعوا الحصول على معلومات هامة قيّمة عن الطبقة الهوائية خارج مدار الأرض. فقد تبين من دقة تصوير العدسة للأقمار الصناعية خلال سيرها في مجراها بأنه يجري تمدد وتقلص في هذه الطبقة خارج مدار الأرض، وتدل هذه الظاهرة فيما يراه العلماء على قوة جاذبية الأرض وتبسطها عند القطبين واتخاذ شكل الإجاصة.

نريد أن نستخلص من هذا أن أجهزة الرصد والمراقبة تتابع سير أصغر قمر صناعي ينطلق إلى الآماد البعيدة، وأن المجال العلمي لا يتسع لمن يتلاعب بأخبار الفضاء أو يدّعي شوطاً في مداه يعجز عن تحقيقه.

مَا يَقولهُ أَحرار اليَهُود في أورُوبا وأَمريكا

(1)

قال صاحبي: ما قيمة الصداقة التي يدّعيها رجال من شعوب أوروبا وآخرون من أهالي الأمريكتين وهم يرون مظالم العدو في فلسطين دون أن يفعلوا شيئاً أو يسمع لهم صوت يندد بالأعمال الوحشية التي لا تخفى عليهم.

قلت: أمّا أنهم لا يفعلون شيئاً فالواقع أن كثيراً منهم حاولوا أن يقفوا لنصرة العرب ولكنهم عجزوا، وقاتل الله السياسة فقد حالت دونهم وما يتمنون.

أما أصواتهم فليس لنا أن ننكر ما سمعنا من أحرارهم، وما نشر بأقلام دعاة الحق منهم في كثير من صحف العالم.

ولعلّك تستغرب إذا عرفت أن بعضاً من اليهود الأحرار في أوروبا وأمريكا أبوا أن يتعاونوا مع زعماء الصهيونيين، أو يقروا مبادئهم في العدوان وأن رجالاً منهم وقفوا في المؤتمر الصهيوني الأخير يتساءلون لماذا نرْغم العرب على دفع ثمن جرائم اقترفتها أوروبا قبل اليوم.

لعلّك تعرف أن موشي منوهين كتب في أوسع الصحف انتشاراً يقول: إن الحقيقة المريرة تواجهني باستمرار وهي أن هؤلاء اليهود اغتصبوا أراضي وأملاك ومزارع الفلاحين والعمال والتجار العرب في فلسطين وأنشأوا دولتهم عن طريق المذابح والمجازر وأعمال الإرهاب.

ويقول البروفيسور مارتن بيلر الفيلسوف اليهودي والزعيم الروحي اليهودي في خطاب ألقاه في نيويورك بمناسبة العدوان الأول عام **1956** على السويس.. يقول: إن الشعب اليهودي يفضل أن يتعلم من هتلر أكثر ممّا يتعلم من زعمائه الروحيين.

فقد أثبت هتلر أنه لا يؤمن بالروح بقدر ما يؤمن بالقوة؛ لهذا عاش يقتل دون أن يكون هناك مبرر للقتل وكذلك فعل اليهود.

ولو أردنا أن نستقصي كل ما أذيع بأصوات العاملين للحق أو نشر بأقلام دعاة الحرية في أوروبا وأمريكا لطال الأمر بنا كثيراً. ولكن الذي أعرفه أن عناية هؤلاء الأحرار مهما اتسع مداها لا يصح أن تستغني عن حملة العرب الدعائية الصادقة التي تثير شعوب أوروبا وأمريكا على كل من يؤيد باطل اليهود أو يدعم مخازيهم.

مَا يَقولهُ أَحرار اليَهُود في أورُوبا وأَمريكا

(2)

قلت لصاحبي: وهو يناقشني في مناسبة سابقة في شأن مَن يجاهرون بصداقة العرب من شعوب أوروبا وأمريكا وهو يظن أنهم يظاهرون العدو في فلسطين بسكوتهم على مخازيهم وفظائعهم.. قلت له إن كثيراً من أحرارهم لم يدخروا وسعاً في إعلان شعورهم.. ولكنها السياسة.. وقاتل الله السياسة فقد حالت دونهم وما يتمنون.

قلت: هذا بالأمس وبين يدي اليوم صحيفة فلسطين وهي تنقل عن كاتب يهودي مستقل حديثاً طويلاً نشره في جريدة جويش نيوزلتر جاء فيه "لقد جئنا وحوّلنا السكان العرب إلى لاجئين وما نزال نجرؤ على الافتراء عليهم والطعن بهم لنلوث سمعتهم، وعوضاً عن أن نخجل كثيراً من أفعالنا ونحاول أن نمحو بعض الشر الذي ارتكبناه فإنا نبرز أعمالنا الفظيعة بل إننا نسعى لتمجيدها."

وفي مقال نشره ناثان شوفستي في نفس الصحيفة وهو من كبار كتّاب اليهود وله مؤلفات واسعة الانتشار جاء ملخصه: إنه عندما اقترب الإسرائيليون من قناة السويس قبل أعوام مضت، وعندما كانت حليفتاهم تقاتلان في بورسعيد أمرت الأمم المتحدة جميع القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية بالانسحاب من مصر وسيناء، وأدرك الفرنسيون والبريطانيون أن الوقت ليس وقت شن حرب عدوانية، وحاول الإسرائيليون أن يماطلوا ولكنهم أرغموا على الانسحاب إرغاماً.. فما بالهم اليوم يتحدّون قرارات الأمم المتحدة التي أتخذت بأغلبية 99 صوتاً مقابل لا شيء.

هذا قليل من كثير صدع به عشرات وعشرات من دعاة الحق والفضيلة من أصحاب الرأي في أوروبا وأمريكا. ومن الطريف أن بينهم من أحرار اليهود

وزعمائهم الروحانيين والسياسيين من لم يبالوا شيئاً في سبيل الحق، وأن بينهم مَن توسّع في إدلاء الحجج وبسط البراهين في صور تؤيد حقوق العرب. ولست أشك في أن العرب لو عنوا بجمع مثل هذه الأدلة التي شهد بها أهل المعتدين وبنو جنسهم لتهيأ لهم دعم جديد صالح لإقناع كل الذين غررت بهم الصهيونية ودعاواها الكاذبة من شعوب أوروبا وأمريكا فهل نفعل؟

الفِدائيُون الفلسْطينيُون

قال صاحبي: يسألني عن رأيي في العمل الفدائي الفلسطيني.

قلت: أنت في سؤالك يا ابن أخي شبيه بمن يسأل ما رأيك في الفوائد التي نجنيها من الشمس!

ثق أنني أعجز من أن أحصي لك فوائد ما نجني من الشمس، كدأبي وأنا أهيأ لإجابتك عن رأيي في أعمال فدائيّي فلسطين بعد أن نذروا أنفسهم لبلادهم وباعوها في سبيل الله.

أتراني أحسن الإشادة بقوم وضعوا رؤوسهم في أكفهم، وتقدموا بها في بسالة لا يبغون من وراء جرأتهم إلاّ أن يموتوا أو تعيش بلادهم حرة؟

أتراني أحسن التعبير وأنا أصف ليوثاً أبوا إلاّ أن يثيروها جذعة في وجوه الغاصبين، وقد استطاعوا رغم قلتهم ورغم فقرهم إلاّ من إيمانهم بحقوقهم أن يقضّوا مضاجع العابثين، وأن يسلبوهم أمنهم وهناءتهم.

صدقني يا ابن أخي أن ما فهمته من بعض أعمالهم لا يُقاس بما أعرفه عن أشد الحروب ضراوة وأقساها مرارة.

إنها أعمال جن مستنفرة فرّت من قسورة. لقد قيل إنهم أبطال ولكنهم ليسوا كالأبطال.. وقيل إنهم رجال ولكنهم ليسوا كالرجال.

قيل إن لهم كياناً ولكنه ليس ككل كيان.. وإن لهم تكتيكاً ولكنه ليس ككل تكتيك، وإن لمسيرتهم رعباً ولكنه ليس ككل رعب.. وإنهم مع هذا وبكل هذا لا يكادون يُعرفون إلاّ بآثارهم وما تركوا خلفهم من خراب ودمار في حصون المعادين ومعاقلهم.

أتدري يا ابن أخي أنهم لا يضعون عيونهم على منطقة حتى يهبطوها هبوط الليل، وينسلوا خلالها انسلال الأشباح، يبثون الألغام ويشعلون الحرائق، ويدمرون أقوى العتاد.. ثم لا يلبثون أن يتبخروا كما يتبخر الغاز في الهواء الطلق.

أتدري أن لهم خرائط مدروسة تشير إلى المواقع التي تسلكها دبابات العدو، وأن لهم تعليمات دقيقة تحدد ساعة الصفر، وأن بين جنوبهم أرواحاً لا تعرف الهزيمة، ولا تقر التراجع! فلا تكاد مسيرة الدبابات العاتية تنطلق في طريقها حتى تنطلق معها متفجرات المترصدين من كل صوب، فإذا دويٌّ هائل يمزق الصمت، وإذا قطع من الحديد تتطاير في الأفق وإذا غمامة كثيفة من الدخان تحجب الشمس ولا يكاد ينجلي الغمام حتى يتكشف عن أوصال الدبابات وقد تناثرت بين معارج الطرق. وأشلاء الظالمين.

إن أبطالك الفدائيين أحالوا ليالي العدو إلى قلق دائم تتراءى لهم فيه أشباح مخيفة وخيالات مروعة، وليس كالقلق ما يثير الرعب ويحقق الهزيمة.

ألا فاصبر وما صبرك إلاّ بالله.

ثق يا ابن أخي.. إنهم بعون الله عائدون.

أَلا نستخلص الأَدوية من أعشابنا

قال صـــاحبي: يبدو أن الكثرة الكاثرة من الأدوية التي تقدمها الصـــيدليات في شـكل أقراص أو أشـربة أو مسـاحيق أو دهان يمكن أن نسـتغني عنها أو أكثرها بما ينبت في جبالنا ووديانا من أعشاب. فما يمنعنا أن ندرس خواصها ونستخلص منها ما نحتاجه لعلّنا نســتغني عن كثير ممّا نســتورد من شــركات الأدوية ولا ســيما وقد بدأت طلائع شبابنا من خريجي كليات الصيدلة يثبتون وجودهم بيننا.

قلت: هذا ما نرجو تحقيقه في نهضــتنا الجديدة. فقد عاشــت الأعشــاب أحقاباً طويلة من عهد الآشـوريين والبابليين إلى عهد قدماء الفراعنة والهند والصـين إلى أن تألقت حضارة العرب.

عاشت الأعشاب مصدراً لتحضير الأدوية في صور وأشكال كانت تعالج ألوف الأمراض وألوفها، وعندما انتقلت أســرار الأعشــاب ووســائل تحضــيرها إلى بلاد الأندلس اســـتطاعت أوروبا أن تحتك بصـــنّاع الأدوية فيها وكانت ثمة مدارس في حواضـر الأندلس لتخريج الصـيادلة.. اتصـل بها بعض الإيطاليين والفرنسـيين ونفر من أهالي أوروبا الوسطى فتخرجوا فيها وهم يجيدون أسرار أكثر الأعشاب ووسائل تحضيرها ثم كانت الحروب الصليبية فاختلط المعنيون بأكثر أعشاب الشرق وأدركوا كثيراً من أسرارها واستطاعوا أن ينقلوا إلى بلادهم كثيراً من أنواعها وبدأوا في تحضير أدويتهم منها حتى لقد جاء في تاريخ الصيدلة أن أول صـيدلية عرفتها أوروبا بدأت أعمالها في القرن الثالث عشر وشرعت تبيع الأدوية مستخلصة من أعشاب شرقية على طريقة ما كان يجري في الأندلس.

ومن المســلَّم به أن خصــائص الأعشــاب فن لا نهاية لبحره الزاخر. فقد أثبتت التجارب أن عشـبة واحدة تنبت عفواً في منحدر صـخري أو يباب قفر ربما جمعت

من الخواص النافعة ما لم تجمعه عدة قناني في دكان الصيدلة! وأن منقوع زهرة ممّا تكتظ به السفوح ومشارف الوديان عندنا ربما نفع في علاج أكثر من مرض بصورة لا يقدرها إلاّ باحث عميق الدرس.

إن أوروبا بعد أن أخذت عن الشرق تجاربه في علم الأعشاب ما لبثت أن توسعت في دراستها حتى تهيأ لها من نحو قرن وبعض القرن أن تحلل المواد الفعّالة في أكثر الأعشاب، وبذلك بدأ علم الأعشاب يتضاءل لتحل محله عمليات التركيب الكيماوي. ومع هذا فلا تزال بعض الحالات المرضية تستعصي عليهم فيعودون إلى تجاربهم في الأعشاب ليستخلصوا منها ما تعذر عليهم استخلاصه من تركيبهم الكيماوي.

لا أعني بهذا أن علينا أن نربط مفاهيمنا بتجارب قرون مضت دون أن ننفك عما استنتجت تلك القرون.. لا.. ولا أعني أننا يجب أن نعيش عالة على ما انتهت إليه أوروبا في مصانعها الكيماوية، ولكنني أعني أن بلادنا مفروشة بأنواع من الأعشاب لا تعرفها أوروبا في أشكال لا يوفيها عد ولا حصر. فما يمنع شبابنا من خريجي كليات الصيدلة أن يستأنفوا الشوط من حيث انتهى الأجداد ليستنتجوا دراسات جديدة ويستخلصوا من الخواص ما لم يهتدِ إليه غيرهم من قبل فيبتكرون من أنواع العلاج ما يثبت وجودهم ولا يعجزهم بعد هذا فيما أعتقد أن يُحللوا المواد الفعّالة في أعشاب لا تنبتها قفار أوروبا ليعملوا على تركيبها في معامل كيماوية بصورة نغزو بها بلاداً عاشت تغزونا بمنتوجاتها. فقد آن أوان الجد وحمّت الحاجات والليل مقمر.

هَل نقضي على شرُور العَالم؟

(1)

قال صاحبي: بُليت بجارٍ لي غضوب، لا يكاد يعقل ما يفعل إذا تملكه الغضب فنحن نعايشه في خطر ولا نأمن على أنفسنا وأولادنا إذا ثارت به ثائرة الغضب، وهو مع هذا رقيق الحاشية، ودود إلى أبعد حدود الود إذا زايله الغضب.. إلى أن قال: وأحلف أنني لو ملكت بسطة في الرزق وتهيأ بي من يحسن علاجه لما بخلت عليه بأثمن ما أملك براً بجيرته وتقديراً لوداده.

قلت: لقد سبق للعربي القديم أن قال:

لكل داءٍ دواءٌ يُستَطبُّ بِهِ
إلاّ الحماقةَ أَعَيت مَن يُداويها

وليس الغضب بمثل هذا المنوال الذي تصفه إلاّ نوع من الحماقة.. فالحماقة فساد في العقل ولا فساد في العقل أبرز مما تشاهد من تصرفات جارك الغضوب.

ولكن مع هذا فليس لك أن تيأس –إذا جادك الرزق– من علاج صاحبك الغضوب. فقد مضى العهد الذي يئس فيه الشاعر العربي من علاج الحماقة أو الجنون وأعلن أنها أعيت من يداويها.

مضى ذلك العهد ونحن اليوم نعيش في عصر الذرة وغزو الفضاء وإطلاق الصواريخ.

لقد نوقشت أمثال هذه الأدواء وما يدور في فلكها من معاني الغضب والاعتداء والحقد في مؤتمر باريس دعا إليه اليونسكو تحت عنوان أبحاث الدماغ.

وتداول العلماء آراءهم في الموضوع فأكد بينهم مَن أكد أن ثمة دورات في الدماغ تنتج لدى تحريكها سلوكاً عدائياً. وقال: إن في استطاعة البحوث الجديدة أن

تتحكم في هذه الدورات فتسلط تياراً كهربائياً على منطقة معينة من الدماغ عندما تنتابه انفعالات مؤثرة فيقضي التيار على بواعث الانفعال، فلا تلبث حرارة الانفعال أن تهبط إلى درجة تحت الصفر فيبدو الشخص وكأنه إنسان عادي يتمتع بأقصى درجات الهدوء ويتجاهل كل مؤثر كان يثير حنقه قبل ثوانٍ من إيصال التيار.

ويؤكد هذا أنه بتجربة التحريك الكهربائي في دماغ حيوان ثائر شعر أن انفعالاته بدأت تتضاءل. ثم ما لبث أن تملكه هدوء غريب أشبه ما يكون بهدوء المخدر ولكن مفعوله لا يتطاول إلى مفعول المخدر في الجسم؛ لأن حواس الحيوان ظلت حية على حالها ولم تتغير فيه إلاّ عوامل الثورة التي كانت كما يؤكد تتفاعل في منطقة معينة من دماغه.

وبعد فإذا صحت نتائج هذه التجارب فهل سيظلنا يوم نقضي فيه على شرور العالم، ونستل سخائم المجرمين والآثمين وموقدي نار الحروب في كل أقطار الأرض؟

هَل نقضي على شرُور العَالم؟

(2)

قلت لصــاحبي: بعد أن تداولنا الحديث في شــأن جاره الغضــوب الذي يتمنى علاجه والذي بدأت بوادر البحوث تتناول أمثال هذه الأدواء وما يدور في فلكها من معاني الغضب والاعتداء والحقد في مؤتمر باريس الذي دعا إليه اليونسكو.

قلت له: إن ممّا دار في مداولات المؤتمر ما أكده عالِم من جامعة بتزبيزغ الأمريكية وهو يقول إن حســاسـية مركز الاعتداء تثار على ما يبدو بمواد كيماوية في الدم ولا ســيما بالهرمونات. وقد جرب هذا العالِم إعطاء جرعات من هورمون معيّن لبعض الحيوانات الثائرة فهبطت حرارة الثورة نهائياً، كما جرب جرعات من هورمونات أخرى في بعض الحيوانات الهادئة فما لبثت أن ثارت ثائرتها على غير ما عرف من طبائعها، وهو يعني بهذا طبعاً أن مجاري الدم في حيوانات بعينها مزوّدة بمواد كيماوية من شــأنها إثارة الانفعالات لأدنى مناســبة، كما أن مجاري الدم في حيوانات أخرى تفقد هذه المادة فلا تشـعر بما يثيرها وتعيش حياتها هادئة مسـالمة.. ومن شـأن هذه الهورمونات أن تترك أثرها سـلبياً أو إيجابياً في نفسـية الحيوان. أو إن شـئت فقل في نفسية الإنسان بعد أن تستنفد التجارب مداها في حقل الحيوان.

ومال البحث في مداولات المؤتمر إلى فكرة الجراحة في إزالة الطاقة العدائية من دماغ الحيوان العاتي. فذكر الدكتور ولغادو من ولاية تكســاس أنه اســتطاع إجراء عملية جراحية نزع فيها جزءاً من دماغ حيوان شــرس، فإذا هو يصــبح أليفاً وديعاً وأن طبيباً يابانياً من جامعة طوكيو أجرى مثل هذه العملية لدماغ إنســان، وإن هذا الإنسان يقول الآن أنه ليس في استطاعته أن يغضب حتى لو أراد أن يفتعل ذلك.

ويعود الطبيب الأمريكي إلى مواصـــلة البحث فيؤكد أن بإمكان العلم غداً وفي الأيام القريبة أن يضـبط سـلوك الإنسـان العدائي، فثمة فاعلات مضـادة للعداوة تتداولها حقول التجارب سوف يصبح في الإمكان إيداعها خزانات الشـرب العامة في أية مدينة يراد لها أن تجنح إلى السلم.

والذي أســتنتجه من هذا أن عالمنا الصـــاخب المائج بالأحقاد والعداوات والانفعالات الغاضــبة ســوف يصــافح عهوداً جديدة يتمتع فيها بالســلم الآمن والصفاء الوادع إذا صحت هذه التجارب وكتب لها حظ في النجاح.

وليس لديَّ ما يريبني في نتائجها. فقد بات العلم لا تعجزه أشـد المعضـلات بعد أن راد أعلى طبقات الجو، وغزا الأفلاك في أقصــى مواقعها البعيدة، وأفتن آلاف المحدثات التي كان لا يتخيلها عقل بشر.

وإذا كان الإنســان قد عاش حياته على الأرض من يوم خلقت الأرض لا يتمنى شـيئاً بقدر ما يتمنى السـعادة والأمن فيها، فإن ظفره بالقضـاء على الطاقة العدائية لا يعدله ظفر في كل ما ابتكر العلم من محدثات.

ما أحلى أن يشــرب العالم كل العالم ماءه ممزوجاً بالمفاعلات المضـــادة للعداوة، فتلغى ســائر أنواع الحروب. ويعيش الناس كل الناس آمنين في أســرابهم قابعين في أوطانهم بحدودهم.

هَل نقضي على شرُور العَالم؟

(3)

قال صاحبي: كنت تحدثت إليَّ قبل اليوم عن دورات في الدماغ طبيعية تنتج لدى تحريكها سـلوكاً عدائياً. وقلت إن البحوث الجديدة تحاول اليوم أن تتحكم في هذه الدورات عندما تسـلط تياراً كهربائياً على منطقة معينة من الدماغ فيقضـي التيار على بواعث الانفعال فلا تلبث أن تهبط حرارتها إلى ما تحت الصفر.

وقلت إن ثمة محاولات أخرى تسـتهدف علاج أدواء الشـر وما يدور في فلكها من معاني الغضـب والاعتداء والحقد وهي تتلخص في إعطاء جرعات من هورمون معين تقضـي على بواعث الغضـب والشـر وهي محاولات لا أنكر عظيم فوائدها لمرضانا من الحمقى والغضوبيين وأصحاب المزاج الحاد.

ولكنك قلت إن البحوث عندما اتسعت أوشكت أن تنتهي إلى ابتكار مفاعلات مضـادة للعداوة، وأنه سـيصـبح في الإمكان إيداع هذه المفاعلات خزانات مياه الشـرب العامة إلى أن قلت ما أحلى أن يشـرب العالم كل العالم ماءه ممزوجاً بهذه المفاعلات المضـادة للعداوة لتلغي سـائر أنواع الحروب. ويعيش الناس آمنين قابعين في أوطانهم.

فهل يعني هذا أن عمران الكون يتفق وهذا السـكون الوادع الذي يقضـي على الانفعالات النفسية؟

قلت إنك تتفلسف منذ اليوم، وفي فلسفتك كثير من العمق. فالواقع أن القضاء على كثير من التفاعلات النفسية قضاء على روح التنافس في الحياة.

ولست أشك أن القضاء على التنافس مجبنة تتقاعس لها الهمم وتتخلف بأسبابها مقدرات الأمم التي عاشت تتسابق في مجالات التقدم.

لســـت أنكر أننا ونحن نقضـــي على تفاعلات النفس ربما قضـــينا على كثير من طاقات العقل وتركنا نوازع الطموح الشـــخصـــي تســـترخي في هدوء رتيب لتحلم بأحلام الكسائي.

لست أنكر هذا ولكنني أنكر في الوقت نفسه أن يعيش العالم –كل العالم– تحت رحمة مزاج دعاة الحرب.. نتركهم لأعصـابهم تتوتر في أدنى مناسـبة وتحتد لأول بادرة ينفعلون فيها فيشعلونها ناراً تأكل الأخضر واليابس.

ويمتد لهيبها إلى البعيد والأبعد، فإذا هي أتون لا حد لسـعته يقاسـي لظاه البريء كما يقاسـيه الجاني وتعاني مرارته الثكلى واليتيم والعاجز وتتسـع مسـاحته باتسـاع أكبر رقعة ينالها اللهب المتصاعد ويقضي على أهلها بالفاقة والتشرد والجوع.

إذا ساءك يا صاحبي أن يقضي العلاج على بواعث الشر بصورة جماعية شاملة خشـــية أن تقضـــي على روح التنافس فلا أقل من أن نبتر رؤوس الشـــر من دعاة الحروب بجرعات من علاجنا الجديد لنســـتل ســـخيمة العداء من نفوســـهم فنخفف بذلك ويلات الحروب ونهدي ولو بعض الاطمئنان لحياتنا في الأرض عســـانا نأمن بذلك ولو بعض الغوائل الفاجعة.

5يونيو([1])

قال صاحبي: أتريدني لأسميها نكسة أو نكبة؟

قلت: لا يا صــــديقي.. إنها في رأيي أهول من هذا وأكثر فداحة ممّا تؤديه هذه المعاني.

أتعرف قصة الذين يخربون بيوتهم بأيديهم؟؟

إنها قصــــتنا.. قصــــتنا حروفها ومعانيها وكامل أبعادها. فهل لك بعد هذا أن تسميها نكسة أو نكبة؟

أم تراك تستطيع أن تبعثني إلى معاجم اللغة عسانا نجد في دفائنها بين مواد الويل والهول ما يصح إطلاقه على ما أصبنا به.

ما أصــابنا اليهود يوم أصــابونا.. فقد كانت أيدينا على زناد القذائف التي رنحت جيوشـــنا وشـــتت شمل أبطالنا، وأباحت العدو ديارنا وأموالنا وشــــردت أهلينا بين المغاور والوهاد.

لقد كان أجداد لنا يقولون إننا لا نُغلب من قلة.. فما عتم أحفادهم أن باتوا يغلبون من كثرة.. فهل لي أن أعرف كيف تسمّى هذا؟

لقد عشـــنا ننقص بيوتنا في كل يوم لبنة. في كل يوم حجر حتى تبدت ســــوءاتنا وخر السقف علينا وتكشفت عوراتنا من حيث لا نشعر وتركنا العدو المتربص يجد طريقه سهلاً إلى حصوننا.

كل هذا كان بما كســبت أيدينا فدعنا نتجرع غصــتنا ونجتر آلامنا فيما نســميه نكسة أو نكبة وأسميه خطباً بالغ الهول.

([1]) - كتبت يوم النكسة للمناسبة .

ستقول لي إن الخطوب إذا تفاقم هولها ربما أحدثت من ردود الفعل ما يكشف غمتها وهو رأي ما أرى في صحته إذا استطعنا أن نجعل من هوله دروساً تقوّم اعوجاجنا وتفتح عيوننا على حقائق ما نالنا.

إذا استطعنا أن نتعاون في صدق وأن نخطط في إخلاص وأن نناقش آراءنا في وضوح وصراحة فقد ضمنا جولتنا الأولى نحو أهدافنا.

نحن لا نشك أن عدونا رغم ما حقق من انتصار لا يعيش ناعماً بما حقق. فقد أقض مضاجعه ما يعاني من مرارة المقاومات وبات أفراده من مدنيين إلى عسكريين يئنون تحت وطأة القلق المستمر الدائم وأن رجاءهم في الهجرات التي كانوا يؤملون إعمار البلاد بها خابت لفقدان الأمن وما نالهم من إشاعة الفوضى في أرض يهددها المتربصون بها ويعرضون مرافقها العامة وحياتها الخاصة للتدمير والهلاك.

وفي هذا القلق وفيما يعانون من فقدان الأمن سر فشلهم وركيزة اضطرابهم وفيه إذا صدقنا وأخلصنا واجتمعت كلمتنا ما يدعم خطوتنا ويضمن نجاح مسيرتنا.

تُرى مَاذا يَنْقمُون مِنّا؟[2]

قال صاحبي: لقد سايرنا ركب العروبة إلى نهاية الشوط الذي استطاع الركب أن ينتهي إليه فماذا أفدنا؟

قلت: لقد حشرنا أنفسنا في خلافات لا يحكمها منطق، وسايرنا في تصرفات كان يستبد بها إخواننا دوننا في ضوء مصالحهم دون النظر إلى مصالحنا أو احترام لمبادئنا.. كانوا يعقدون خناصرهم على فكرة فنتابعهم عليها خشية الفرقة ثم تنقضها معاملاتهم الخاصة فنتناسى ما فعلوا حرصاً على ضم الصفوف.

فعلنا كل هذا وتسامحنا في أكثر من هذا على أمل توحيد الصف. فهل أفدنا من كل ما فعلناه من كنا نتوخاه لعروبتنا أم ضاعت جهودنا في غير سبيل؟

لا نريد أن نذهب في تشاؤمنا رغم ما قاسيناه فلا يزال الأمل يحدونا في أن تصفو النوايا وأن ننسى ما قاسينا ونقاسي.

ولكن الذي نتساءل اليوم عنه في دهشة واستغراب لماذا ينقم منا أصحابنا ونحن ندعو إلى تضامن أشمل وتعاون أوسع ندعو إلى كلمة نادانا بها الدين وحضنا عليها وأوصانا أن نسعى إليها بما نملك من إيمان.

أتكون دعوتهم إلى التضامن وسيلة لجمع الشمل وتوحيد الصف لأنها صدرت عنهم ولا أكثر ولا تكون مدعاة لكل هذا لأن الدين مبعثها.

([2]) - كتبت في مناسبة سياسية خاصة .

لئن كان الغرض ألاّ يجيزوا إلاّ ما نبع منهم أو هيمنوا عليه.. فتلك أنانية لا تتفق مع شرف الدعوة التي يروّجون لها.

إذا كان بيت الله ومبعث دينه وإذا كانت كعبة الإســـلام التي يتعين على ملايين المسلمين أن يتوجهوا إليها لا يخولونها أن تنادي بتآلف المسلمين وتآزرهم وتمسكهم بما جاء على لسان المبعوث فيها عليه صلوات الله وسلامه فإنهم بهذا يثيرون الشك فيما يدعوننا إليه رغباً ورهباً، ويحملوننا على أن نرتاب في نواياهم فنحملها على ما حملها غيرنا ونفسرها بما فسروه بها من أنها كانت أسلوباً لمحاولة الهيمنة ووسيلة من وسائل الاحتيال للسيطرة وإلاّ فما معنى ألا يكون التضامن صادقاً إلاّ إذا دعي إليه بأسمائهم واصطبغ بصبغتهم؟!

نحن لا نريد صبغة إلاّ ما صبغنا الله، ولا نريد وسيلة إلاّ ما ألزمنا بها ديننا وفرضه إيماننا فهل ينقمون منا أن آمنا بالله؟

إن أخشى ما أخشاه أننا شرعنا بتناحرنا نعرض بلادنا من جديد لمشاكل كنا في أشد الغنى عن التعرض لها.. وإننا بتنا منذ اليوم نعود القهقرى إلى مضاجعنا القديمة قبل أن نستيقظ وأصبحنا نشرع معاولنا لنهدم كل ما بذلناه من جهد وننقض جميع ما بنيناه لحرية بلادنا واستقلالها.

شــرعنا نحتك بالأقوياء من غير طينتنا ونمتحن إمكانياتنا الجديدة بما لا تســتطيع الثبات فيه إذا جد الجد، فإذا عصــفت بنا العواصــف غداً وإذا اجتثت ما بنيناه

لحريتنا واســتقلالنا وحرمتنا ما ظفرنا به بعد طول الجهد فالذنب في هذا ليس ذنب الطامعين بقدر ما هو ذنب المتناحرين من بني قومنا في سائر أقطارهم.

فهل يخفف المهتاجون بعض غلوائهم ويعودون إلى ضـمائرهم فيحاسبونها على ما اقترفوا بعنادهم وما عرضونا له بتناحرهم أم هم سادرون فيما أرادوا من شطط حتى يسلموا بلادهم إلى أسوأ العواقب وأشدها خطراً على حياة الحرية والاستقلال.